عبدالله برّي



اليهوديّة النصرانيّة الإسلام



الطبعة الأولى
١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م



شارع المعماري - بناية نوفل - تلكس: نوستن ٢٢٢١٠ LE - هاتف: ٣٥٤٣٩٤ - ٣٥٤٨٩٨ - ص.ب: ١١/٢١٦١ - بيروت - لبنان
Mamari str. - Naufal Bldg. - Tel.: 354394 - 354898 - Telex: NAUSTN 22210 LE - P.O Box: 11/2161 - Beirut - Lebanon

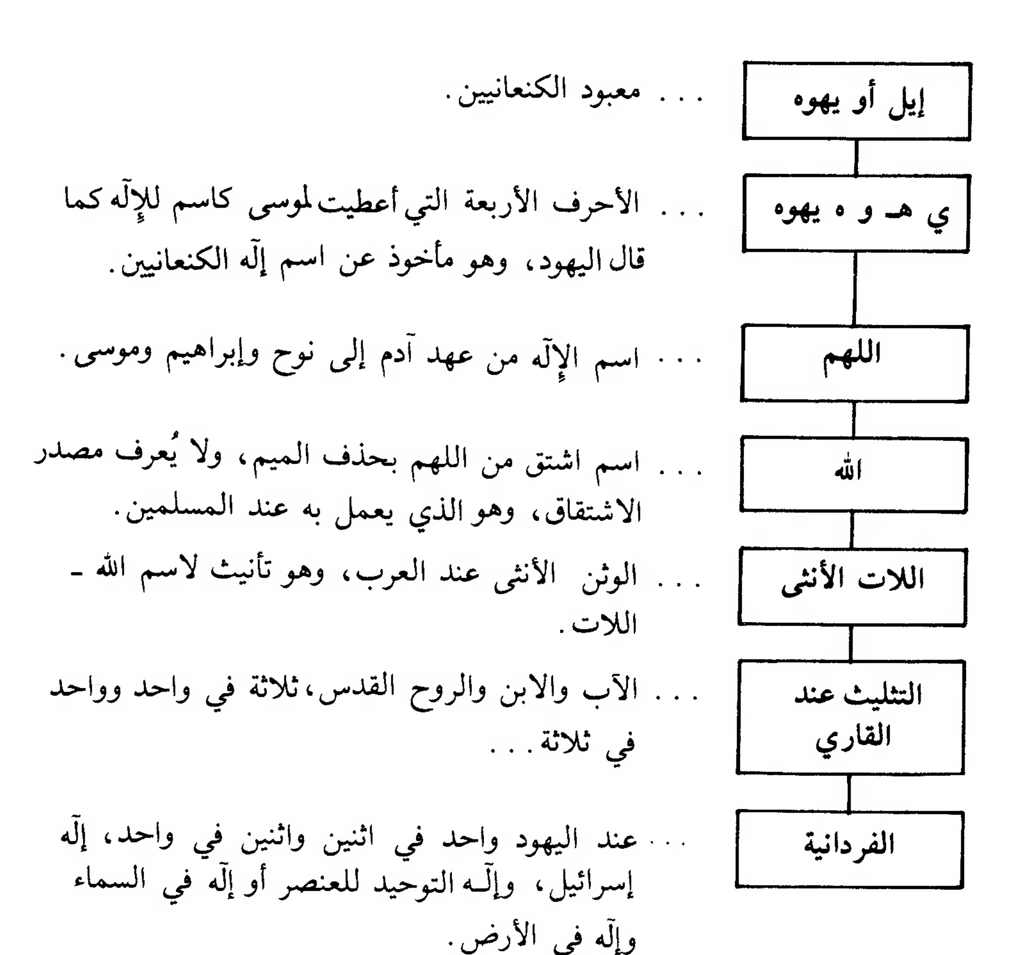
الإسلام والإنسان

* اليهودية

* النصرانية

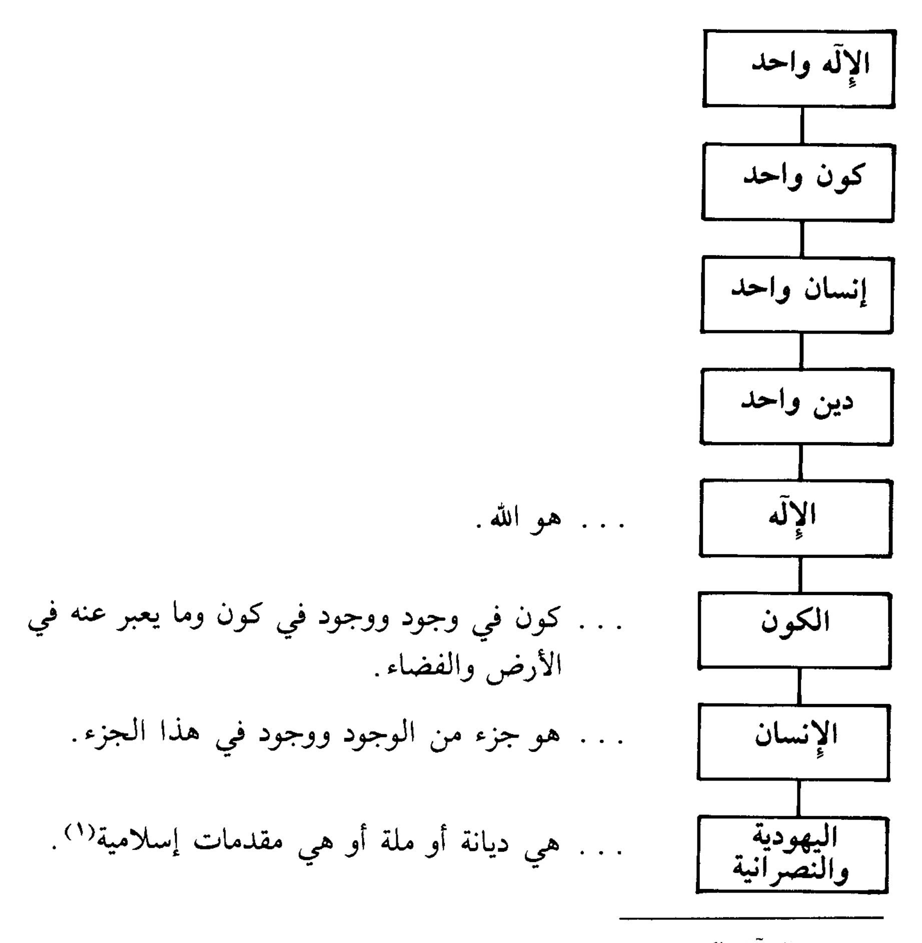
* الإسلام

النشوء الثيولوجي لإسم الإله





عقيدة التوحيد



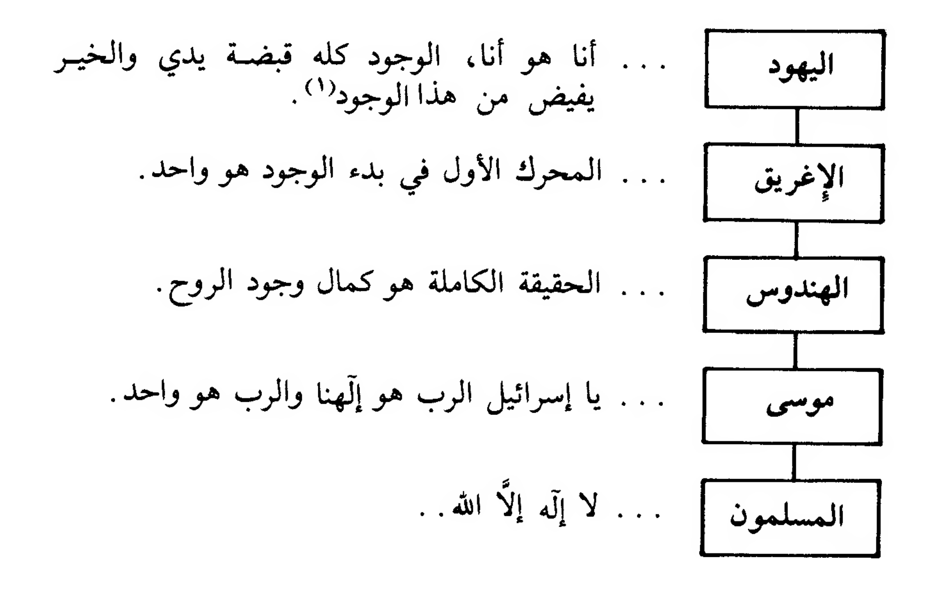
(١) وفي القرآن الكريم:

﴿ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتّبع ملتهم قل إن هدى الله هو الهدى﴾ إلى آخر الآية ١٢٠ «سورة البقرة».

البوذية وغيرها

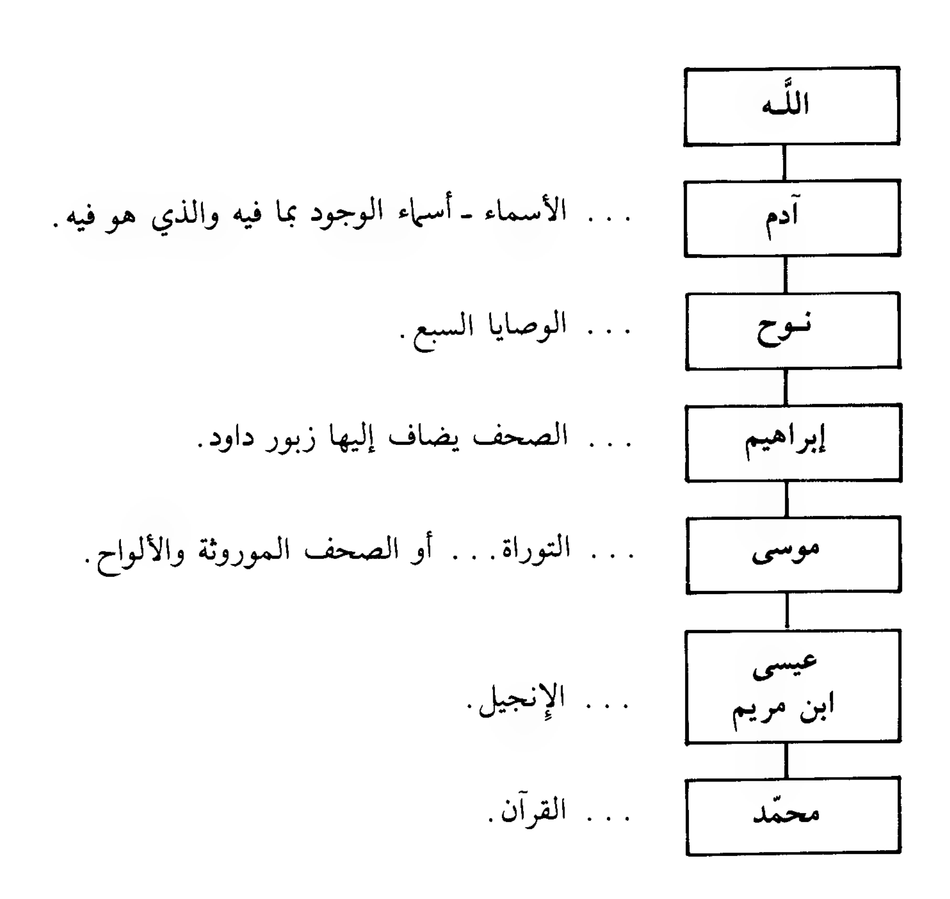
... هي أيديولوجية أو فلسفة ونظرية وطريقة حياة.

التوحيد مع الإنسان

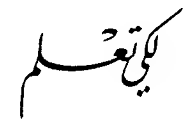


(١) في الاعتقاد اليهودي العنصري أنه لا يمكن أن يكون الزمن ميتاً ولا يمكن أن يكون حياً، والإلّه الحي هو إلّه إسرائيل أما آلهة الجانتايل ـ الغرباء ـ فهي آلهة ميّتة.
«The Kuzar I. Page 85»

تطور وامتداد الاسلام







في المجتمع الديني أو الثيولوجي المتشعب الأطراف، عقائد ونظريات تنطوي على مجهول غير معقول، وفيه الاعتقاد الأعمى، والاعتقاد المقيد، بل فيه مبادىء سلبية وإيجابية، تبرر الخروج على حقيقة الدين في إبعاد الشك والافتراض، فلكي تعلم من أنت كإنسان تخضع لشرائع الدين وما هو وجودك في هذا الوجود وما هي الحقيقة المخبأة والضائعة بين الاعتقاد الأعمى والاعتقاد المقيد، فاقرأ الكتب الثلاثة:

- التوراة.
- الإنجيل.
- القرآن. . .

المؤلف

العرض الأول

الأنبياء الستة

﴿ قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ﴾

القرآن، سورة البقرة، ١٣٦.

* آدم . . .
* نوح . . .
* إبراهيم . . .
* موسى . . .
* عيسى ابن مريم أو المسيح . . .
* محمّد ﷺ . . .



آدم

لم يكن البحث في تاريخ الدين، هيّناً، بما يدور حوله من التفاف والتباس في الفقه والمجاهل البعيدة في أصداء الكلمات القديمة، لأن الأبعاد العقائدية والتقاليد والنظريات، وهي ذات علاقة وراثية بالأوثان، وصلة مبهمة محدودة بين أمس الإنسان ويوم الإنسان، أوقفت البحث المجدّد عند حدود دينيّة ضاقت فيها الحدود وانقضت وانطوت في حالٍ ووضع، لا يمكن معه، وضع هذه الوقفة الصعبة للبحث، وحل المشكلة الإنسانية، الثيولوجيـة التي رافقت تطورات المجتمع القديم والحديث، لأن الأمانة في سرد الحوادث في كتاب أو رواية، أو قصة، أو تاريخ مستقيم، تمشي دائماً إلى جانب الانتقال الوراثي العنصري، والأخبار الواردة في المؤلفات والكتب، لا يصح الاعتماد عليها، كل الاعتماد، لحدوث الشك وعدم الاستقامة في الرواية، وعدم صواب الرأي المحيّر الذي قد ينحاز لقومٍ دون قوم، فلا يمكن، مع هذه الحال، للباحث أن يأخذ أو أن يطمئن - إذا أخذ ونقل - إلى الأساطير التي تنطوي في حقيقة الحدوث وفي تحري الحق والحقيقة الخالصة عند أي فريق ثيولـوجي، أو عند الذين اشتغلوا بالدين أو شغلوا الدين بهم...

والقول الدارج أو المعروف في الأوساط الثيولـوجية في الكتابة أو في معالجة مشكلة وموضوع الدين، «الأديان السماوية» هو قول لا يقال له قول أو عقيدة لأنه يخرج بإطلاقه عن حقيقة الدعوة الداعية إلى الحق والصواب، وهو اعتقاد أو استنباط ثيولوجي، لا يتفق - بل يتنافى - مع ما أعطى الله

والأنبياء من أسماء ومسميات ووصايا وصحف وألواح وتوراة وإنجيل وقرآن، كانت وما زالت تهدف إلى الهدي والهدى في إظهار «الوحدانية» في تقرير الأعتقاد أن يكون ـ كما أراد الله ـ ديناً واحداً، وإلّهاً واحداً، ولا نجد أي مبرّر أو ضرورة في المغالطات الثيولوجية وفي الذي نطلع عليه ويطلع علينا من فصلٍ وتفريقٍ وتعدد وادّعاء وفي أن يكون ثلاثة أديان سماوية كما زعموا وكتبوا، بل إن الله تعالى أوجد ديناً واحداً وكوناً واحداً وإنساناً واحداً. . .

ويصعب على اليهود ـ مثلاً ـ أن يثبتوا باليقين القاطع أن اليهودية ـ كما يعتقدون هي دين الله الواحد ـ أي دينهم الخاص وربهم الخاص، لأنه أورثهم أرض فلسطين، أو لأنه اختارهم في التفضيل ورفع المكانة، لأن المرحلة التاريخية بين أيام موسى والتوراة كانت بعيدة المدى وامّحى مع أصداء هذا البعد، زمن موسى وتبدلت الأسماء والأشياء التي أطلقوا عليها حقائق في بيّنات، وهي في الواقع أطلال تاريخية مهدمة للحقائق، وكانت ـ كما كانت القبائل اليهودية ـ تحولت عقيدتها التي فشلت أن تكون حقيقة إلى تقاليد، واستحالت التقاليد إلى شرع، والشرع إلى حكم، والحكم إلى سلبية الاستبداد العنصري، ومضى تراب الآثار يدفن التراب. . . وتجابه النصرانية التي انفصلت عن اليهودية، ذات الصعوبة وعدم القناعة والاطمئنان، وهي التي أخذت الكثير من مصادرها عن العهد القديم، على أن يصير تبديل وضع هذا العهد لصالح العقيدة المسيحية الضائعة بين عهدين، عهد قديم أخنى عليه القدم وعهد جديد لا جديد فيه، بل إنها تجد ذاتها أكثر ارتباكاً وحيرة في أن يكون الدين المسيحي، بعد الانفصال والانشقاق عن اليهودية، هو الدين الواحد، دين النصارى ولا غير النصارى، لأن النصرانية وقد أخذت عن شرائع اليهود ما أخذت، وتبدلت بل ذابت مع هذا الأخذ بعض الأقوال الثيولوجية التي ترجع إلى السيد المسيح، ما استطاعت ـ ولن تستطيع ـ أن تبدِّل شيئاً يأتي في مصلحة العقيدة ومصلحة الأتباع، بل هي بوضعها الحاضر تشكل ديانةً كبرى، أو منظمة اجتماعية، في حصول ما كُتب لها وكُتب عنها. بل إنها وقد عاشت وانتشرت تحت ظل ورعاية الثيوقراطية والثيولوجية تؤلف بالإضافة إلى ما تقدم «حكومة

ثيولوجية» ذات أنظمة وقوانين وتشريع مسيحي أكثر من أن يكون ديناً في ثلاثة أو ثلاثة في دين. . .

ويأتي الدور الإسلامي بعد اليهودية والمسيحية، فيعلن أن دين الله هو الإسلام، والنصرانية واليهودية هي مقدمات تمهيدية لظهور هذا الدين، فالإسلام مهيمن على اليهودية والنصرانية وهما منه، وما كان الإسلام يوم كان آدم، ـ وقبله ألف وألف آدم ـ ومن تبعه من الأنبياء إلاَّ ديناً واحداً لإلّه واحد، ونجد في الذي وصل إلينا منهم وعنهم مع التدرج الديني واستمرار الأيام، أن النصرانية واليهودية هما ديانتان أو ملتان أو جزء سابق من الإسلام اللاحق.

وعند اليهود ـ عالمية شاملة للدين ـ والنصرانية في الدور الأول وفعالية عقيدتها لم تعرف مبدأ العالمية الثيولوجي بل كانت الأفرادية المسيحية، يوم ظهرت كلمة «الكاثوليكية» التي تعني شمولية أو عالمية، وجاء الإسلام في اللحاق بهاتين الديانتين، بعالمية وجودية أو كونية وإنسانية، غير عالمية اليهودية والنصرانية التي هي ذات طابع عنصري، ومحا الإسلام بالدعوة إلى العالمية الإنسانية، العنصرية والإقليمية والقومية واللون والجنس والعصبيات الوثنية التي كانت تشغل معها عقائد الآخرين. . .

ومن يقرأ قصة آدم في العهد القديم والجديد يجد تفاوتاً وتعارضاً في النص والحرف والكلمة، واختلافاً ظاهراً في الرأي العقائدي وتفسير هذا الرأي، وعندما نزل القرآن، وقد اعترف بأهل التوراة والإنجيل اعتراف التصحيح والدعوة إلى الحق، وضع قصة آدم وما حدث له في الفردوس مع زوجته حواء، فأوضح في الشرح البليغ الموجز حيث أرجع الرواية أو الحدوث إلى الحقيقة إلى أصل ما حدث، وكان ما جاء عند النصارى واليهود يقرب بالمثالية المشتركة إلى ما جاء في القرآن، ولكن اختلاف الآراء المضطربة ـ آراء اليهودية والنصرانية ـ جعل حكاية آدم تعرض على وجوه وفي وجوه ما كان لأحدٍ أن يفهم أسباب الحدوث في معصيةٍ ما كانت بذات بال في ارتباطها مع النهي الإلّهي.

ولو أن المسيحية بقيت محافظة على المنهج اللفظي أو الكلمة في

الإنجيل في إعلان السيد المسيح أنه جاء لإكمال الناموس الذي هو التوراة، وكلمة الإكمال هنا تهدف إلى طبيعة النقص في إتمام الشرع، وتضع الكتاب المقدس أمام واقع الحق في أن الناموس كان مقدمة من مقدمات الإسلام، لهان عليها الوصول إلى عقيدة التوحيد ـ دون التثليث ـ وكان من الممكن أن يتم أو يكمل الناموس على يد ابن مريم، دون أن يكون هناك انفصال عن اليهودية، أو أن يكون «أديان سماوية» وللسماء إلّه واحد ودين واحد.

وآدم اسم عبراني تختلف فيه المعاني بحسب تعبير الحروف والألفاظ، فهو مشتق من الكلمة العبرانية «أدَمه» وكلمة الأديم في العربية تعني التراب الأحمر، وهي مشتقة كما ترى من الكلمة العبرانية الموروثة، وجاء في العهد الجديد أو الإنجيل «جبله الله من تراب الأرض ونفخ في نفسه نسمة الحياة».

وأشار الرسول محمّد فيما ورد عنه «كلنا من آدم وآدم من تراب» ويؤكد المؤرخون لأصول الديانتين اليهودية والنصرانية أن اسم آدم مشتق أو مأخوذ عن كلمة «آدامو» وتعني في الشرح الأكادي الأشوري «يعمل وينتج» ويعطي بولس صورة فلسفية رائعة عن آدم في روميه ٥ : ١٢ :

«إنه بآدم دخلت الخطيئة إلى العالم، وبالخطيئة الموت، وهكذا اجتاز الموت إلى جميع الناس».

ويذهب بولس في رأي آخر أن السيد المسيح هو آدم الأخير كما ورد عنه «جاء آدم الإنسان الأول نفساً حية وآدم الأخير صار روحاً محيياً».

ونرى في الإضافة إلى ما سبق، أنَّ اختلاف الرأي والمواجهات في العقائد، بقوم بين النصرانية واليهودية في إثبات شخصية آدم التي تكاد تكون بكثرة ما كتبوا وألّفوا عنها «شخصية ميثولوجية» ذات صور وأوهام وأساطير، ففي أسفار آدم وحواء التي وضعها اليهود في اللغة الآرامية قبل سقوط أورشليم سنة ٧٠ ميلادية، نجد أنهم ذهبوا مذهب الخيال في القصة وبالغوا في وهم المقال وفي الغلو والمبالغة ـ والخيال الشعري ـ ونجد أيضاً أن النصارى في ترجمة قصة آدم عن الإغريقية ورجوعهم إلى رؤيا موسى، كانوا

أكثر اعتدالاً واتزاناً في عرض القضية إذ أنزلوها منزل العقيدة أو الاعتقاد بدون تساؤل يبعث على الظن أو الشك.

ومن يقارن بين مراحل التاريخ اليهودي والنصراني والخصومات التي نمت وشاعت بين هاتين الطائفتين ـ بعد الانفصال ـ يجد أن سباقاً مشبوهاً نتج عن هذا الاختلاف في شكل تزاحم ثيولوجي لكسب «معركة الدين» أو الانتصار الشخصي على الشخص الآخر، ويثبت العارفون بأحوال الأمم القديمة وما يدور حول الحواشي من شروح واستنتاج واجتهاد وضع أكثرها «كتّاب مسيحيون» من ذوي النزعة الأتوقراطية المذهبية ونجد في نظرة ثانية بعيدة عن الانحياز، أن أكثر الفرق اعتدالاً بين اليهود هم اليهود الأرثوذكس فما كتبوا شيئاً عن آدم وقد بالغوا في الذي كتبوا، بل إنهم ينظرون إلى أبي الإنسانية نظرة اعتبار وتقدير ثيولوجي في أنه هو رمز الوحدة الأساسية للقيم الإنسانية، غير أن الثيولوجية اليهودية المتطرفة ترى في آدم أنه رجل ناقص الأفعال بالذي تصرَّف في الفردوس، من معصية يتبعها توبة، وهو في هذا التصرف أنشأ قواعد العيب والخجل التي تلحق بها الندامة وتأنيب الضمير، ويرون بالإضافة إلى ذلك شائنة وفضيحة نتج عنها ما نتج في مصير ووراثات الإنسان، ويذهبون بالزيادة من القول على ما حصل لآدم ـ «إن الإنسان المتحدر من هذا الرجل مجهز بدافع داخلي في تفاعلات الرذيلة والفضيلة، وهو في ردة فعل الأفعال التي تتركها عوامل تلك التفاعلات من نتائج النقص والتناقض، يتعرض إلى آلام الموت من تأثير ومفعول الخطيئة الشخصية».

والذين كتبوا ما كتبوا عن آدم من اليهود والنصارى، أخذوا ناحية العقيدة العنصرية في تجاوز العقيدة الدينية، ومن أجل ذلك فقد بعدت بينهم مسافات التناقض والتعارض والادعاء في كشف الحقائق المخبأة، وهي حقائق تأتي في أكثر مواضع الشك، أو في شك يأتي في موضع الحقيقة، ويظهر من ذلك أيضاً ومن قراءة ومقارنة ما كتبوا وما ألّفوا بما اعتقدوا، أنَّ قصة آدم وحواء قد تكون أو كانت «قصة تمثيلية» وقعت في منام، وقد تكون أو كانت بمفهومها التاريخي شخصية ثيولوجية وضعها المعتقدون لتبرير العقيدة

وللوصــول إلى أنهم هم المـقـرَّبـون إلى الله، وهم المفضلون وهـم العارفون. . .

آدم من تراب:

وفي القرآن الكريم ـ كتاب المسلمين ـ صورة تاريخية ثيولوجية عن آدم المطرود من الفردوس، في سورة البقرة، تثبت بالبرهان القاطع، واليقين العلمي في أكثر مواضع الذكر عن آدم الإنسان، أن الله خلقه من ماء وتراب، وكـرمه وفضله ورفعـه بعقله وشكله فوق الكـائنات، في اعتـراف العقل الإسلامي الذي شغل وظائفه في تصحيح التفكير المعقد والشرح الخاطىء عن قصة آدم ومن هو آدم، وهو شرح بعيد الأهداف وبعيد عن الصواب عن الذي ينطوي في نص القرآن، فأبو الإنسان لم يكن هذا الرجل الذي اسمه آدم وولد في بلاد الأشوريين، بل إنَّ الآية القرآنية توضح بفصاحة الإيضاح أن كلمة آدم الأول تعني التراب والماء، وهما عنصران متمازجان في التركيب ومن الماء والتراب خلق الله أكثر من آدم في بلاد الأشوريين وبلاد الصين وإفريقيا والمقاطعات الجغرافية الممتدة في متاهات الأرض وصحرائها.

وإذا نحن أخذنا في مبدأ التصديق والاعتقاد المأخوذ على الاحتمال، أن «الدراما الدينية» في كيفية خلق آدم وظهور الأنبياء والتوراة والإنجيل والقرآن في ناحية محدودة ـ ناحية الشرق ـ فمن أين جاءت تلك الأجناس التي ولدت وما زالت تولد في غابات إفريقيا ومجاهل الأمازون والصين ومقاطعات اليابان، ولهم لون وشكل غير شكل إنسان الشرق؟.

ومن هو «الآدم» أو الأب لهؤلاء الناس وهم في تـركيبهم العضوي وتضارعهم كإنسان. . . الشرق والغرب، ومما لا يشك فيه في وجود الفوارق في الاعتقاد، أنَّ البحث في موضوع آدم، «الشخص الأول» والبحث عن الآدام التي كانت قبله من ماء وتراب وهواء، هو بحث معقد وصعب لعدم وجود الأدلة والمستندات التاريخية، ومن الصعوبة أيضاً أن نأخذ بالتفسير الثيولوجي أو نعتمد عليه في الذي نقرأه في التوراة والإنجيل والقرآن ـ وخاصة في القرآن ـ لأن علماء المسلمين لم يوفقوا في شرح وتفسير الآية ﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ﴾.

فما هي هذه الأسماء والمسميات؟

وما هو الهدف الإلّهي من تعليم أسماء يجهلها آدم وما زلنا ونحن اللاحقين بالوراثة لآدم ـ وراثة كثرت فيها المنعرجات والأكواع ـ لا نعلم أسماء وألفاظ ومعاني هذه الأسماء، في حين أنَّ القرآن الكريم أوضح في بيانٍ صافٍ وبلاغة رفيعة توجد الفهم للفهم في سورة العلق التي نزلت على الرسول محمد:

﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (١) خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ (٢) اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ (٣) الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (٤) عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ إلى آخر السورة...

نوح أو آدم الثّاني

لم ينصف الكتاب المقدس - في قسميه القديم والجديد - وفي الإضافات والملحقات التي دخلت على هذا الكتاب دخولاً مقصوداً أو غير مقصود - ولا حاجة للاعتذار - النبي نوحاً في الذي ورد عن سيرته في التاريخ العنصري، - تاريخ التوراة والإنجيل - ولم يحترم الذين كتبوا ما كتبوا عن هذا النبي الذي يلقّب بآدم الثاني بعد الطوفان، احترامهم للذين من شيعتهم والذين بعدوا عن شخصية نوح بالقداسة والتشريف الإلّهي، بعداً بعيدا في القيم الثيولوجية والإنسانية، وما همَّ - وقد أحاطت بهم أطياف التقدير والاحترام - مثل نوح النبي، فقد جردوه من النبوة مع أن النبوة هي عطاء إلّهي خاص، وليست هي من معطيات اليهود والنصارى والمسلمين، وقالوا وكأنهم يعرضون فصلاً من فصول الإسقاط والإهمال المقصود إنه كان - باعتبار عقيدتهم - من الرجال الصالحين، وما تورعوا مع افترائهم على هذا النبي العظيم، عن اتهامه بالخطيئة، وتعريض كرامته للإهانة والإساءة بالذي ورد عنه في الكتاب المقدس أنه كان يشرب الخمر، وشرب ونام وبانت عورته.

«وشرب الخمر وتعرَّى داخل خبائه، فأبصر حام أبو كنعان عورة أبيه، وأخبر أخويه خارجاً فأخذ سام ويافث الرداء وسترا عورة أبيهما فلما استيقظ نوح من خمره علم ما فعل به ابنه الصغير فقال ملعون كنعان عبد العبيد يكون لإخوته وقال مبارك الرب إلّه سام» الإصحاح التاسع عشر، سفر التكوين..

وتلك قصة فلكورية «أبو كرايفية» ألحقها أو وضعها بعض الأحبار

والربانيين القدماء في العهد القديم وصولاً إلى التفضيل العنصري والاختيار القبائلي، فكنعان عبد لاخوته، وسام أمير فوق اخوته، «فلعنة نوح» التي جاءت من خيال الكهنوت اليهودي الواسع الظلال قد انطلقت في رحاب العقيدة تلاحق «حاماً» ملاحقة أبدية وتلاحق ذريته التي انتهت إلى الكنعانيين الذين هم باعتراف سفر التكوين من سلالة حام بن نوح.

ولقد ظهرت مفاعيل هذه اللعنة «لعنة نوح» مع وجود العداء والخصومة ـ التي كانت قائمة على الدوام بين العبرانيين والكنعانيين ـ بوضوح وبروز على صفحات العهد القديم في المراحل الصعبة التي كانت متفاقمة وحادة وقاسية بين هذين العنصرين، وفي الفترات التي كان اليهود القدماء يحاولون القضاء على الشعب الكنعاني باسم نوح وإبراهيم، والاستيلاء على وطنه بحجة أن الإلـه أعطاهم هذه الأرض، ـ وتدور الآن الشكوك حول هذا الإعطاء ـ واختار منهم الأنبياء والملوك، والذي حصل من ذيول لعنة نوح، هو إفناء الكنعانيين بالدعوة إلى أنهم كانوا وثنيين ـ والوثنية كانت في كل مكان ـ وفي إحياء قبائل العبرانيين الذين كانوا يرجعون بالذرية والنسب ـ كما يقولون ـ إلى سام بن نوح وكان لهم ما أرادوا وفوق الذي أرادوا في تبرير وتزكية ومباركة العهد القديم للأفعال الجنائية والتعذيب والتشريد التي قاموا بها ـ كما ذكر الكتاب المقدس ـ وباركها إبراهيم الخليل وموسى الكليم ومن لحق بهم لحاقٌ بالذكر الذي لا يقوم على حقيقة حياة هذين النبيين العظيمين ولحاقٌ وتتابعٌ في الظروف الجنائية القاسية التي نزلت في حياة الشعب الكنعاني البريء، هذا الشعب المتمدن صاحب الثقافة والعلوم والفنون والتجارة والزراعة، والذي كان أرقى شعب في عصره، نزلت به الويلات باسم الرب وباسم الأنبياء!!.

والذي يؤخذ في هذا الموضوع ـ أو لا يؤخذ ـ أن التاريخ العقائدي الذي كتبه المتعصبون العنصريون بأقلام وضمائر نمت على أن يكون البقاء «لي» والموت لغيري، هو غير الذي يكتبه ويعرفه نقاد التاريخ الديني المنفصل عن التاريخ الاجتماعي الذين يردّون الحوادث إلى أسبابها والأسباب إلى حصولها أو حدوثها في تحليل علمي تخرج منه حقائق ثابتة مكيفة على

المقارنة في الأخلاق والأفعال والأحوال الاجتماعية والثيولوجية والمقاطعة الجغرافية والمسافة «مسافة الزمن ومسافة الأرض».

فلقد ثبت لهؤلاء العلماء، أن «نوحاً» هو نبي وآدم ثانٍ لا رجل صالح كبقية الرجال الصالحين، بل هو بنبوته وشخصيته ووفائه وإخلاصه لله والناس، يعلو فوق كل الافتراضات والأقاويل التي يصح أن تكون في خدمة الأطلاق لهم وعليهم، فالنبوة هي تشريف إلّهي للأنبياء والصلاح وهو تكريم إنساني يجوز إطلاقه على الرجال الصالحين لا على الأنبياء الذين لهم مكانة نبوية تتسامى فوق الناس.

ونوح على ما جاء في الكتاب المقدس هو اسم سامي معناه راحة ويرجع بالتسلسل العائلي أو وراثة الذرية إلى شيث بن آدم، وقد أسماه أبوه نوحاً قائلاً كما جاء في الإنجيل «هذا يعزينا عن عملنا وتعب أيدينا من قبل الأرض التي لعنها الرب»...

ومن المؤسف أن نجد في الكتاب المقدس ما يجعل الإلّه أن يكون «مصدر اللعنات» والغضب والانتقام وإنزال العقوبة والقصاص، وإعطاء الوطن، ـ بلا روية وبدون داعٍ ـ لمن لا يملك الوطن مع أن القرآن يقول إن الله رحمته وسعت كل شيء. ولا يلام فلاسفة أوروبا في أنهم لا يعتقدون في إلّه إبراهيم ويعقوب وإسحاق وموسى، لأنه إلّه ظالم ناقم عبوس الوجه مقطب الجبين على صرير من الأسنان، كما أشار إلى مثل ذلك العلّامة والفيلسوف اليهودي «سبينوزا» والعلّامة الثيولوجي مارسيون.

وجاء في الكتاب المقدس، كما هو المعتاد في عرض القصص والروايات، أنَّ الرب كلّم نوحاً وأمره بصنع السفينة، وبيَّن له نوع الحيوانات الطاهرة والنجسة والطيور، إلى آخر قائمة العهد القديم، التي يمكن حملها في السفينة ـ سفينة نوح ـ قبل الطوفان، وجديرٌ بالذكر أن الرب إذا كان عهد إلى النبي نوح بهذه المهمة الإنسانية وباركه وقربه إليه كما جاء في الإنجيل وقد رفع اللعنة عن الأرض من أجل نوح «أثمروا وأكثروا واملأوا الأرض» وكان بينه وبين الإلّه عهد وميثاق كما كان لإبراهيم وموسى والنبيين والمسيح

مثل هذا العهد أو هذا الميثاق، ويقولون في الإنجيل إنَّ قوس قزح ذي الألوان من الشمس والماء كان علامة لوعد الرب في الانتقام من البشر الذين تمادوا بالشر وتباهوا بالمعصية. . . يحق لكل ذي عقلٍ واعٍ أن يسأل كيف أنَّ الرب رفع اللعنة عن أهل الأرض وبقيت «لعنة نوح» دائمةً على من كان في تلك الأرض ـ أرض كنعان.

إلَّا أن القرآن الكريم ـ قرآن المسلمين ـ يعطي صورة رائعة عن حياة نوح قد تتوافق في الرواية مع الذي جاء في الكتاب المقدس للاعتراف في مضمون التصديق والاعتقاد، ولكنها تختلف في المعنى ـ معنى النبوة ـ وما عنى القرآن بذلك المعنى.

والفريسيون من الطائفة الإسرائيلية التي عاصرت السيد المسيح ولاحقته وسفَّهت تعاليمه، يعتقدون أنهم يرجعون بالذرية والنسب إلى نوح، وعندهم من المعتقدات الأولية والإيمان الخالص أنَّ الوصايا السبع التي نزلت على النبي نوح كانت «أركاناً دينية» توارثوها للخلاص الروحي، ووصايا نوح هي مثبوتة في تاريخ الفريسيين وخاصة بهم، وهي:

- تحريم عبادة الأوثان.
- تحريم التأله لغير الإله.
- تحريم القتل.
- تحريم السرقة.
- تحريم الانحراف الجنسي أو الزنا.
- تحريم تعذيب الحيوان.
- تحريم أكل الحيوانات الميّتة.

إبراهيم الخليل

لقد نشأ ونما هذا الرجل الصالح كما أشار إليه الكتاب المقدس في عمره الأول في بلاد ما بين النهرين، وعاش مع أبيه وإخوته في مدينة «أور» الأشورية، يتعاطى التجارة والعمل في ذمة وأمانة وإخلاص، وأحياناً يصبح فارغ اليد عاطل الشغل تحت تأثير الضائقة الاقتصادية التي كانت تنزل في بابل إما لعوارض طبيعية، أو فوارق عنصرية، حتى كان من أمره أنه مع الذي حدث ـ بالإضافة إلى ما تقدم ـ من اضطراب وقلاقـل وتنازع اجتمـاعي وسياسي في أشور، طلب الهجرة مختاراً أرض فلسطين، وقد كانت هذه الأرض تابعة للكنعانيين منذ القديم ـ قديم يرجع إلى أيام نوح ـ في نعيم وخير وثراء واسع وحضارة وثقافة رفيعة، بل كانت موئلاً وملجأً ومدّخلاً لطالبي الرزق في العمل، ومحبي الأمان والاطمئنان في الحياة، لأن الإحاطة الجغرافية كانت يومذاك ملأى بالمشاكل والفتن والغارات القبائلية، لأن أرض فلسطين هي اليوم وكما كانت بالأمس وأمس الأمس «أتوناً بشرياً» يتفجر بالحمم، أو أنها وكأنَّ شيطاناً من نار يطل على الناس في مرور الأحقاب، فمنذ عهد آدم ونوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمّد إلى اليهود المختلفة التي تتابعت على هذه الأرض كانت وما زالت كأنها مزروعة بمتفجرات الديناميت، ولو قدّر لنا معرفة كميّات الدماء الإنسانية التي أريقت فوق هذه الأرض لما تورعنا عن إظهار المقدار في المعيار بأنه بحر من دماء الأبرياء.

ولقد قُدِّر لهذه الأرض في عهد الكنعانيين أن تكون في حالة نهوض اجتماعي وهدوء حربي بصورة أمنية. كان المجتمع الكنعاني يشكل دوراً في

نموذجية الحضارة التي كان يصدّرها عفواً إلى الجوار والاحاطات الجغرافية، وإبراهيم الخليل عاش في هذا المجتمع مع أنَّ بعض المؤرخين من النصارى يثبتون أنه كان أشوري العنصر واللسان، ولكنه تعلم بالتأثير الاجتماعي، واكتسب خبرة واسعة وتجارب مثلى في انتقاله وتحركه ـ بعد الهجرة ـ بين كنعان ومصر، ولم يُعرف ماذا كان يقصد في هذا التحرك، أيحمل في طبيعته الدعوة الساكتة إلى الدين؟ أم هو مجرد اكتشاف للبيئة والمراحل الممكنة لظهور الدين؟ أو كان من أجل التجارة والعمل للوصول إلى حياة أفضل من الحياة التي عاشها بين الأشوريـين؟

ولئن كان أتباعه من اليهود والنصارى يميلون إلى أنه في البدء كان تحركه يحمل الطموح الشخصي إلى شيء يوصله إلى حياة أهنأ وأحسن، إلاَّ أن القرآن الكريم ـ قرآن المسلمين ـ رفع مكانته في عناية إلّهية ووضعه في منزلة الأنبياء وهو من الأنبياء. . . ويشير القرآن أيضاً إلى أن الله اختاره واصطفاه واتخذه خليلاً ليقوم في المهمة الأولى من مهمات الإسلام ـ الحنيفية ـ أي المقدمة الإسلامية الخالصة، وذلك بعد أن تعرض عقله وفكره لأكثر من مرة إلى الشك، وقد تاه في حيرته في الظنون في قضية الألوهية، من هو الإلّه؟ حتى هداه الله واختاره واصطفاه، فذهب إلى قومه يدعوهم إلى الحنيفية الخالصة، ويتوسل إليهم في ترك عبادة الأوثان، لعبادة الذي خلقهم وخلق الذين من قبلهم، وكان له معهم أكثر من مشكلة وملاحقة وتعريض ومحاولة إحراق في النار بعد الذي أقدم عليه في تحطيم الأوثان وخاصة كبيرهم «إيـل» معبود الكنعانيين، وأشار القرآن إلى ما حصل بوضوح في هذه الآيات:

﴿وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ قَالُوا مَن فَعَلَ هَٰذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ قَالُوا فَأْتُوا بِهِ عَلَىٰ أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ قَالُوا أَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِن كَانُوا يَنطِقُونَ فَرَجَعُوا إِلَىٰ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنتُمُ

ٱلظَّـٰلِمُونَ ثُمَّ نُكِسُواْ عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَـٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا وَلَا يَضُرُّكُمْ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ قَالُواْ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓاْ ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَـٰعِلِينَ قُلْنَا يَـٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَـٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَأَرَادُواْ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَـٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ﴾ سورة الأنبياء (٥٧ ـ ٧٠).

ويظهر من الرواية العقائدية التي وردت في العهد القديم والجديد، أنه ترك الحلّ والترحال والانتقال وتفرغ للدعوة الإلٰهية، حيث استقر في عمره الثاني في أرض كنعان يوم كان الأموريون ملوكاً وأصحاب تاج وعرش، وكان بينه وبين هؤلاء صداقة واحترام متبادل بعد أن ذاعت شهرته في تحطيم الأوثان، واشتدَّ ساعده في الدعوة إلى الوحدانية، هذه الصداقة أدت إلى عقد معاهدة ـ عدم اعتداء ـ بينه وبين الأموريين وسلامٍ دائم، كما يظهر بالذي جاء في العهد القديم في إيضاح أنه لم يكن أشورياً في نسبه ولسانه وقلبه وإن كان يجيد اللغة الأشورية والآرامية بل إنه يرجع في الذرية والعائلية في مبدأ إرجاع الفرع إلى الأصل، إلى تارح من ذرية سام بن نوح، وقيل إن اللغة العبرانية كانت لغته ولغة آدم ونوح والذين لحقوا بهم بعد الطوفان.

ويؤكد العهد القديم بعد الذي حصل معه ومع قومه أنه تزوج «ساري» وكانت أخته من أبيه وليست من أمّه، والزواج من هذا الفرع كان مباحاً في أيام إبراهيم وقبل أيام إبراهيم، وقد غيّر أو بدل الإلٰه اسمها من «ساري» إلى «سارة» ولا تُعرف الأسباب التي حملت الإلٰه أن يغيّر اسمها في تذكرة النفوس وإليها وإلى إبراهيم ترجع العروق العبرانية والإسرائيلية والجذور المشتقة من تلك العروق، وتزوج إبراهيم ـ النبي الشيخ ـ هاجر المصرية خادمة امرأته سارة التي ولدت له إسماعيل، وفي الإنجيل قصة أو «دراما عائلية» تتناول هذا الزواج بالتحقير من جهة والتقدير من جهة أخرى، كما أنه تزوج من «قطورة» وهو اسم عبري معناه «بخور» وولدت له ستة أولاد هم زاموان، يغشان، مران، مريان، يشياق، وشوحا، ويقال ـ ولا دليل على هذا القول ـ إنَّ هؤلاء هم أجداد وآباء لستّ قبائل من العرب، وورد في الكتاب المقدس أن قبيلة

«قطورا» كانت تسكن بالقرب من مكة، وقد يكون هذا الاسم يرجع إلى الجدة القديمة «قطورة» أم العرب.

ويلخّص الإنجيل في تحليل لاسم إبراهيم الذي كان «إبرام» أي الأب الرفيع أو الأب الكريم، ثم بدل الإلّه هذا الاسم ـ ولا يُعرف أسباب التبديل ـ إلى إبراهيم، ويعني هذا الاسم أبا الجمهور أو أبا الأمم كما هو عند النصارى.

فإبراهيم هو:

أبو العبرانيين.
أبو النصارى
أبو اليهود.
أبو العرب.
أبو المسلمين...

ولقد لحق إبراهيم ما لحق غيره من أنبياء بني إسرائيل من المبالغة في العنصرية ما جعله أن يكون منفصلاً عن ذريته في ذريته، بل جعله خليلا وصديقاً وشريكاً للإلّه «كان لإبراهيم علاقة شخصية مع الرب وشركة روحية».

ويذهب الذين كتبوا العهد القديم والجديد إلى أبعد من حدود المبالغة التي بلغت شأواً من بعض الأساطير والخرافة القديمة قد لا يقبلها العقل اليهودي الحديث، فقد جاء في سفر التكوين أن الرب قطع لإبرام أو إبراهيم عهداً وميثاقاً وكانت علامة هذا العهد أو الميثاق «الختانة» كما كان «قوس قزح» علامة العهد لنوح فقد قال الإلّه لإبراهيم «لنسلِكَ أعطي هذه الأرض من نهر مصر إلى النهر الكبير نهر الفرات» ويحدد الذين جمعوا أو كتبوا العهد القديم، النسل والذرية في اللحاق القبائلي لليهود، ويحدد العهد الجديد عند النصارى أن إبراهيم هو أبو الإسرائيليين والكهنوت اللاوي وهو أبو المسيح...

ويأتي التساؤل هنا مع حتمية التناقض وبُعد الإمكان، في أنه إذا كان إبراهيم الخليل هو أب العبرانيين والإسرائيليين والنصارى وأب اليهود والعرب والمسلمين، فإن من واجب الرب ـ وهؤلاء هم جميعاً أبناؤه ـ أن يجعل تلك

موطناً للقسيين والفنزيين والقدميين والحثيين والفرزيونيين والرفائيين والأموريين والكنعانيين والجرشاشيين واليبوبيين وغيرهم، وهؤلاء أيضاً هم من مخلوقاته وهو الذي خلقهم.

إنَّ هذه الرواية، وإن كانت وردت في الإنجيل وأشار إليها القرآن باتجاه آخر، ينطوي فيها معنى الظلم وعدم العدالة التي لا تصح أن تنسب إلى الإله الذي وسعت رحمته كل شيء وخصوصاً أن الإعطاء الأرضي جاء في مصلحة قوم وفي تشريد قوم آخرين، ولا يمكننا أن نقول مع الذين قالوا من نقاد الإنجيل إنها «كذبة جغرافية» لأن القرآن وهو المصحح لروايات القديم والجديد بداعي الاعتراف بشريعة موسى وإبراهيم نزل فيه من الحكمة والعبرة لعرض ما حدث بالذي قد يحدث، ولأن الذي وضع الكذب في مكان الصدق وجعل هذا الكذب مقدساً في العقيدة شائعاً في معترضات الكتب الثيولوجية ذات العصبية العنصرية، هو الذي حذّر ويحذر منه القرآن في العطاء والأخذ والهبة والتفضيل والاختيار.

الأبوة الإسلامية:

وما كان إبراهيم الخليل أباً لأحد بالمفهوم الذي يدعيه أهل الأبوة وقد كثروا ونموا على صفحات الكتب الدينية، وفي المعنى الوراثي والانتساب العنصري، وإن كان القرآن الكريم يؤكد أبوّته للمسلمين ﴿مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ ۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ﴾ الحج ٧٨؛ فالأبوة في هذا النص هي أبوة إسلامية بالرجوع الثيولوجي، أو هي أبوة دينية بزعم فريق آخر، لأن الإسلام أسقط اعتبار العنصرية والفوقية واللون والجنس والفوارق الجغرافية وأقام بهذا الإسقاط عوضاً عنها قواعد المساواة والأخوة الإسلامية، وفي هذه الأخوة والمساواة ينطوي معنى الإنسانية جمعاء. لقد أخذ الدين ـ في الذي أخذ من تمكين في النفوس ـ وفي الامتداد العقائدي من يوم آدم إلى يوم نوح وإبراهيم الذي تلقى من ربه صحفاً مطهرة، فيها تشريع وفرائض وطريقة للعبادة. كانت ـ مع ما أضيف إليها من تفسير ـ عبارة عن مقدمات تمشي مع الزمن ويمشي معها الزمن للوصول إلى الدين الأكمل.

ولقد أعطى الخالق الذي خلق الإنسان، هذا الإنسان ديناً في شرع، وشرعاً يعتمد على الدين لكي لا يكون عرضةً للصعوبات النفسية والمجابهات الطبقية والمخاطر، وحتى لا يقال خلقهم وتركهم، والترك والإعراض وسلبية العطاء بدون إنذار وبينات الهدى لا تأتي في مضامين عدالة الإلّه، ففي الزمن الذي كانت تسيطر فيه الوثنية والإقطاعية والانتهازية والاستبدادية والسلبية على الناس، كان هذا النبي الشيخ، إبراهيم، يعمل على استخراج تشريع ديني أو اجتماعي أو قل حنيفي - أي صاف وخالص - يتلاءم قبوله ونصه مع عقلية الوثنيين وعقلية الكهنوت الذين كان يصعب عليهم بالطاقة العقلية المحدودة أن يفهموا الدين إذا نزل هذا الدين على نبي بالشكل الكامل، وما نجد في رسالة الأنبياء من مقدمات وتمهيد تمشي مع قدرة العقل القديم ما يعطينا قناعة وعقيدة في أن الدين تدرج مع العقل حتى وصل إلى العقل.

يضاف إلى ذلك أن العقول القديمة التي لم تبلغ النضوج في التدريب الثقافي، كانت في حالة تجاذب بين حيرة وشك، وبين حياد سلبي يعرّضها أكثر الأحيان للتحقير والتذليل، وتمكن إبراهيم الخليل بعد أن صار اتصاله الروحي كبيراً مع الإلّه، أن يضع المقدمات الحنيفية الأولى التي تدرجت مع قبول وقناعة العقل، وهي مقدمات إسلامية جاءت في شكل ملة أو عقيدة أو ديانة أو مبدأ، أو قاعدة عمل يأخذ بها الأنبياء اللاحقون كموسى وعيسى ومحمد...

النبي لا يكذب...

وفي العهد القديم والجديد أو الكتاب المقدس، نجد أن نسبة الكذب إلى إبراهيم هي نسبة واضحة وصريحة في أنه ادَّعى عند «ابيمالك» أحد ملوك الأموريين، وعند فرعون في مصر، أنَّ زوجته «سارة» ذات الجمال الرائع الجاذب، هي أخته لئلا يطمع بها فرعون وابيمالك إذا اعترف أنها زوجته، فيأخذها أحدهم غصباً وقهراً، وقد يؤدي هذا الأخذ إلى القضاء على الدعوة حالما يحدث القتل، مع أنه لا يوجد بيّنة في الكتاب المقدس أن «سارة» هي أخته من أبيه وليست من أمه، وكان الزواج من الأخت النصف

والأخ النصف مباحاً في عهد موسى والمسيح، وصار حراماً عندما انتقلت مقدمات الإسلام ـ في اليهودية والمسيحية ـ تحمل الحوادث إلى يوم ظهور الرسول محمّد، وعندئذٍ أكمل الإسلام، وأكمل الإسلام الشرائع في تعديل جديد يحل محل شرع قديم، فالنبي إبراهيم لم يكذب عندما قال لفرعون وابيمالك إن «سارة» هي أخته، وهي في الواقع أخته من أبيه. . .

والذي ورد في بعض المتناقضات والروايات القصصية في العهد القديم، يدعو إلى الشك في أن تكون هذه الحادثة صحيحة أو غير موافقة للوجه الصحيح، فلا يمكن ـ ونحن في موضوع كتاب نحترمه ـ القطع في الصحة، ولا يمكن التكذيب للذي حدث، لأن أكثر ما ورد في هذا الكتاب أرجعه المعتقدون إلى الإلَه ومن الإلَه ، وبذلك أقفلوا باب البحث، وعلت القصة أو القول أو الكلمة فوق عقل الإنسان، لأنه يستحيل على العقل أن يقبل بشيء أو بجزء من شيء إذا كان كل شيء يرجع إلى الإلَه ـ حتى الروايات الثيولوجية ـ ويستحيل في هذا العقل أن يقبل الدين كدين بدون بحث وشك وتحقيق وتمحيص قد يؤدي إلى اليقين.

وإذا كان الإفلاس العقائدي يحدو بالمعتقدين في غير دليل أن يُرجعوا ما حدث عندهم وما قد يحدث إلى المعجزة الإلهية، فالمعجزة الإلهية يجب أن تكون ضمن الفهم العقلي المستطاع لكي تصبح عقيدة، وإذا كان العقل بعيداً ـ كما أرادوه ـ عن الدين، فما الفائدة من الاعتقاد الأعمى والإيمان الكسيح؟!.

على أن الذي ورد في العهد القديم في قصة الإعطاء الإلَهي للأرض في مخاطبة إبراهيم «لنسلك أعطي هذه الأرض من أور الكدانيين ليذهبوا إلى أرض كنعان» سفر التكوين الاصحاح الحادي عشر، فقد يكون ـ كما سبق ـ بيعة جغرافية عقارية ـ لم يكن لها داعٍ أو مصدر أو سبب من الأسباب المعروفة في البيع، وإذا كان في الافتراض العفوي قد وقع هذا الاعطاء، فإن التفضيل والاختيار لبني إسرائيل ـ ولبني إسرائيل فقط ـ والمنحة أو الهبة الإلَهية للأرض كانت وقفاً على إبراهيم وذريته ـ ومنهم أبناء إسرائيل ـ أبناء

يعقوب الذين تحدرت منهم القبائل العبرانية، وهؤلاء في اعتراف أن الإلّه قد أعطاهم واختارهم وفضلهم على العالمين ـ كما ورد في القـرآن الكريم والكتاب المقدس ـ فقد ذهبوا وذهبت ريحهم، وذهبت أوراق الطابـو معهم، وباعد الزمن بالموت والفناء بين ملكية الأرض وشرف التفضيل، وبين الذين لم يعرفهم الإلّه ـ بالمجاز ـ ولا عرفوا الإلّه في المقاطعات القديمة النائية عن إسرائيل. . .

وأعتقد أن النبي إبراهيم لم يدّع في يومه أن يكون له علاقة بهذا الإعطاء المكيف على التخصص والعنصرية لتلك الجماعات في القطاع الأوروبي فهو كما هـو غير أبناء إسرائيل القدماء، فقد يكون الذي كان على اعتبار واحد هو أن أبناء يعقوب ومن ذريتهم الإسرائيليون كانوا فعلاً أتقياء بمنتهى التقوى والخوف من الله، وكانوا أصحاب دين ملؤه الإيمان العميق، فوهبهم هذه الأرض ـ لزمنهم ـ ولتكون قاعدة أو منطلقاً لنشر الدين، ولكن الذين جاؤوا من بعدهم حوّلوا مجرى الدين إلى الأهواء الشخصية والمصالح العنصرية، وهربوا عن العقل بالدين أو فصلوا الدين عن العقل.

ونجد في عرض آخر أن إبراهيم الخليل الذي أعـطاه الإلّه هـذه الأرض، عندما توفيت زوجته «سارة» كما جاء في سفر التكوين الإصحاح الثالث والعشرون، يؤدي شهادة نبوية بهذه الوفاة تتعطل معها ملكية الأرض لإسرائيل «وقام إبراهيم من أمام ميّته قائلاً أنا غريب ونزيل عندكم اعطوني ملك قبر لأدفن ميّتي» فلم يدّع بهذه الشهادة ولا أشار إلى ملكية الأرض مع أن سفر التكوين أوضح الحادثة في أن الذي حدث وجرى، هو أنَّ إبراهيم الخليل اشترى مغارة في طرف حقل عفرون بن صوحر ودفن فيها زوجته ودُفن هو فيها بعد وفاته، وقد ادَّعى تابعوه بل ارجفوا ـ يومذاك ـ على ما جاء في الأبوكرايفية اليهودية أنه مات وصعد إلى السماء.

ويأتي القرآن الكريم فيعطي صورةً واضحة عن حياة إبراهيم وأخلاقه، في أنه لم يطمع في مالٍ أو جاه يرفعه في أعين الناس إلى المستوى الاجتماعي الذي تفهمه الناس، بل كان همّه العمل الخالص لله وفي سبيل

الله، ولقد تعرضت حياته ـ أكثر من مرة ـ إلى الخطر، هذه الحياة التي كانت حياة زهد وتقوى وورع، وقد أدّى ورعه وتقواه والتشدد في الإيمان الحنيف إلى ملاحقته من الوثنيين الذين أرادوا أن يحرقوه في تنورٍ من نار، فأنجاه الله كما جاء في القرآن الكريم وكما ورد في البحث ﴿قُلْنَا يَـٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَـٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾﴾...

ولا ندري مع عدم وجود التفسير الصحيح الذي يُعتمد عليه في تفسير آي القرآن، إذا كانت هذه النار عبارةً عن فتنة طبيعية إنسانية، والفتنة تكون حارقة بمؤثرات الشعور كالنار، وقد جعلها الله برداً وسلاماً في قلب إبراهيم بالقناعة والرضا والتضحية، ليتابع رسالته في نشر الدين، يدلنا على ذلك ما ضربه الله من أمثال في القرآن الكريم ﴿كُلَّمَآ أَوْقَدُوا۟ نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا ٱللَّهُ﴾ كما أن العهد القديم أشار في سفر التكوين الإصحاح الخامس عشر إلى أن هذه النار كانت عبارة عن حلم أو طيف لإبراهيم في منامٍ رآه في ليلٍ طويل «ثم غابت الشمس فصارت العتمة وإذا تنور دخان ومصباح نار يجوز ذلك بين القطع».

والمغارة التي دفن فيها الخليل، ودفنت زوجته سارة فيها كان قد اشتراها من بني حـث ودفع ثمنها عنزاً ونعاجاً كما جاء في سفر التكوين، وقد كانت الأرض للمثري الكبير اليعازر الدمشقي، ونجد في حرية الاعتقاد وفي الذي مـر من متناقضات وموافقات ثيولوجية، أنَّ الخليل لم يملك أرضاً، ولا الإله أعطاه أرضاً، لأن الأرض لا علاقة عقائدية لها في الدين، بل لها علاقة خاصة في الحياة والطبيعة، علاقة قد يعتني فيها الدين، والذي نزل من السماء يعود إلى السماء، ولقد أبان القرآن الكريم في الموعظة والحكمة أنَّ الأرض قد تكون في الاستمرار الزمني والانتقال الوراثي، وفقاً على قومٍ دون آخرين كما جاء في الآية ﴿أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ ٱلصَّـٰلِحُونَ﴾ أي الصالحون لاستعمال واستثمار الأرض، دون أن يكون هناك تواكل واتكالية على وراثة وعلى ملكية قديمة.

وإذا كان ثمة وجود ورثة ووارث لإبراهيم الخليل ومن ذريته بني

إسرائيل، فإن هذا النبي الشيخ لم يترك بعد وفاته إلَّا المغارة التي اشتراها بالعنز والنعاج في طرف حقل عفرون بن صوحر، ولم يترك قولاً أو وصية في العنصرية والقومية أو الأبوة، بل ترك المقدمات الحنيفية الإسلامية التي وصلت بالتسلسل النبوي إلى الرسول محمّد.

موسى بن عمران

رسم القرآن والعهد الجديد صورة لموسى بن عمران من أنه نبي وقائد وصاحب بأس وقوة وشدة وبطش وشجاعة، في غريب ما حصل في ولادته ـ ويتعالى الظن حول هذه الولادة ـ في بيت عبراني حقير لم يعرفه المجتمع المصري، ولا هو عرف أحوال المجتمع إلاَّ من خلال نافذة القومية الضيقة، أو من نافذة حياة تطلب حياة، وكيف أن القصة الثيولوجية، عن موسى، حملته من هذا البيت الحقير الوضيع إلى قصر فرعون ـ وكلمة فرعون تعني باللغة المصرية القديمة البيت الكبير ـ حيث نشأ وتربّى ونما وحوله الملك والسلطة والقوة إلى جانب علو الثقافة والتوجيه النفسي وامتداد الحضارة، وكأنه انتقل من بيت حقير إلى قصر كبير في «سلّة» من قصب تحولت طفولته وشبابه فيها إلى معدن من ذهب.

وافق القرآن ـ كتاب المسلمين ـ ما جاء في العهد القديم في قصة موسى ولم يوضح أن العبرانيين بقوا في هجرتهم إلى مصر إلى مدة تزيد على الأربعمائة سنة، وفي أن فرعون حاول يومئذٍ ذبح الأطفال العبرانيين انتقاماً من العبرانيين كما أنه لم يوضح الكتاب المقدس والقرآن الأسباب أو المبررات التي حملت فرعون الذي علا في الأرض واستكبر، وقال أنا ربكم الأعلى كما ورد في الآيات، ولم يعط تاريخ الكتاب المقدس أو يشرح الأحوال الثيولوجية التي رافقت إبراهيم الخليل ـ جد موسى ـ لأن موسى كان من قبيلة اللاويتي العبرانية، وهذه ترجع بالعروق إلى أبي إسماعيل وإسحاق ـ النبي الشيخ ـ التي دفعت إبراهيم قبل موسى أن يأمر بذبح أطفال الوثنيين في حرب

مدين، فما أعطى القرآن تفسيراً يبرر الأمر، ويزكّي الفعل، أو أعطى رداً يتناول هذه الحادثة، ولا أوضح العهد القديم، الدواعي والظروف للذي حدث في هذه الموافقات الثيولوجية بين التوراة والإنجيل.

واسم موسى لم يُعرف بين العبرانيين أن يكون اسماً عبرانياً، لأن اسم موسى هو اسم مصري معناه «ولد» وشاع يومئذٍ أن هذا الطفل المدلل هو ولد لإبنة فرعون ـ وُلد كما وُلد المسيح مثلاً ـ من غير أب، وكانت ابنة فرعون له أماً بواقع التربية والحضانة وبصرف النظر عما قيل وما يقال، وكان موسى دائماً يخاطبها بلقب الأمومة «أمي» وتخاطبه بلقب البنوّة «ابني» أو ولدي، وكان في تدرج شبابه في قصر فرعون، واشتداد ساعده وقد ذاع صيته، وفاخر فرعون في ذكائه وبطولته، ورفعه إلى عدة مراكز ومناصب حكومية عليا، وكان في عقله وخبرته إدارياً منظماً وصاحب دراية وكياسة.

وفرعون عهد إليه بدافع الأمانة والمحبة الأبوية في قيادة الجيش يوم كانت الحرب متتابعة وعلى سجال بين مصر والأحباش، وقد هزم موسى بخبرته العسكرية والحربية جيش الأحباش، لاحقاً بهم بخطة تدريبية جديدة من وراء وادي الأفاعي، أنزلت فيهم الهزيمة والفشل، ولحرب موسى مع الأحباش قصة في التاريخ المصري القديم لا علاقة لها في هذا العرض.

وعندما ينقل الإنجيل والعهد القديم والقرآن الكريم، موسى من قصر فرعون في هربه إلى مدين وزواجه من ابنة الكاهن يثرون ـ النبي شعيب ـ تظهر مع هذا النقل والانتقال نُبُوَّة موسى في خروج العبرانيين من أرض مصر بعد هذا الزواج المثالي، وقد ألحقت القصص عن شخصية موسى التي جاءت في العهد القديم كثيراً من الإيثار الثيولوجي في أنه كان لموسى علاقات متينة مع الرب، كما كانت علاقات إبراهيم الشخصية مع الإلّه أكثر من متينة وقوية، فقد أعطاه الإلّه ولذريته أرض كنعان كما ورد في معرض البحث عن إبراهيم، ومات إبراهيم ولم يُعرف قبره، أهو في المغارة التي اشتراها من بني حـث؟ أو هو كما هو ذهب مسجّىً في جدثـه الذي لم يعرفه التاريخ ؟

ويتكرر هذا الالحاق بالقصة، ويتكرر العطاء، كأنما يكون الإِلّه «بائع عقارات» فقد جاء في العهد القديم سفر الخروج «وأدخلكم إلى الأرض التي رفعت يدي أن أعطيها لإبراهيم وإسحق ويعقوب وأعطيكم إياها أنا الرب» فالرب يرفع يده، ورفع اليد يعني القسم أو اليمين فعلى من أقسم هذا الرب؟؟.

ومات موسى بعد أن رفع الإِلّه يده كما ترى في يمين الإعطاء، ودفنه الرب كما قالوا ـ في أرض موآب ـ كما ورد في الإنجيل ولم يعرف الأتباع أين قبره، وجاء في الأبوكرايفية اليهودية أنه صعد إلى السماء.

والذي ينطوي مع سير حوادث التاريخ، هو أنه لم يُعرف حتى الآن ما الذي حمل موسى أن يرجع إلى العبرانيين ـ بعد أن هرب هرب الخائف المذعور ـ ليتولى القيادة وهو الذي كان عزيزاً حكيماً، عزيز مصر، فإن كان لقتله رجلاً مصرياً فإن في مصر، يومذاك، أكثر من قاتل وقتيل، فلا يمكن مع وجود هذه الحال أن يصدر حكم الإعدام والملاحقة من أجل هذه الحادثة التي ليست بذي بال في عصر مصر القديمة، أو أن موسى كان عاقاً فخرج على الأبوة والأمومة والمجد في قصر فرعون ـ وهم أهله ـ ربوه صغيراً وتعهدوه كبيراً ورعوه شاباً، ورجع إلى أهلٍ لا يعرفهم ولا هم يعرفونه بعد أن نزل بهم فناء الموت.

ونجد في الروايات والقصص الثيولوجية التي جاءت في كتاب المسيحية واليهود والقرآن، أن أكثر ما جاء في هذه الكتب يأتي في خدمة بني إسرائيل والعبرانيين ـ إن قَلّوا أو كثروا ـ والأعمال الرائعة التي قام بها موسى في أيام قيادته ونبوّته والعلاقات الشخصية مع الرب تأتي أيضاً في مصالح ومنافع قومه العبرانيين، بصرف النظر عن الإسرائيليين الأتقياء الذين بقوا في مصر ولم يذهبوا مع موسى بن عمران، كليم الله.

فمن هو موسى؟

ومن هو رب موسى؟.

وإذا كان موسى في قيادته للعبرانيين، والرب في عطفه على موسى،

فالقيادة والعطف متفقان على الخدمة والتشريف والتفضيل فموسى في هربه من مصر نال مكافأة النبوة في شرف النبوّة، والإلّه العاطف المحب عاد إلى عرشه في السماء، وكأنه الإلّه الواحد الأوحد، لذرية يعقوب ـ إسرائيل ـ وقد رفض أن يكون إلّهاً لغيرهم، فمن الجائز للوثنيين وغير الوثنيين أن يلتحقوا في أصنامهم ـ من إيل إلى بعل ـ وأن يطلقوا على هذين الوثنْين ما شاؤوا من أسماء التعظيم والتشريف والتفضيل.

وكلمة التفضيل التي جاءت في القرآن الكريم، فضلتكم على العالمين ـ يظهر فيها الانحياز القهري والتكريم والتقدير لشعبٍ مختار ـ كما قالوا ـ وفيه تحقير في تذليل، وإهانة مقصودة لشعب خلقه الله كما خلقهم، وقضت عليه الوراثات والتقاليد ذات الطابع الحجري، ألَّا يعرف إلّه إبراهيم وإسحق ويعقوب الذي هو منهم ولهم كما تحدثنا الأبوكرايفية اليهودية.

أما معجزات موسى كما جاء في التوراة أو شرح التوراة فقد بلغت في صحراء سيناء فوق أربعين معجزة، والمعجزات إذا ردّت إلى أصولها وأسبابها هي ليست للأنبياء أو غير الأنبياء بل هي خاصة بالإلّه، فهو المعجز والهادي وهو صاحب المعجزات.

وعندما نقرأ في سفر الخروج الإصحاح الرابع عن عصا موسى ـ العصا الذهبية ـ نجد أن القصة تتوافق في عرضها مع الذي جاء في القرآن «فقال الرب ما هذه في يدك فقال اطرحها إلى الأرض فصارت حية» ثم قال الرب أيضاً: «أدخل يدك في عبّك فأدخل يده في عبّه وإذا يده برصاء مثل الثلج» ـ العهد القديم.

وجاء النص في القرآن:

﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَـٰمُوسَىٰ قَالَ هِىَ عَصَاىَ أَتَوَكَّؤُا۟ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِى وَلِىَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ قَالَ أَلْقِهَا يَـٰمُوسَىٰ فَأَلْقَىٰهَا فَإِذَا هِىَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلْأُولَىٰ وَٱضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ءَايَةً أُخْرَىٰ﴾ (سورة طه: ١٧ ـ ٢١).

ويأخذ بيدنا التاريخ العقائدي إلى قصر فرعون حيث طرح موسى أو

ألقى عصاه في حضرة فرعون، فإذا هي حية تسعى، ومن ذلك نرى أن هذه الحادثة يتبدل نصها وشكلها في نوعية متقاربة في الإصحاح التاسع من سفر الخروج:

«فأعطى الرب وعداً وبرداً وحرث ناراً على الأرض وأمطر الرب برداً على أرض مصر، إلَّا أرض جاسان حيث كان بنو إسرائيل فلم يكن منها برد».

فالفرق على ما نقرأ في هذا الإصحاح هو في غاية الوضوح، في الفرق والتفريق بين العبرانيين الذين ماتوا ومات معهم تاريخهم، وبين بني إسرائيل - أبناء يعقوب - الذين انقرضوا وذابوا في بوتقة الزمن وفي أرض فلسطين التي هي عبارة عن «مقبرة دائمة» للأجيال القديمة والأجيال الجديدة، كما انقرضت طسم وجديس المذكورتان في العهد القديم.

ويُرجع أتباع موسى من اليهود المياه التي صارت دماً، والبلاء والضفادع والبغاث في أرض مصر إلى «معجزات موسى» وفي معجزاته قوة وقدرة هي حلول في موسى من قدرة الإِلّه وقوته، ويشير الإصحاح الرابع من سفر الخروج، إلى أن موسى صار إِلّهاً بقول الربّ: «أنا جعلتك إِلّهاً لفرعون وهارون أخوك يكون نبيّك» على أن العهد القديم في سبق التناقض في الرواية وما وراء الرواية من قصة وقصة، يقرر أن الرب أراد قتل موسى مرة لأنه قدّم استقالته للإِلّه للاستعفاء من المهمة والعهد والميثاق المعقود بين الاثنين، وذلك بعد أن عاود الخوف نفس موسى في رجوع الذاكرة إلى قتل المصري البريء الذي كان يضرب عبرانياً، مع عدم معرفة السبب، ثم هرب ليلاً إلى أرض مدين، أو أن موسى رفض ختانة ولده كما كان أمره الرب، لأن الختانة كانت رمزاً للعهد بين الإِلّه وإبراهيم كما كان «قوس قزح» علامة العهد بين الرب وبين نوح، ويمكن أن يكون تباطؤ موسى عن إجراء الختانة لأنه لم يجد فيها مبررات شرعية، فاعتبر الإِلّه هذا التباطؤ رفضاً وخروجاً على الإرادة أو الأمر، فأراد أن ينزل فيه عقوبة القصاص التي تعني القتل.

إننا لا نقطع بالذي حصل لموسى - ولن نقطع لئلا يكون في ذلك إثم

وافتراء ـ على الإله، إذ لا يمكّن لأحد أن يكذّب ما جاء في الكتاب المقدس والقرآن إن كان لا يتوافق ولا يتفق مع إمكانيات العقل الحديث، فالتكذيب وعدم الاعتقاد في شيء تعتقد به الملايين من الناس لا يؤدي إلى نتيجة أو يوصل إلى نهاية، والعقل المدرب الواعي لا يمكنه أن يقبل قصة انفلاق البحر الأحمر في ضربةٍ من عصا موسى، حتى تمر قبائل العبرانيين بين طودين عظيمين من الماء الهائج. ولا رواية البلاء والدماء والضفادع والبغاث في أرض مصر، إلاّ أن يكون للقصة أو الرواية من الوجوه التاريخية غير الوجوه التي تطل علينا من نوافذ الكتاب المقدس أو القرآن، لأن الأبحاث الجيولوجية والعلمية التي قام بها الأخصائيون في علم الأجناس أو الطبوغرافيا، تقرر أن تلك الروايات الثيولوجية التي ألحقوها بالعقيدة كوظيفة من وظائف الإلّه، للانتقام من شعب في تكريم شعب آخر، وكلاهما مخلوقان من إرادته ومشيئته، وقصة «العجل الذهبي» مع العبرانيين معروفة ومعروضة في الكتاب المقدس، للعبرة والاعتبار، كانت لحوادث وظواهر طبيعية نتج عنها صواعق راعدة، وشتاء متدفق، دام أربعين يوماً، فكان كما كان في حجمه وفي مرأى العين للمعتقدين شبه طوفان أو بحر، وكانت المياه لها لون أحمر من صبغة أرض أو ترابة حمراء، جاءت في مفهوم العقل القديم كلون الدم، ويبدو أن الاختمارات الأرضية بعد الجفاف أو نضوب المياه، أوجدت عفناً ونتناً تتوالد فيه الذباب والبغاث، وزحفت قوافله إلى أرض مصر مع الضفادع الهاربة من الأقنية والسواقي، التي تصاعدت فيها حرارة الشمس واشتدت وأحرقت، وعلت الرطوبة، فكانت المعجزة وكانت القصة، ومن المحتمل أو من الممكن أن نرجع ما حدث بما حدث إلى الإرادة الإلّهية أو المشيئة بدون تعليق، لا إلى معجزات موسى.

ويحسب العبرانيون ـ كما جاء في الكتاب المقدس ـ أن الرب كان يرافقهم ويسير معهم في صحراء سيناء، فقد ورد في الإصحاح الثالث عشر من سفر الخروج «وارتحلوا من سكوب ونزلوا في ايشام وكان يسير أمامهم عمود سحاب ليهديهم في الطريق وليلاً عمود نار ليضيء لهم»...

ويأتي العلم الحديث، فيقرر في بحث الظواهر الطبيعية، أن ما حصل

هو تفاعل طبيعي أرضي لا علاقة له بالمعجزة الموسوية أو الإلّهية، في نتيجة انفجار براكين كانت ممتدة يومذاك، من أرض الأردن إلى ما وراء حدود فلسطين، «وعمود السحاب» الذي كان يسير معهم كان عبارة عن غيوم متراكمة ومتلبدة حصلت أو تركبت من انفجار البراكين في تصاعد الدخان الكثيف، أما «عمود النار» فهو انعكاس في الليل لألسنة اللهب والنار الضارمة في جوف تلك البراكين.

ويشير الإصحاح التاسع عشر من سفر الخروج إلى تكييف هذه القصة على غيرها، أو بما يماثلها في التطبيق الذي حاول كتاب العهد القديم، ربطها بمعجزات موسى «ذهب موسى مع الشعب لملاقاة الله وكان جبل سيناء كلّه يدّخن من أجلِ أن الرب نزل عليه بالنار وصعد دخانه كدخان الأتون وارتجف الجبل جداً» وكأن هذا الإظهار التطبيقي في المعجزة يؤكد ما ذهب إليه علماء الجيولوجيا في إثبات ما ذهبوا إليه في ظهور وتفاعل الظواهر الطبيعية، إذ أنه ليس من الممكن في إرجاع القضية إلى الله وفي ربطها بمعجزات موسى، أن نوفق في هذه القصة بين المعجزة والقدرة ـ معجزة موسى وقدرة الإلّه ـ لبعدها عن المعقول والمنقول، أو نوفق بين موسى وتفكيره وعقائده، وبين معجزات موسى، فالعقل المعاصر لا يقبل هذه الأساطير الموضوعة، وخاصة بالذي حصل في ملاقاة الله إذ من الممكن أن بركاناً ذا حمم انفجر في قمة جبل سيناء كما هو حال الجبال الرابضة في الصحراء الحارة وفي جوفها الغازات والمعادن والزيت والكبريت وما إلى ذلك، ومن الطبيعي أنه عندما يحصل الانفجار يحصل الارتجاف أو الرجفة في الجبل، ويحصل الاهتزاز في الأرض على بعد طبيعي معيّن، ويمكن الاعتراف، مع وجود الافتراض، أن البحث في هذا الموضوع هو صعب المسالك، بعيد الأطراف، فلا يصح معه التصديق أو التكذيب، لأن ما جاء في العهد القديم هو للعهد القديم وما جاء في القرآن هو للقرآن.

غير أنه ـ وقد طال البحث ـ إذا جاز الاعتبار للفعل والتصديق بالحادثة، وفي الذي ورد في العهد القديم عن موسى، وللذي ذكره القرآن الكريم من آيات ومعجزات لموسى بإذن الله، نجد أن القرآن أعطى صورة ناطقة

وواضحة عن نبوّة موسى وهي صورة وقوع وحدوث بعيدة عن المبالغة والانحراف التي جاءت وتمت في الأساطير الثيولوجية في تصرف هذا النبي العظيم، وفي أنه كان يكلـم الله يومياً، ويتلقى مع هذه المكالمة الأمر والنهي والتشريع والفرائض.

وزعم التابعون بالعقيدة لموسى، أنه هو الذي وضع ناموس الوصايا الجسدية في وصاياه العشر، فجردوا النبيَّ نوح من وصاياه السبع وألحقوها في نبوة ابن عمران، إلحاقاً لا يتفق مع القواعد الإيجابية والأمانة الثيولوجية الأصيلة.

والذين انفصلوا عن اليهودية من النصارى يعتقدون عقيدة النفي والرفض للذي ذكره اليهود عن موسى، من أنه كان وسيطاً أو سفيراً بين الرب وشعب إسرائيل، لأن السيد المسيح كان هو الوسيط بين الإلّه والناس.

ولقد حاولت المسيحية في انسلاخها عن اليهودية، أن تقطع العلاقة بين ما هو راجع بالفضل والأقدمية والتأسيس إلى أنبياء بني إسرائيل، وبين ما هو راجع للسيد المسيح «راجع ما قاله بطرس وبولس في العرض الخامس عن المسيحية».

والذي يقرأ ـ قراءة مجردة وبعيدة عن الانحياز العقائدي ـ ما في العهد القديم، وخاصة القصص التي لها اتصال بحياة إبراهيم وموسى، يجد أن تناقضاً ونقضاً في نص وأسلوب الحكاية، ويجد أن هذا التناقض يضع الإلّه في موضع التجسد الكهنوتي، والتجسيد وثنية، فقد ورد في سفر الخروج الإصحاح الحادي والعشرين: «ثم أعطى موسى عند فراغه من الكلام معه في جبل سيناء لوحي الشهادة، لوحي حجر مكتوبين بأصبع الإلّه» ولقد قال النصارى بالتجسيد والحلول في الكلمات أي أن ذات الإلّه حلّت وانحلت بالسيد المسيح، وقال بمثل ذلك الوثنيون والإغريق ـ قبل اليهودية والمسيحية ـ أي حلول ذات المعبود في الحجر والشجر والأشياء الأخرى، والرموز الثيولوجية أو الرمزية التي يعتقد بها اليهود والنصارى، هي علامات تاريخية للحوادث، كالعجل الذهبي والأفعى الذهبية والمرحضة وخيمة الاجتماع

ولوحي الشهادة والصليب والخبز المعجون بالماء والذي هو عبارة عن حلول دم المسيح، ولقد أخذت الرموز مكانة سامية في الاعتقاد في نفوس الأتباع حتى صارت من أطراف العبادة، مع أنها كانت في القديم عبادة عند الوثنيين والإغريق.

هل كلَّم الله موسى؟؟

والذي ظهر لنا من قراءة العهد القديم، التوراة التي يعمل بها اليهود، أن موسى كلَّم الله وجهاً لوجه، أكثر من مرة ومرة، كلّمه وأعطاه الشرائع في الألواح وكلمه في أمور عادية تكاد تكون نابية في الموافقة والمناسبة، ولا هي من الشريعة، ولا هي من الناموس، بل تكاد تكون معقدة كتوافه الأمور، إذا قيست أو قامت على قياس المكانة بالمكانة والشخص بالشخص والضرورة بالضرورة، ونعني في ذلك أن الإلّه إذا كان مضطراً لمخاطبة موسى في كل يوم ونزل بحصول الأدنى إلى الشبه الإنساني بالمكالمة والكلام الذي هو من صفات الرب، سقطت عنه ـ حينئذٍ ـ صفات الألوهية في وجود الصفات الإنسانية المزعومة في هذا الحدث، ونرى أن التخاطب والاتصال الإلّهي بالناس كان يأتي عن طريق الوحي للأنبياء في منام طويل وليل طويل، أو في تفكير نفسي يرفع العقل المؤمن المدرب إلى مستوى قريب من الإلّهي الذي سمّاه الأقدمون، روح القدس.

ووافق القرآن على بعض ما جاء في التوراة، بورود الآية ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمٗا﴾ والقرآن أو أهل القرآن على الأرجح لم يعطوا تفسيراً واضحاً وصريحاً لهذه المكالمة قد يقبله العقل، وقد يقولون ما كل شيء يخضع للعقل، وإن كانوا فسّروا الكلمات في أنها أقوال وأحوال وأفعال، فالكلمة الباقية في القرآن هي كلمة «التوحيد» وجعلها كلمة باقية أي لا إلّه إلاَّ الله، وكلمة التقوى، بسم الله الرحمن الرحيم، أما اللغويون فقالوا إن للكلام عدة مراتب في المعاني، منه ما هو معجز في النفس إذا يقال «في نفسي كلام» وذلك رجوعاً إلى القرآن في الآية ﴿ويقولون في أنفسهم﴾ وكلَّم الله تكليماً، قد تكون ـ بغير قطع ـ تهدف أو توضح في معناها إلى أن

موسى حدَّث الله في نفسه أو كلمه في نفسه، وهذا عامل طبيعي نجده في كل نفس، أو أن الله كلَّم جروح نفس موسى، ـ أي شفاها ـ لكثرة ما دخل على هذه النفس من حزن وأسف ويأس على قومـه ومن قومـه، وعلى المناهضين لدعوته من غير الأتباع. فهو كليم ومكلوم وهذا «ما يكلـم العرض والدين» ومن هذه المشتقات في الكلمة قال أتباع موسى: إن موسى كلَّم الله وكلَّم الله موسى وجهاً لوجه في مرة وأكثر من مرة.

وقد قسَّم أهل اللغة من المسلمين، شعور الإنسان وتفاعل الحديث في النفس، على الكلمة في المعاني القائمة على المضمر في النفس، وعلى غير مضمر، وهي:

كافر: أي لا إيمان له وما عنده ميل أو قابلية للإيمان.

منافق: إذا هو تظاهر بالإيمان ولم يعمل به.

مرتد: إذا قال بالشرك بالألوهية بعد الاعتراف بالوحدانية...

فمن ذلك نرى أن هذه الأحوال والعقائد، تأتي من باب الكلام المضمر في النفس أو الذي يكلم نفسه في نفسه، وعقيدته في عقيدته تكليماً، وقد نفى القرآن في باب الناسخ والمنسوخ والمحكم والمتشابه أن يكون الله كلَّم أحداً وذلك بنص الآية القاطع:

﴿ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا ﴾...

موسى والكاهن يثرون...

ظهر كتاب في أوروبا في القرن السادس عشر، بعنوان مقتطفات من التوراة The Torah Anthology، لمؤلفه الحبر اليهودي ياكوف كولي وقد تناول هذا الكتاب حوادث العهد القديم بالدراسة والتحليل الذي لا يخلو من الانحراف والانحياز والميل بالعقيدة إلى العصبية اليهودية في استخدام العلم والكلمة لمصلحة أبناء هوذا! إلَّا أنه لا يخلو أيضاً من النقد الأدبي لبعض الروايات التي يشعر معها المطلع أنها كانت من وضع الأحبار والربانيين.

وعندما يذكر هذا الكاهن ـ الحبر ـ ما حصل لموسى يوم قضى عليه

فرعون بالإعدام، لأنه قتل مصرياً بريئاً في انتصاره لشخص عبراني غير بريء، نجد أن الإدخال ـ ولا نقول التحريف ـ يظهر بالمقارنة مع أبعاد الحوادث، في شكل عنصري قد لا يتفق مع الذي دعى إليه موسى.

وواقع الحادثة أن الذي كان يلح في الملاحقة وفي اتهام موسى بالخيانة الوطنية العظمى، وعدم الاعتراف بالفضل وعدم الوفاء للبيت الفرعوني، هو عبقري مصر النافذ والمقرّب من فرعون «ميتزراين» «Mitzrain»، الذي أخذ مقتل المصري إذا حصل وقد حصل وسيلة لإبعاد موسى والحكم على موسى، مع أن حوادث القتل كانت تتكرر في كل يوم بمصر، وكانت قيمة الفقراء وتعذيبهم وضربهم بالسياط، تعني أن النظام الفرعوني يأتي في التنفيذ من باب العبرة والاعتبار في العقوبة، وفي أن هذا النظام هو فوق الفقراء، على أن ينفذه الأمراء وجنود الأمراء.

ويؤكد المؤلف ـ الحبر ـ هروب موسى إلى مدين ـ وقد خرج خائفاً يترقب، كما ورد في القرآن، حيث وصل ونزل في خيام الكاهن الوثني يثرون على حد تعبير المؤلف، وتزوج من ابنته «صفورة» بتحديد وقبول وتأجير وتعيين مدة استخدام كانت صالحة للطرفين، ومن الغريب أن موسى كان عزيزاً في مصر يرعى الناس، فأصبح في مدين ذليلاً يرعى النعاج!.

ولقد تم هذا الزواج الغريب في إتمام ملزمات الشرط، وقضى موسى الأجل حتى إذا انتهت مدة العشر سنوات المحددة في شرط الاستخدام ترك زوجته وولديه «جرشام» الذي يعني أنه غريب في الأرض، و«اليعازر» الذي يعني إلّه أبي «إيل» هو عوني وأملي، متجهاً نحو مصر بأمر وتكليف من الإلّه.

وجاء في الإنجيل عندما رفع السيد المسيح على أعواد الصليب قال «إيلي إيلي لماذا تركتني» أي إلّهي إلّهي، وكلمة «إيل» أو إلّه استعملها الكنعانيون قبل الأنبياء في العبادة.

والذي يؤخذ على الظن ـ وإن كان بعض الظن إثماً ـ أن موسى هجر زوجته وترك ولديه، ولا نقول طلقها، لأن قواعد الطلاق لم تكن معروفة إلّا

في قانون العادات الكنعانية، بل إن نظام القبائلية المتخلّفة كان يعمل به في حدوث الزواج، أو حدوث الفراق، وهذا الظن يدفعنا إلى الاعتقاد، أن موسى تحت دوافع الشوق والحنين إلى وطنه مصر، ويظهر ذلك في تسمية ولده غريب في الأرض، أراد الرجوع بعد أن بلغه أن فرعون قد مات، وقد لحقه بالموت عبقري مصر «فتزيحـن» لكن الذي لم نعرفه أو نطلع عليه من ذي قبل، هو أن المؤلف قال عن الكاهن يثرون وهو النبي شعيب عند المسلمين، أنه كان مستشاراً خاصاً في وزارة فرعون، فلما أحسَّ بالذي نزل بالعبرانيين وسمع ورأى ما أحاط بهم من ظلم وتعذيب ـ على حد قول المؤلف ـ استقال بل ترك وظيفته الهامة ليعود إلى وطنه وقومه في مدين استباقـاً للحوادث، مع أن الكاهن يثرون ما كان عبرانياً بل يقال إنه كان عربياً، فالوظيفة والاستقالة بعيدة التناسق والتقارب في مجرى الروايـات التاريخية.

والذي يدعو للزيادة في الاستغراب أن يثرون الكاهن، كتب إلى موسى عـدة رسائـل إلى فلسطين ومصـر، بعد العـودة وحينما تمَّت لـه النبـوَّة والقيادة، كتب له أكثر من مرة ومرة يوضح أن في عزمه ونيّته إرجاع زوجته وولديه وقد طالت مدة الهجر والنأي.

أما الرسالة فهي:

«أنا حموك يثرون سوف أتوجه لزيارتك حاملاً معي زوجتك وولديك، وفي نيتي الالتحاق بالإسرائيليين كمهتدٍ Prose Tyle فإن لم يكن في رغبتك أن تستقبلني فيجب على الأقل أن ترحّب بزوجتك، وإذا كنت لا تأخذ ذلك بالاعتبار، فيجب على الأقل أن تستقبل ولديك».

على أن موسى كما نتج عن سكوته الناطق أنه كان لا يرغب الإجابة على الرسائل اليثرونية، إمَّا لأنه كان مشغولاً في إصلاح وتنظيم أحوال قومه الدينية والاجتماعية، أو لأنه أراد أن يترك ما ترك للذي ترك غير مبالٍ بالوالدة والولدين.

وفي الرسالة التي سبقت هذه الرسالة إلى موسى من يثرون، يشير

المؤلف إلى أنه كان في نية هذا الكاهن الدخول في اليهودية، وقد أطلق اليهود على من كان مثله يطلب اعتناق الإسرائيلية اسم المهتدي، وقد ظلَّ موسى على سكوته أو عدم مبالاته، ممّا حدا بكاهن مدين الأعظم أن يحمل أهله متوجهاً مع ولدي موسى وأمهما إلى فلسطين، وهناك على ما قال المؤلف خرج موسى لاستقباله مع فريق من الكهنة والشيوخ...

ومن المعروف عند المسلمين ـ بنوع خاص ـ أنه لم يُعرف عندهم، أن نبياً كلفه الله بتبليغ الرسالة وكان قد عبد الأصنام، أو أن نبياً كان كاهناً للوثنية أو غير الوثنية ثم يختاره الله للنبوّة، وخاصة أن يثرون هو عند المسلمين النبي شعيب كما ورد، وما عُرف عنه أنه عبد وثناً أو كان كاهناً لوثن، وعندهم ـ أي المسلمين ـ أن الله يختار من يقع عليه الاختيار من الأشخاص الأتقياء الأبرياء وأصحاب صدق ووفاء وأمانة، وذلك بعد التجربة والمعرفة، ليكون في إمكانهم مع وجود هذه الصفات والأخلاق العالية أن يقوموا بمهام النبوة وهداية الناس.

السيّد المسيح أو عيسى ابن مريم

من هو عيسى ابن مريم؟

الذي ولد من غير أب ونطفة.

نبي أو إله؟

ومن هو السيد المسيح الذي جاء بالنفخة من روح القدس؟ إلّه أو نبي؟.

أو هو كائن واحد أو شخص واحد، أو هو إنسان مثله مختلفان في الشكل والعقيدة والطبيعة والزمن؟!.

أو أن السيد المسيح هو «شخص ميثولوجي» تضاربت حول اسمه العقائد والمقدسات، وقد يكون لا وجود له في الوجود، بل انبثق اسمه بالرواية من عدم وجوده كما انبثقت أو صنعت أطباق الورد المصطنعة بالأوراق واللون وكأنها ورود طبيعية، أو أن الاحتمالات وتفاسير الأساطير ونشأة العقائد كما هي الحال في الذي جاء في الأبوكرايفية اليهودية التي كانت في القرن الثاني قبل المسيح، جعلت فكرة المسيح المنتظر، تنتظره القبائل اليهودية، ومرّت هذه الفكرة مع الأحقاب إلى أن وصلت إلى الذين انفصلوا عن اليهودية وانفصلت عنهم، وعندئذٍ ظهر المسيح من فكرة تحولت إلى عقيدة، ومن عقيدة تكيفت على فلسفة، ومن الفلسفة نشأ التثليث، وجاء ذكر السيد المسيح كما تجيء مؤثـرات الأساطير، يشغل عقل الأتباع للوصول، ـ وقد وصلوا ـ أو اهتدوا إلى تكوين الأقانيم الثلاثة آب وابن وروح قدس.

وقد قيل في السيد المسيح، ما قيل في موسى من أنه «شخصية ميثولوجية» لأنه لم يأتِ له ذكر في التاريخ المصري القديم، فمن أين جاء موسى؟ ومن أين يسوع الناصري قد جاء؟.

ويتضح من الذي هو موجود في العقائد المسيحية أن ابن الله هو «إله في السماء» وجاء أو نزل على الأرض في شكل كائن ثلاثي ـ الأقانيم الثلاثة ـ وهو ليس أسطورة لأنه لا تدركه الأساطير.. على أن اليهود والمسلمين لا يعترفون بهذه العقيدة الثلاثية، ويتفرد اليهود في تصديقهم في أنهم لا يعترفون بوجوده كنبي أو إله بل إنه لم يكن عندهم شيئاً مذكوراً، أما المسلمون فينظرون إليه كما ينظرون إلى محمّد، إنه نبي وصاحب رسالة كبقية الأنبياء، ويأتي اسمه في الاعتقاد الإسلامي في أنه جاءت إليه النبوة كما جاءت إلى آدم ونوح وإبراهيم وموسى.

وينص القرآن الكريم أن الله قد أنزل عليه الإنجيل والكتاب والحكمة، كما نزلت التوراة على موسى، والصحف على إبراهيم، والقرآن على محمّد، إلّا أن ملاحقة الرومان، ومن ورائهم الكهنوت اليهودي، لم تترك له مجالاً، لإظهار الإنجيل الذي نزل عليه بالوحي، وقد مات ابن مريم أو ذهب أو صُلب، أو رُفع إلى السماء، وفقاً لمضامين عقائد ثلاث ـ ولم يترك بعده إنجيلاً أو كتاباً يقرأه الأتباع، بل ترك أقوالاً في حكمة، وحكمة لأقوال، لم يكتبها أحد في الإلقاء والموعظة والارشاد، أو بعد الالقاء، وإنما ذهبت ومشت أصداؤها مع الزمن، حتى إذا مرّت مدة سنة على وفاته أو صعوده، كتب الأتباع الأناجيل، وبالغوا في الكتابة، وتمادوا في تأليف المعجزات، وكان منشأ ذلك بحكم تقدير وعاطفة عقائدية، وروايات منقولة وأحاديث مدخولة لم يكن لنا أو لغيرنا رأي في صواب ما نقل أو في غير صواب بالذي حصل.

على أن الذين كتبوا الإنجيل ـ أو الأناجيل ـ أخذوا من العهد القديم ما أخذوا من القصص الثيولوجية التي تخدم مصلحة الشعب اليهودي، والعهد القديم ما نزل على السيد المسيح بل اعترف بوجوده ليقوم بإكمال الناموس،

حتى صارت هذه القصص عقيدة راسخة في الإصرار على الخطأ وعلى الخطأ في تقدير وتقييم النبوءات.

وفي اليوم الأول الذي التحق بالمسيحية الفيلسوف اليهودي «شاول» أو بولس، وعضو المجلس اليهودي الأعلى - السهندريم - في مملكة الكهنوت، ومن مواليد طرطوس، سوريا، حاول هذا العالم والمفكر أن ينقذ المسيحية في نقض العهد القديم بظهور العهد الجديد، وقد وُفق بهذه المحاولة إلى الحدّ الذي كان يهدف إليه ويهواه، منذ أن انفصل عن اليهودية ملتحقاً قصداً وعفواً بالنصرانية تحت ظروف ضغط نزاع سياسي، وتحت مؤثرات خصام وتنازع على نفوذ وسلطة بينه وبين الكاهن الأعظم رئيس المجلس الأعلى لليهود.

ويؤكد بعض المؤرخين من نقاد الإنجيل - وهم من النصرانية - أن السيد المسيح هو يهودي الأصل تحدر من قبيلة إسرائيلية أرثوذوكسية كانت تعيش بجوار الناصرة، وقد دخل في ريع شبابه الأول في مدرسة الفريّسيين التي كانت تعنى في تدريس فلسفة التوراة ومشتقّات التشريع والفرائض، وتعبّد ومحرمات ومحظورات، وكان قبل أن ترتبط علاقاته الثيولوجية مع الإله، يتجول من بلدٍ إلى بلد، أو من قريةٍ إلى قرية أخرى، ولقد اجتمع أثناء هذا التجول، أو هذا الحل والترحال بالكاهن يوحنا المعمدان - أو يحيى بن زكريا عند المسلمين - وسمع بدعوته إلى ملكوت السماء، فالتحق به وأخذ عنه كثيراً وكثيراً مما كان لا يعرفه، بعد أن عمّده بالماء الطهور في نهر الأردن.

على أن الذي يطلع على وصايا وتعاليم السيد المسيح، وعلى دعوة يوحنا المعمدان إلى الرجوع إلى السماء، وترك عبادة الأوثان، يظهر له بوضوح أن المسيح ويوحنا كانا قد تأثرا عقائدياً بتعاليم وفلسفة القبيلة اليهودية التي كانت في حالة تصوف عقائدي وفي عزلة عن المجتمع، للتخصص في التقوى والعبادة وعدم الاختلاط، «قبيلة الأسنسيين» The Essenses بل يشير الظاهر بالايحاء أن السيد المسيح عمل بمذهب العقيدة في نشر الدعوة والرجوع إلى السماء.

وقد لخص المؤرخ اليهودي «جوزيفو» أركان العقيدة عند هذه القبيلة في كتابه تاريخ اليهود:

ـ عقيدة التوحيد.

ـ المراتب الاجتماعية تقوم على مراكز قبائلية:

المركز الأول للأولاد، وهؤلاء عندما يبلغون سن المراهقة ينتقلون طبيعياً إلى المركز الثاني، ويمضي هذا الانتقال التدريجي إلى المركز الثالث حتى الوصول إلى المركز الرابع، وهو مركز نقاوة وطهر وخلاص وإيمان...

ويقول المؤرخ «فيلو» الذي عاش في أيام جوزيفو إن هذه القبيلة كانت كالفريسيين تعتقد أن عدم ضبط الحواس والشعور في جميع أنواعه حتى في التفكير هو خطيئة وتأتي التوبة بمرافقة طلب المغفرة في حال الحدوث والرجوع عن أفعال قريبة من الحدوث، ويلاحظ في الذي جاء في الإنجيل وقانون الكنيسة أن الخطيئة أو الذنوب والخوف تشغل حياة الفرد المسيحي، كما يشغله الخوف من الله والخوف من الذنوب عند اليهود والمسلمين، حياة الكهف، وقد عبَّر العلاَّمة «فرويد» عن هذا الخوف «الرعب الوراثي في الدم» وأن الإسراف في الشعور الجنسي، في معتقد هذه القبيلة، أو غير الجنسي، هو مضرٌ للعقل والجسم، وحذر الإسلام من الإسراف في كل شيء، ودعا إلى العمل والتصرف ضمن نطاق أواسط الأمور، أو الوسط في الأفعال والأحوال.

ومع أن الرقيق والاستخدام القهري كان معروفاً في ذلك الزمن، فلم يكن في مجتمع هذه القبيلة أي رقيق أو إكراه على الرقيق، أو أية وسيلة للالتجاء إلى التسخير، بل إن الأعضاء بما فيهم العائلة، هم أحرار ومتساوون في الحقوق والواجبات يعملون معاً بدون تفاوت اجتماعي في الرتب والمراكز التي يكون لها اتجاه آخر في تطهير النفس والجسم.

ومن المحرمات الأبدية عند هذه القبيلة، تأتي أو تقع على المسبة والشتيمة واللعنة، وفي التوراة أن من يلعن أباه أو أمه يقتل، وأن الذي يريد الحصول على الإيمان بدون معونة الرب ـ في عقيدة هذه القبيلة ـ هو هالك

لنفسه وفي نفسه، والطهارة كانت من الفروض اليومية ـ بعقيدة الأحبار ـ فمن واجب الفرد والمفروض أن يغتسل بالماء البارد قبل تناول الطعام، وكان شعارهم في الألبسة اللون الأبيض، شعار التقى والورع والطهر، وهو اللون الصالح لجميع المناسبات الاجتماعية والثيولوجية.

أمّا في الناحية الأخلاقية فقد كان شعار القبيلة الأخلاقي هو الحشمة والدماثة والرفق والعطف واللطف ولقد رفضوا العقيدة اليهودية في تقديم التضحية إلى الرّب من الحيوانات لأن ذلك يؤثر على طهارة ونقاوة القلب، والتضحية، كل التضحية، على ما يعتقدون، هو ضبط النفس واحترام العقائد الصالحة في هذه النفس.

لم يكن لهذه القبيلة عقيدة اعتراف بالأنبياء، فموسى بن عمران هو كل شيء عندهم، ويأتي اسمه في المرتبة الثانية من اسم الإلّه، ومع أن هذه القبيلة كانت في عزلة وانعزال عن الغرباء، وفي عدم الاختلاط حتى مع اليهود، فقد كانت مقصداً ومزاراً للمؤمنين للتعمد أو المعمودية، ويؤكد نقاد الإنجيل، أن يوحنا أخذ مبدأ التعميد منهم وعنهم وطبَّقه على السيد المسيح عندما تمَّت روابط الصداقة والأخوة بين المسيح ويوحنا، وكانت هذه القبيلة لا تعتقد بظهور المسيح المنتظر كما كان اليهود ـ وما زالوا ـ يعتقدون بهذا الظهور قبل ظهور النصرانية، ومن جهة ثانية كان عندهم عقيدة خاصة تنص إلى أن مرشداً للحق والحقيقة سوف يأتي ويقوم بتنظيم أحوال الناس في الزمن، وعند المسلمين وخاصة عند الشيعة الإمامية، عقيدة مثل هذه العقيدة، وهي ظهور المهدي المنتظر في آخر الزمن، «يملأ الأرض قسطاً وعدلاً بعدما ملئت ظلماً وجوراً».

لم تنسَ هذه القبيلة في فترة الانعزال عن الناس لأسباب غير معروفة، أن تنظر إلى أحوال الغرباء «إيمانتايل» إذ وصفتهم ووصفت حياتهم في ناحيتين مختلفتين:

ناحية أبناء الخير، وتأتي في معنى الرمزية أبناء النور.

ناحية أبناء الشر، وفي معنى الرمزية أبناء الظلام.

على أنهم، وقد وضعوا اسم موسى في أن يكون الاسم الثاني بعد الإلّه

كانوا يرجعون بمذهبهم وتقليدهم إلى الكاهن الأعظم هارون أخي موسى من أمه، وآل هارون، وذكر المؤرخ «جوزفيوس» أن الثيولوجية المذهبية عند هذه القبيلة كانت تقوم على إيمان خالص في أن الجسم يفنى كما تفنى بقية الأجسام والجمادات، وأما الروح فهي خالدة أبداً، وكان من المعروف في أيامهم أن هذه القبيلة كانت تلتقي في تشابه العقائد والقواعد الثيولوجية مع الفريسيين، واتهم أكثر من مؤرخ أن الفريسيين أخذوا أكثر آرائهم وفلسفتهم عن قوانين وتشريع البوذية والفرس أتباع «ماني» وأخذوا عن السوريين المجاورين والوثنيين ما قد أخذوا، ويكثر الظن عند علماء التاريخ الثيولوجي، أنهم نقلوا أكثر نظرياتهم عن الفيثاغوريين أتباع فيثاغورس الفيلسوف والعالم الرياضي والمصلح الإغريقي الذي ترجع إليه عقيدة التناسخ.

ويمر الزمن على هاتين القبيلتين وقد أخنى عليهم بالفناء والانقراض، إلاّ بقية منهم عاصرت الرومان في فلسطين وكانوا كأجدادهم في حالة انعزال عن المجتمع، وأشار إنجيل متّى إلى وجودهم وآثارهم، وقيل إن «متّى» نقل عنهم في إنجيله مبدأ الخير والشر أو أبناء النور وأبناء الظلام...

الظهور والصعود:

ومع أن ولادة السيد المسيح من غير أب، كانت تشغل أفكار الأقدمين من ذوي الذكاء والبصيرة، وتشغل أفكار العلماء والمفكرين المعاصرين، وتلقي شكاً يقوم على عدم التصديق في أن يكون المسيح هو الإلّه في الحلول الثلاثي، وقد نزل هذا الإلّه من السماء إلى الأرض لخلاص العالم من الخطيئة أو الذنوب، والخطيئة تأخذ معها الخوف إلى كل عقل وقلب، كما هي عقيدة الأتباع، وأن الأقانيم الثلاثة الآب والابن والروح القدس، جعلت ولادته بالشكل المعروف، تدور حولها الظنون في أن لها حالاً في الظهور، وحالاً في الصعود، غير حال أو شكل الإنسان الروحي، فهو إلّه، كما يعتقد النصارى، في الحلول الفلسفي من الآب إلى الابن، إلى الروح القدس، ـ إلّه واحد ـ، وتقوم هذه العقيدة على يقين قاطع عند النصارى، وعلى قناعة شخصية في أن الإلّه هو المسيح، وأن المسيح هو الإلّه غير أن

هذه العقيدة في ثبوتها في الانتشار الثيولوجي، إذا وضعت موضع التجربة العلمية بالتطبيق والتحليل، فقد تكون بعيدة الإمكان في مدى الإيمان بحلول الألوهية في الأجسام الإنسانية، والمسيح كان ذا جسدٍ وشكل وطبيعة إنسانية، والمغارة التي وُلد فيها هذا السيد في بيت لحم، فلسطين، كانت عبارة عن «فندق» أو محطة للقادمين والذاهبين والمسافرين وأصحاب التجارة، ويذهب العلماء الطبيعيون أنهم لم يتأكدوا من الدعوة إلى ألوهية يسوع بواسطة الحلول والاستحالة، وأن العلم في أيام المسيح وقبل أيام المسيح كان له من مختلف الوجوه والألوان، غير الوجه الذي يعرفه العلم الحديث، وخاصة أن «عالم المسيح» هو عالم ثانٍ قديم، قد يكون عالماً آخر فوق هذه الأرض، قام علماؤه بتجربة علمية فأرسلوا طفلاً جميلاً اسمه «يسوع» لمعرفة تصرف الإنسان في الأرض، والنجم الذي يقال له في الإنجيل «نجم بيت لحم» الذي رافق ولادة المسيح، كان في نظرية ـ وأحياناً تصبح النظرية حقيقة ـ علماء الفلك الحديثين أنّ نجمي المشتري وزحل في ظهورهما في فضاء الشرق الأوسط في تلك الأيام، يظهران في الأفق الصافي الفسيح، وكأنهما نجم واحد، لقرب المسافة التقديرية بين الفضاء والأرض، أي نجم غير طبيعي.

وتشير العقيدة التي رافقت ولادة المسيح إلى أن هذا النجم أضاء المغارة التي كان فيها ابن مريم وعكس عليها الأنوار، وحسبوه يومذاك، «نور الطفل يسوع»، الطفل الصغير نور للنجم الكبير، فمن المحتمل بتقدير هؤلاء العلماء أن يكون هذا النجم «سفينة فضاء» جاءت من كوكبٍ ثانٍ، وفيها هذا الطفل للقيام بالتجربة العلمية من علماء في فضاءٍ أو كوكبٍ آخر.

ومع أن الثيولوجية اليهودية تشير إلى كلمة «المسيح» في نبوءات العهد القديم، ومن مفاد العقيدة أن المسيح المنتظر سيأتي لخلاص الأمة اليهودية فقط، ومن علامات ظهوره أنه يرجع بنسبه في الوراثة والعروق إلى بيت آل داوُد، وذلك بالطريقة الطبيعية، زواج ونطفة وحمل وولادة، ولادة في مملكة يهوذا في مكان وزمان الأمة اليهودية.

ويأتي فريق آخر من المؤرخين المسيحيين ـ الذين كتبوا تاريخ

الإنجيل ـ فيثبتون أنَّ المسيح ذهب هارباً إلى الهند، وتزوج هناك وأنجب أولاداً، وبقي هناك حتى نزل به القضاء، وله في الهند «مزار مقدس» حتى الآن يقال له مقام القديس عيسى، إشارة إلى عيسى ابن مريم . .

ويـدعي الفـريق المسيحي من «المـورمن» «The Morman»، أن المسيح جاء إلى أميركا، الولايات المتحدة، بعدالصلب والرفع، ولقد ظهر كتاب في إنكلترا سنة ١٩١٢ بعنوان «الدم المقدس والكأس المقدسة» يثبت أن السيد المسيح لم يصلب بل هرب من اليهود والرومان مع مريم المجدلية إلى غربي أوروبا حيث ترك ذرية من بعده تسكن في ذلك الإقليم حتى الآن.

المسيح إلّه أو نبي؟

لم تكن عقيدة التثليث ـ الأب والابن والروح القدس ـ بالعقيدة التي يمكن قبولها علمياً أو بالتي ترضي العقل بالقبول أو عدم القبول لاختلاط مفاعيل السماء في مفاعيل الأرض، والأرض أرض والسماء سماء، لأن الأب كلمة تطلق على من كان قد وُلد ونشأ في رجولته فصار أباً بعد الزواج في ولادة الذرية، والابن هو الذي يأتي من مجرى النشوء في حال سابقة من الحلول الجنسي، ومن وضعٍ لاحق في ممارسة تلك الحلول بالنمو والتدرج، أما الروح القدس، والأرواح كلها مقدسة، فإن كان يعني عند النصارى استحالة الإلّه إلى شخص في معنى الأقانيم الثلاثة[١]، فالانفصال الطبيعي أو المادي القائم بين الأب والابن والروح القدس، والأجسام مركبة من مواد، يعطينا رأياً صريحاً في أن هذا الرمز الفلسفي أو الثيولوجي لا علاقة له بالإلّه، وتلك نظرية من نظرات الفلسفة القديمة لا يمكن تطبيقها على هذا الإلّه في وجود الانفصال والاتصال، أو يمكن إظهارها في شكل ثلاثي يؤدي إلى الحلول والذوبة في معنى الواحد.

---

(١) ﴿يا أهل الكتاب لا تغلوا في دينكم ولا تقولوا على الله إلَّا الحق إنَّما المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه فآمنوا بالله ورسله ولا تقولوا ثلاثة انتهوا خيراً لكم إنما الله إلّه واحد سبحانه أن يكون له . . .﴾ سورة النساء: من الآية ١٧١.

وقد يكون الروح القدس من الملائكة كما جاء في الكتاب المقدس والقرآن عند المسلمين الذي يؤكد أن الروح القدس هو جبرائيل أو جبريل رسول الاتصال بأهل الأرض عن طريق الأنبياء، ففي سورة البقرة ﴿وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾ وفي سورة الشعراء ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ﴾ وفي الآية التي يأتي فيها ذكر مريم العذراء ﴿ فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴾ (مريم/١٧).

والروح يأتي بمعنى الوحي إذ جاء في سورة الشورى (٥٢) من القرآن ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ﴾ وفي سورة (غافر أو المؤمن ١٥) ﴿ يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ ﴾.

أما اليهود فقد أنكروا الروح الإلّهية والجسدية، لأن عقيدتهم في هذا الإنكار تقوم على مبدأ طبيعي أن الإنسان هو ترابة ـ أي أديم ـ وهذه الترابة في التركيب الطبيعي غير قابلة لأكثر من قاعدة من قواعد الاختلاط والتحول والحلول والاستحالة، وكلمة «أديماً» كلمة عبرانية ـ كما سبق ـ معناها التراب الأحمر أو مادة خلقها الله من مادة، ومن الأديم خلق الله الإنسان الذي تحركه المادة في محركٍ مجهول يقال له الروح. ويُعرف في بدء دعوة السيد المسيح أنه أراد أكثر من مرة ومرة أن يُفهم الذين عجّلوا في إشاعة معتقد الألوهية لأنه أحيا الموتى، وأبرأ الأكمه والأبرص ـ بإذن الله ـ كما جاء في القرآن، واتخذوا في الدعوة إلى هذه العقيدة مخرجاً أو وسيلة للقضاء على اليهودية، حتى تحل محلها النصرانية، ويظهر من الروايات التي هي مثبوتة عند المسيحيين أنه ما ادعى يوماً أنه إلّه، بل قال «أنا عبد الله أتاني الكتاب والحكمة والإنجيل لهداية الناس لعبادة الواحد الأحد».

ولقد صرح المسيح أكثر من مرة ومرة أنه جاء لإكمال ما نقص من ملة إبراهيم وموسى، أي أنه جاء لإكمال الناموس، والناموس هو التوراة وما يلحق في التوراة، ولقد أفهم بهذا التصريح المقنع الذي يأخذ وجه النهاية في العقيدة، الذين حاولوا إبطال ما أتى به إبراهيم وموسى، أنه إنما جاء لا لينتقص بل ليكمّل، لأنه بعد دراسة التوراة في مدرسة الفريسيين والأسنسيين

لاحظ أن الربانيين والأحبار قد أدخلوا تعديلاً على التوراة، تعديلاً اجتهادياً يوافق عقيدتهم الرامية إلى ضمانة المصلحة اليهودية ووضعوا جانباً ما رأوه مناسباً للاهمال من متروكات موسى وإبراهيم التي تتناول مبدأ الشمولية أو الناس كافة، التي تسقط فيها عقيدة العنصرية وتبطل، ومن أجل ذلك ألحق الأحبار والربانيون السبب بالمسبب، وقدموا المادة على الروح بل لحقهم الشك في أن يكون في الجسم روح أو في الروح جسم، وكانت غـايتهم من ذلك تشريع الضمان في مبدأ «اختيار الشعب» في أنهم هم شعب الله المختار، وأن شرف التفضيل الإلّهي على الشعوب وفوق الشعوب هو منهم ولهم على أن يكون لهم حق التعالي والتفاخر في إهمال وإسقاط معنى وجود الآخرين، وما تورعوا في تقرير مصير اليهودية الأعلى، ومصير الشعوب الأدنى أن ينكروا أو أن يرفضوا وجود بقية الديانات والمذاهب الفلسفية لأنها لا تصلح للقيام بمهمة الهداية، بل إن الأدلة بهذا الاختيار والتفضيل على العالمين، الذي كان وقفاً على الإسرائيليين من أبناء يعقوب، وذريتهم ومضى التاريخ ومضوا مع التاريخ، هو عهد وميثاق إلّهي ليكونوا الصلة الدائمة بين الإلّه وبين الناس لاستخدام الناس، وإن الاتصال بين الخالق والمخلوق لا يتم إلاَّ بوجودهم وبواسطتهم، وبغير وجودهم لا يكون هذا الوجود، وعلى أساس هذه العقيدة نشأت الاستبدادية وأساليب الرفض، ونتج عن ذلك عقيدة إرهابية هي ملكية الأرض ووراثة الأرض «الأرض ومن عليها لإسرائيل».

ومن تعاليم السيد المسيح في إنجيل يوحنا الإصحاح الثاني الذي جاء كجواب على سؤال «نيقودتموس» رئيس الكهنة من اليهود الفريسيين ما يشير إلى ما يخالف ويرفض تلك العقيدة:

«إن كان لا يولد من الماء والروح لا يقدر أن يدخل ملكوت السموات، المولود من الجسد جسد، والمولود من الروح هو روح، الريح تَهب حيث تشاء وتسمع صوتها لكنك لا تعلم من أين تأتي ولا أين تذهب هكذا كل من ولد من الروح» . . .

ويلاحظ في الخروج عن الموضوع، أن هذا التصريح إذا صح صدوره

عن السيد المسيح.. وقد يشك في ذلك، فإن مكتشفات العلم الحديث تخالفه بل تنقضه، لأن علماء الفلك وهم من ذوي الخبرة الواسعة في التجارب الطبيعية، يعرفون مثلاً بالمراقبة والمقارنة وتكرار الحوادث من أين تأتي الريح ومن أين تهب، وإلى أين تذهب، وذلك بمعادلات وآلات ومركبات طبيعية واضحة الشرح والتفسير... وإذا كانت الرمزية الثيولوجية تشغل جانباً من العهد القديم، فإنها، مع وجود الشك، محاطة بفهم الصعوبات التي لا تفهم. وفي عدم قبول نفسي يحتار به العقل إلى أي عقيدة يتجه ويصدق، ففي إنجيل يوحنا الإصحاح الثامن يقول يسوع «الحق الحق أقول لكم إن كان يحفظ كلامي أحد فلن يرى الموت إلى الأبد» وما ندري على وجه التحقيق إذا كان هذا القول صدر شكله ومعناه فعلاً عن السيد المسيح لأن الأنبياء لا ترسل الكلام ارسالاً إلّا أن يكون هذا الكلام متأكداً من صحته وأثره ومفعوله وبقائه حياً بالعقيدة الدينية لمجابهة «قلة الدين». ولأن الأتباع الذين كانوا في أيامه وحفظوا كلامه من تلاميذه الأبرار، والذين أخذوا ونقلوا عنهم ولحقوا بهم، ماتوا وماتوا..

وإذا كان حفظ الكلام يأتي بمعنى رمزية الاستمرار والدوام في العقيدة، فالأزمان تموت في حلول أزمان والأيام تمضي بالتداول بين الناس، وكأنها أجسام، في سنوات تأتي وسنوات تذوب في سرعة وتيارات الفوت والفناء وأحلام الماضي.

ويقول الكتاب المقدس في إنجيل متّى الإصحاح الأول إن السيد المسيح طلع على المؤمنين بقول ينقض ما نُقل عنه في إنجيل يوحنا:

«الذين وُلدوا ليس من دم، ولا من مشيئة جسد، ولا من مشيئة رجل، بل من الله».

فمن هو الله؟

أهو يسوع، أم أن الله هو غير يسوع، بل هو إله يسوع؟ ويهمنا في هذا التساؤل مشكلة الإنجيل، بل الأناجيل، قبل كل شيء، التي ظهرت بعد ذهاب المسيح، ولا أقول وفاته، وجاءت مرتبة في أسلوب واحد يختلف

أحياناً في الرواية، كأنما كتبت بقلم واحد ومادة واحدة، تنطوي على تضمين رمزي في القصة وعلى نقصٍ أدبي في تنسيق النص، فلعل الذين وضعوا الإنجيل القديم، ما كانت كفاءتهم العلمية والإنشائية ـ في البلاغة ـ بالتي تصلح لكتابة الأناجيل، أو جمع هذه الأناجيل بدون أن يكون هناك انحياز عقائدي أو غاية أو هوى عنصري!!.

ومن الطبيعي أن المستوى الثقافي في تلك الأيام كان موقوفاً على الكتابة والقراءة عند الذين اشتغلوا بالدين أو شغلوا الدين بهم، فقد كان اليهود، وعلى رأسهم الأحبار والربانيون، أصحاب ثقافة ثيولوجية عالية، وكان الغرباء أو الجانتايل، كلمة أطلقها اليهود على الذين اتبعوا السيد المسيح بعد الانفصال عن اليهودية، وقد كان موسى أطلقها في يومه على الوثنيين، وأطلقها المصريون قبل موسى على العبرانيين في اعتبارهم رجساً ونجساً، هؤلاء الغرباء كانوا فقراء في المادة، أميين في العلم بصرف النظر عن علوم وثقافة بولس الذي هو من عائلة يهودية، فالدين لا يقاس على الواحد، ولا الواحد يقاس على الدين..

ومن يتابع قراءة التصاريح والتعاليم اليسوعية في الكتاب المقدس، يظهر له بكل وضوح وبدون غموض، أن السيد المسيح لم يدّعِ الألوهية، ولا دعا إليها في مضمون إذاعة الرواية وإشاعة القصة، أو قال يوماً أنا الإله، أو أنا الرب، بل كان ـ كما أراده الله ـ نبياً مقرباً مميزاً كإبراهيم وموسى ـ واليهود ينكرون نبوّته وألوهيته وشخصيته، ومن هو كما قالوا، إنه شخص عادي حاول الخروج على الناموس، ولقي مصيره بحكم الناموس!!.

والمخاطبات التي جاءت من تلاميذه «يا رب» لا تعني الإله بمعنى الإله الواحد، لأنها مشتقة من كلمة الربانيين ـ الكهنة عند اليهود ـ الذين كانوا فوق الأحبار في المنزلة الثيولوجية، فهو رباني أي عالم ورئيس، وعندما يُلحق الاختزال بالاسم والمسمى، يمكن أن نخاطب السيد المسيح بما خاطبه تلاميذه «يا رب» أي أيها الرباني المعلم...

ويثبت إنجيل يوحنا الإصحاح الأول، أن المسيح هو إنسان ديني له

ذاتية غير ذاتية الله «في البدء كانت الكلمة، والكلمة كانت عند الله، والكلمة هي الله، هذا كان في البدء عند الله كل شيء ينطوي فيه فعل كان، وبغيره لم يكن شيء، يؤدي إلى وجود الحياة والحياة كانت نوراً للناس، والنور يضيء في الظلمة والظلمة لا تدركه».

ففي هذا التقاطع الظاهر بين الكلمة والله، وبين الحياة والظلمة والنور، نجد أن هذه الفلسفة الثيولوجية أخذت عن عقيدة الأسنسيين اليهود الذين مرّ ذكرهم في هذا العرض، يضاف إلى ذلك ما يمكن أن يضاف أنه لا يمكن الاعتقاد أن يسوع الناصري هو الإلّه في تقرير ما جاء في إنجيل متى الإصحاح السادس والعشرون:

«فقال يسوع لتلاميذه اجلسوا ههنا حتى امضي وأصلّي» وفي الإصحاح السابع والعشرين من إنجيل متى المذكور، ورد ما قاله السيد المسيح بعد الطلب بصوت حزين كئيب تكتنفه الآلام: «إيلي إيلي لماذا شقيتني» أي إلّهي إلّهي لماذا تركتني؟، وإيل اسم الإلّه عند الكنعانيين، وأطلق موسى على ولده اسم «اليعازر» تبركاً باسم الإلّه.

فلمن صلّى يسوع؟

ومن هو هذا الإلّه، إلّه يسوع الذي أشقاه وتركه؟.

الولادة والصلب...

لم تكن ولادة السيد المسيح عيسى ابن مريم كما جاء في الكتاب المقدس والقرآن، ولادة طبيعية مصدرها تفاعل الذرات الجنسية، في زواج الذكر من الأنثى، أو لم تكن هذه الولادة مقبولة في إدراك العقل، لأنها على ما جاءت تكاد تكون فوق العقل، إلاَّ أن الذي حصل في هذه الولادة هو أنها ولادة روحية مصدرها إرادة الله خالق كل شيء، وقد يكون هذا الخالق أراد أو تكون هذه الحادثة من المعجزات الإلّهية للعبرة والاعتبار في تكييف القدر والقضاء على ما يشاء ومتى يشاء وكيف يشاء، وهي ـ أي هذه المعجزة ـ إذا وضعنا الشك إلى جانب شك آخر، ربما كانت فورية في تأكيد حدوث البعث والنشر من الأجداث ـ يوم يبعث من في القبور ـ القرآن، أو أنها جاءت تجربة

كالتجربة الأولى مع موسى في أن الأنبياء يمكنهم إحياء الموتى بإذن الله، أو جاءت كتجربة ثانية من تجارب الإلّه للناس الذين خالفوا وتقاعدوا عن عبادته والاعتقاد بوحدانيته إذ ورد في القرآن أن التجربة الإلّهية تكون في كل عام مرة أو مرتين وهذه تأتي كعفو عام عن الذي مضى في الرجوع إلى التوبة:

﴿أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ (سورة التوبة/ ١٢٦).

غير ان علماء التفسير من المسلمين يقولون إن الفتنة أو التجربة السنوية كانت تأتي في القحط والأمراض، وهذا تفسير عقيم لا يتناسب مع عظمة الإلّه وعدالته، بل يكون في أحوال هذا الشرح إشارة إلى أن الله ظالم ومنتقم من الذي يحيد عن عبادته ولو بالشعور، مع أن القرآن يقرر في موضع آخر أنه لا إكراه في الدين، فالحِساب والعقاب يكون كما ورد في العقائد الإسلامية والقرآن في الدار الآخرة.

ومن يتأمل بعيداً في تاريخ الأنبياء والتطوّر الإنساني، يجد أن الله خلق آدم من تراب كما جاء في الكتاب المقدس والقرآن، وآدم لم يكن له أب أو أم، وأعطى الله إبراهيم ولده إسحق وقد كان شيخاً هرماً نضبت فيه مادة الجنس، وزوجته سارة التي كانت زوجاً عقيماً، ووهب الله زكريا ولداً في أواخر أيام الكهولة اليابسة، تلك الكهولة التي كانت تمد يدها إلى الموت في ذهاب الأمل في دواخل اليأس، يمكنه أن يضع السيد المسيح في رحم أمه العذراء البتول، في نفخة من روح أو في نسمة من حياة، ثم يعطيه البركة والطاقة الروحية التي حملته على الإتيان بالمعجزات التي هي فوق الطبيعة، وفوق الفكر والعقل.

وحدوث الولادة على هذا الوجه أو هذا الخلق، لم يكن غريباً ولم يكن بعيداً إذا اعترفنا ـ ولا نكران بهذا الاعتراف ـ أن الله قادرٌ على كل شيء، وهي ولادة بالإضافة إلى ما سبق جاءت كنفحة إلّهية من نفحات الروح القدس، كما سيأتي في الآية القرآنية، ولم تأتِ عن طريقة الاجتماع والجماع في خلق بعد خلق أي النطفة والعلقة والمضغة، كما جاء في القرآن، بل هي تورية وعبرة بالغة، وكان من المشيئة الإلّهية أن تقع التجربة على امرأة عذراء صالحة

بتول طهور، ما عرفها إنسان ولا عرفت إنساناً، بل آمنت والتزمت بالإيمان بالله، ومارست الحصانة في شرف وطيب سمعة وكرامة، وجاء في (سورة الزمر/ ٦):

﴿ خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِّن بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴾ . . .

والسيد المسيح جاء بولادته بنفخة من روح الله ﴿فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا﴾ كما جاء في القرآن، والروح تعني هنا القدرة والإرادة، وهو الذي صوره في الرحم، وقد مرت أيامه في رحم أمه، كما تمر الأجنَّة في ظلمات ثلاث، ظلمة الرحم وظلمة البطن وظلمة المشيمة. . .

تلك هي مشكلة السيد المسيح في ظهوره إلى هذه الدنيا، الملأى بالمشاكل، بطريق المعجزة، والمعجزة كانت للتورية في إثبات البعث، وبعث القدرة، والحلول في نهاية هي لا شيء، وشيء هو نهاية، أما الصلب، وكيف هي آلام الصلب، فإن القرآن يكرم يسوع الناصري أو المسيح، ويرفعه بالتعالي، ذكراً وعملاً، فوق الذين لاحقوه ورفضوا تعاليمه، وفي أن الصلب كان قد وقع على غيره، أي على رجلٍ كان شبيهاً به، ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ﴾ (النساء/١٥٧)، وفي أن هذا الصلب لا يمكن السماح به من قبل الإلّه لأن ذلك يضعف من قيمة الرسل والأنبياء، يضاف إلى ذلك أنه لو صادف حدوث الصلب ووقوعه، فإن فيه تحقيراً ومذلةً لنبي مرسل جاء من روح الله وإرادة الله، وعمل ودعا إلى الله.

وإذا كانت ولادة السيد المسيح بواسطة أم عذراء ولم يمسسها بشر أو إنسان، تؤهله أن يكون إلّهاً للإلّه ـ في رأي الأتباع ـ أي حلول الأقانيم الثلاثة ـ ومن أين جاءت هذه الأقانيم ـ فإن «آدم» ولد من غير أب وأم ـ كما سبق ـ وفيه عناصر ثلاثة أو أقانيم ـ الماء والطين والهواء ـ أبدعته القدرة الإلّهية وجعلت منه جسماً واحداً، فهذه العناصر الثلاثة قد تكون أقانيم ثلاثة لها وجود في وجود أو في الحلول والاستحالة، الأب أبُ البشر، الابن

اللاحق بأبيه من هذه الطينة، والشخص الواحد مركب ثلاثياً من هذه العناصر الطبيعية، فآدم والحال هذه أحق وأجدر ـ على سبيل الافتراض ـ بالألوهية قبل السيد المسيح لأنه كان قبل المسيح وما ولدته أم ولا تفاعلت في تركيبه نطفة والد أو أب.

وموسى النبي العظيم صاحب العصا الذهبية والحية الذهبية والتوراة، قال له الرب كما جاء في الكتاب المقدس، وكما ورد في العرض عن موسى:

«إني مرسلك إلّهاً إلى فرعون، وهارون نبيّك» وهذا إلّه ثالث ـ وقد تعددت الآلهة ـ يمكن أن يكون قد تركب من طينة الإلّه الأول وهو اللَّه، ومن المسيح الإلّه الثاني، ومن القدرة الإلّهية التي هي روح القدس، فكانت الأقانيم الثلاثة التي تصح أن تطلق كلمة إله على موسى كما أطلق الأتباع من النصرانية الألوهية على السيد المسيح... وجاء في العهد القديم، سفر التكوين في الإصحاح الثالث:

«وجبل الرب آدم تراباً من الأرض، ونفخ في أنفه نسمة الحياة فصار آدم نفساً حية»...

أما الذي نزل في نفوس الأتباع ـ أتباع يسوع ـ من أنه صعد إلى السماء بعد الصلب أو بعد الموت، فتلك عقيدة ثيولوجية كانت معروفة في الانتقال الوراثي، فآدم أب الإنسانية كان في السماء مرفوعاً، وهبط إلى الأرض مخذولاً بالخطيئة، وإبراهيم صعد إلى السماء بعد الموت وما عرف إبراهيم سماء غير سماء الأرض، واليسع ذهب على عربة من نار صاعداً إلى السماء كما جاء في الأبوكرايفية اليهودية، وموسى رفعه الله إلى السماء كما جاء في التوراة، وهناك جرى حوار بينه وبين الملائكة، تحت رعاية الإلّه، في شكل سؤال وجواب، لمعرفة إذا كان موسى يمكنه القيام بعبء التوراة وتنفيذ ما في هذه التوراة من تشريع وفرائض وواجبات ومحرمات ومحظورات. ووافقت الملائكة بعد الحوار، ووافق الإلّه، وكان نزول التوراة مع موسى من السماء إلى الأرض،.... «كتاب مختارات من التوراة».

والرسول محمّد، كما يعتقد المسلمون، صعد على ظهر البراق بدعوة من الله إلى السماء، وقد رأى الجنة والنار، والملك الذي هو للواحد القهار، فقضية النزول والصعود والرفع هي «روتين ثيولوجي» يجري مع الوراثة في صلب العقائد المشبوه بها بين أهل التوراة والإنجيل إلاَّ أن الذي حصل للسيد المسيح من رفع وصعود، فقد أشار القرآن في مخاطبة يسوع، ﴿ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ ﴾ . . .واختلف العلماء المسلمون في تفسير كلمة «متوفيك» ففريق منهم قال بحدوث الوفاة أو الموت الطبيعي ورفعه بالروح، وفريق آخر يذهب في التفسير إلى أن الله وفَّاه أجره أي كرَّمه ورفعه إليه، والرفع عند المسلمين له حالات تختلف باختلاف النص والمعنى، وقد تكون متوافقة في الهدف استناداً على ما جاء في القرآن الكريم أي رفع المكانة:

- ﴿ يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ ﴾ سورة المجادلة/١١.
- ﴿ وَرَفَعْنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴾ سورة مريم/٥٧.
- ﴿ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ﴾ سورة الأنعام/٨٣.

ويسوع الناصري ـ كما سبق في هذا العرض ـ ما ادّعى في أيامه أنه رب أو إله، فهو جاء كغيره من الأنبياء والرسل لإكمال المقدمات الإسلامية التي نقص ذكرها في الناموس أو التوراة، للوصول إلى الدين الكامل وهو الإسلام، والتوراة القديمة هي من الإسلام. . . ففي إنجيل متى الإصحاح الخامس يقول يسوع :

«لا تظنوا أني جئت لأنقض الناموس، بل جئت لأكمّل، فإني الحق أقول لكم إلى أن تزول السماء والأرض،لا يزول حرف واحد أو نقطة واحدة من الناموس حتى يكون الكل». . .

فما هو الكل، أو هذا الكل؟
أهو الكمال والتمام للدين وغير الدين؟.

على أننا في الخروج عن الموضوع ـ كما سيأتي في العرض الثالث عن المسيحية ـ نجد أن بولس خالف أقوال السيد المسيح أكثر من مرة ومرة، في شكل العقيدة، وهو الذي أراد إلغاء التوراة ونقض ما فيها من شرائع تمهيداً لولادة أو ظهور العهد الجديد.

الرَّسُول محَمَّد

وصل إلى العرب، في شعاب مكة والصحراء، أخبار النبوءات في التوراة والإنجيل ـ قبل ظهور الإسلام ـ ووصل إليهم أن مسيحاً ينتظره اليهود لخلاص الأمة اليهودية، وقد ادعى أكثر من واحد بعد إشاعة هذه العقيدة، أنه هو المسيح المنتظر، وكان يُدفن هذا الادعاء في أكفان الكذب، كذب من ادعوا وتظاهروا، وأن نبياً سوف يظهر في بلاد العرب اسمه أحمد أو محمود في معنى الكلمات العبرانية «حمدوت» كما ورد في الإنجيل، «ووحي من بلاد العرب» كما جاء في التوراة، سفر التثنية الإصحاح التاسع، «وسوف أقيم لهم نبياً مثلك من بين إخوتهم وأجعل كلامي في فمه، ويكلمهم بكل شيء أرويه، ومن لم يطع كلامه الذي يتكلم باسمي فأنا الذي أنتقم منه».

من هنا يتراءى لنا أن ذكر الحوادث والقصص والروايات التي جاءت في العهد القديم والجديد، التي أثبتها القرآن في بيان الآيات، كان من قبيل تحقيق النبوءة في التوراة «ويكلمهم بكل شيء أرويه» وما وقف الرسول محمّد عند تهديد ووعيد في إيضاح حقيقة النصرانية واليهودية ولقد تكلم كثيراً عن هذه الحقيقة، أهابت بأهل الإنجيل والتوراة أن يحملوا على الرسول، وأن يوغروا الصدور، ويزرعوا الأحقاد في النفوس، لأن الذي جاء به ـ وقد كمل الإسلام على يده ـ أيقظ ضمير بعض الأتباع فوجدوا سراباً بعيداً، أو رأوا وعوداً قريبة من لون السراب:

وسأل اليهود يوحنا المعمدان في أيامه:

أنت المسيح؟ قال: لا.
أنت أليسع؟ قال: لا.
أنت النبي؟ قال: لا، فقالوا لماذا تعمّد إذا لم تكن هؤلاء؟.

ومع أن الوثنية كانت منتشرة وشائعة في بلاد العرب، إلّا مع وجود قلّة من الحنفيين الذين آمنوا بما جاء به إبراهيم، فقد أخذت القبائل تطلق على الأبناء الذكور اسم محمّد، طمعاً في أن تكون النبوة لهم ومنهم، ومن هؤلاء الذين لحقهم الطمع في تسمية النبوة محمّد بن سفيان، ومحمّد بن أمية، ومحمّد بن حمدان، وكان الانتظار طويلاً والخيبة أطول، عندما ظهر سيد الأنبياء وخاتمهم الرسول محمّد ﷺ يحمل القرآن وفيه أخبار التوراة والإنجيل، وكان أن بدأت الملاحقة والخصومة بهذا الظهور.

لم يحاول أي نبي أو مرسل، قبل ظهور الإسلام والأصح قبل كمال الإسلام، أن يعنى عناية خاصة في الإنسان وعقل الإنسان وفي تطهير بواطن النفس الملأى بالانفعالات والتفاعلات الكيماوية، وأن يعطي الحكمة والرأي السديد في معالجة الأحداث الناشئة عن مشاكل البيئة في فوات أحداث غير عادية قد يؤذي الرجوع إليها مصالح الإنسان.

فحياة الأنبياء كانت عبارة عن مثالية عادية تفسّر وتطبق على الذين كان بين أيديهم بعض الكتب قالوا إن فيها كلام الله، وحاولوا مع هذا الانبعاث العقائدي والحصر الثيولوجي في آفاقه وامتداده أن يفصلوا العقل عن الدين، والعقل في الإسلام هو الدين، بل حرّموا على هذا العقل أن يذهب بالسؤال إلى ما وراء الحدود الثيولوجية، التي علت فوق قواعد الاعتقاد.

كان التصرف الديني والحرية والعمل الاجتماعي والمخاطبة اليومية، تأتي من الكتب الثيولوجية وتعود إليها بين دفع وجذب، قيّدت الحياة الإنسانية بقيود غير طبيعية، ونتج عن ذلك أن الفرد يجابه صعوبة في فهم ما تعني تلك الكلمات القديمة وقد لحقها الاهتراء من كثرة الاستعمال...

وحياة هذا الفرد ـ من أي مذهب وعنصر كان ـ من أيام آدم إلى أيام السيد المسيح كانت معزولة تماماً عن معرفة حقائق الوجود، لأن إدراك ما هو

الوجود، وما في هذا الوجود، يتطلب التجربة في الأبحاث العلمية التي تكون مصدرها العقل والفكر، وظهور العقل بهذه التجارب التي أدت إلى كشف حقائق كانت دفينة في الكتب والطبيعة، أوجد المخاوف والرعب للذين يقومون على ممارسة الدين وكأنه منهم ولهم، فاتخذوا خطأً للدفاع في أنه لا يمكن إخضاع الدين للعقل، لأن الدين كان قبل العقل، وفي ظهور الإسلام أطلق الإسلام حرية التحليل والتفكير للعقل، وأقر أن العقل كان قبل الدين ومنه يأتي فهم الدين.

والمجتمع الثيولوجي القديم، جمّد تصرف الفرد الشخصي بالمخاوف أو بالرعب الوراثي في الدم كما قال العلّامة «فرويد» وحدّ كثيراً من تفكيره، وامتداده، وتأمله، كأنه صخرة موسى، وضربت بعصا غير عصا موسى، يخضع دائماً وحتى الآن وكأنه «عبد رقيق» للدين تحت مؤثرات الضغط والخوف والحكم والسلطة الثيولوجية.

والنتيجة التي أدّت إلى نتيجة مؤسفة، هو أن الثيولوجيين وضعوا في محاولتهم تسخير العقل والإنسان للدين «سيكولوجية المفزعات»، ـ المفزعات القرفة كمفزعات عيد المساخر ـ وذلك في تصوير الخطيئة والذنوب والعيوب، وكيفية الخلاص من الخطيئة، ونصبوا شريطاً فولاذياً بين الدين وبين عقل الإنسان، وعلى أطرافه أو أركانه علّقوا عارضة طريق أو لافتة سير «قف هنا» ممنوع الدخول أو خفف السير.

والمخالفات الطبيعية التي تكون ضرورية لنمو وتحسين حال الفرد الاجتماعية، أعدّوا لها «أنظمة وأحكاماً وعقاباً وعذاباً وسجوناً في النفوس». فعند الكاثوليك مثلاً إذا حدثت المخالفة يضعف الإيمان أو يضعف الاعتقاد عند العامة.

ولماذا يكون ضعف الإيمان إذا وُجدت التوبة، والاستغفار الذي يقوّي الإيمان ويجدّده، ومع أن المبررات الفطرية التي تخلق وتدور مع النظام الجسمي، تدفع قبل كل شيء إلى تفاعل التفكير العقلي بالإحاطة والبيئة والدين والمصلحة والضرورة والأفعال، وفي التفكير تجلو صورة القضية أو

المشكلة بألوان وأحوال، ومن شكل هذه الأحوال والألوان، تظهر المعقَّدات النفسية التي لا يمكن لشيء أن يعالجها بالحل إلاَّ بتدخل العقل، لأن للعقد الإنسانية «حلاً طبعياً» يأتي قبل الحل الثيولوجي، الذي لم يكن له القدرة أو الطاقة على مواجهة المشاكل المخبأة في بواطن النفس، لأن في الوجود «أسباباً نهائية» أي أنها تنتهي من نفسها وبنفسها، منها نهاية المعتقدات والصعوبات الفلسفية والمذهبية التي لا يقبلها العقل إلاَّ مع وجود الصمت والسكوت وكبح جماح الفكر. . .

وأحياناً يرجع المعتقدون ـ بعد الفشل والإفلاس الشخصي ـ إلى الدين مع المرافقات الضرورية لوجود الإنسان وحياة الإنسان، مع أنه يوجد هناك أحوال وأحوال تتطلب علاجاً غير علاج الدين. .

فالثيولوجية القديمة ـ على ما يظهر ـ فشلت وأخفقت في تعاملها وتلاعبها في عقل الإنسان في تحديد الفكرة والفكر، وعندها «دولة الحلال والحرام» وغاب عن أهل الثيولوجية أنه يوجد نداء واستجابة للضرورات داخل الإنسان في ظهور حاجة الإنسان، ويوجد مصلحة شخصية للفرد تعجز الكلمات الموضوعة لغير هذه المصلحة عن أن تعبر عنها. . .

لقد نشر الثيولوجيون قواعد الخوف بين الأتباع من الفقراء، ولكنهم لم يعطوهم أي فكرة عن كيفية التغلب على هذا الخوف، وكيف يكون هذا التغلب ممكناً إذا كان الخوف يرجع إلى الله الذي هو مادة في جسم، وكأنه يحمل سيفاً فوق الرقاب، وتحدثوا عن الروح والقلب والجسم والعقل، ففرضوا عليها ـ وهي وسائل طبيعية للحياة ـ في أن تكون موقوفة على الخوف من الدين وأهل الدين، مع أن هذه الوسائل البيولوجية، وجدت لأن تكون عوناً وناصراً في التغلبَ على الصعوبات والعوارض الطبيعية، وفي هذه العوارض حياة ملأى بالمشاكل والمخاطر، وكأنها ـ أوقيانوس هائج ـ من البؤس والفقر والجوع والمرض، فالعمل للدين القديم، كل العمل، لا يعطي الفقير نصف رغيف، والخوف من الله على أنه .خوف، ولماذا يخاف الله فقير، وهو الذي وضعه في الخلق في هذه الإحاطة وجهّزه بالعقل والسمع

والبصر والحواس والفكر، ليجابه تلك العوارض والصعوبات بقوة وشدة وجرأة وحرّية.

ومن أرض فلسطين وجوار فلسطين هبت رياح عدوى أمراض العقيدة القديمة، وتحولت الكلمة ـ كلمة الحياة ـ في معناها المجهول، إلى أن تصبح من الكوامن التي تمثل الكذب والزور والبهتان...

وظهر الإسلام بإتمام ما نقص من الأديان، وظهر محمد الرسول، وقد بلغ الامتداد العقائدي المشبوه أبعاداً ومسافةً واسعة، وقد رأى الرسول ما رأى، فلم يلتفت إلى المشكلة الدينية القديمة في البدء ـ عناية الدين بالدين ـ فالدين الكامل لا يحتاج إلى الكمال أو الإكمال، بل كانت عنايته وهمه يهدف إلى تهذيب العقل، وإيقاظ الضمير الساكت المخبوت، كما أراد أن ينهض بالإنسان نهوض الإنسان إلى معرفة حقه في الحياة، ومعرفة من هو، ومن أي وادٍ في الحياة قد جاء، إلى أي مصير أو نهاية يتبعها فناء وبقاء، يضاف إلى ذلك حق الحياة عليه، فإن أحسن للحياة أحسنت له الحياة، وإن أساء، ساء وجوده في الحياة.

ومع أن البيئة الصحراوية ذات الوجه العبوس، كانت تخضع للنظام القبلي بإدارة شيوخ القبائل الذين مارسوا القسوة وغلاظة الطبع في الغارات والاضطهاد والإجرام، فقد مضى الرسول محمّد في دعوته، بادئاً كما قلنا في تحرير العقل من عقائد الخرافات والأساطير، وفي الإلزام أو الاختيار في نظافة الروح والجسم وطهارة العقل، وصفاء السمع والبصر، مع إعطاء الحرية الطبيعية لكل راغب في الحرية ضمن نطاق وحدود قواعد الأخلاق العالية والمثالية والتقوى في كل شيء، تقوى الله وتقوى النفس، التي منها الدين وهي من الدين.

ولقد اعتنى الرسول محمّد بجهد ورعاية بطبقة الفقراء وقد عمَّت بينهم عوامل الخوف من كل شيء، الذين كانوا في وضع متخلف مريض، لكثرة ما نزل في أحوالهم وديارهم من بلاء وضغط اجتماعي، فرضته عليهم الإرادات الجبارة التي مشت إلى جانب الأتوقراطية الثيولوجية القديمة، كي يتحقق لها

التحكم والسيادة والسيطرة والانتفاع والثراء، وفي كل فم ثري أو غني أكثر من لقمة لفقير جائع.

وكان من أشد العوامل التي وقفت في عناد وتحجر تلاحق وتعارض دعوة الرسول إلى الحق، هي العادات والتقاليد الوراثية التي تتفيأ في ظلال الوثنية، وخيال الأقطاعية، وأهمّها الرقيق ووأد البنات، وفي الوأد ـ كما أوحت لهم عقيدتهم ـ دفن للعار والذل والتحقير في أعمق طيّات التراب، فقد كان من اهتمام الرسول أن يمنع هذه العادة الإجرامية أولاً، والقضاء عليها قبائلياً واجتماعياً، وهو الذي سمع في حياته وأيامه بينهم، صراخ الأطفال الإناث يوأدن أحياء في الأجداث أو الحفر، ورأى دموعهن تسيل من المآقي الجريحة البريئة ويتعالى البكاء والصراخ، وما من واحد ذي ضمير وذي عقل وذي عاطفة يرفق بهؤلاء الأطفال، أو سمع آهات الاستغاثة التي ملأت شعاب مكة، وسرت بالأنين فوق رمال الصحراء السمراء.

لقد كان هذا النبي العظيم، يأخذ بنشر قواعد الدين والتشريع، ليكون في مصلحة الإنسان وخدمة الإنسان، لا أن يكون الإنسان عبداً مقهوراً وذليلاً في خدمة ما فرض عليه في السلبية الثيولوجية، فبدأ بالعقل بداية عقلية فأطلق له حرية التفكير والتأمل والبحث وأعطى مثلاً في أقواله ـ كما ورد عنه ـ في أنه إذا وصل إليهم أو جاءهم خبر يرجع إليه بالرواية والحديث والنقل، فليكن العقل حكماً في الرواية وتحري المصدر والسبب في الخبر المنقول، وإذا كان يوجد هناك شك في صحة الرواية والقول والحديث، كان له حق الرفض والإعراض وعدم التقيد والاعتقاد، حتى لا يكون عرضة لضغط وتأثير الخرافات والأساطير. . .

وتابع الرسول محمّد دعوته إلى «الحرية الشخصية» للتخلص من القيود الثيولوجية التي هي غير صالحة ـ الثيولوجية القديمة المزيفة ـ التي تعطلت فيها كلمات الصدق، في فقد حرية العقل والإيمان القائم على العقل، ولخص ذلك القرآن بعقيدة ﴿ لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ ﴾ (القرآن سورة البقرة/٢٥٦).

وفي الإسلام قبول واختيار الذي يرافق الحرية الطبيعية في تقرير المصير، ورفض التكليف مع الضرورة، أي أنه (في الضرورات تباح المحظورات).

وما تورع السيد الرسول محمّد، أن يوجّه اهتمامه وعنايته ـ عناية خاصة ـ بالروح التي علمها عند الله كما ورد في القرآن، إذ قال: «**إن هذه الأرواح تملُّ كما تملُّ الأجسام، فابتغوا لها طرائف الحكم**» . . .

وجعل النظافة، نظافة القلب والجسم والعقل والروح، عقيدة في أنه جعل النظافة أساساً للتعبد والتكليف «النظافة من الإيمان» أي كأنه جعل النظافة جزء من أجزاء الدين، أما الذي أقرّه في المعاملات الاجتماعية والتجارية المتداولة في المجتمع، فقد جاء عنده في شكل عقائدي فيه صفاء ورواء كجزء من الدين أيضاً «الدين المعاملة».

وحاول الرسول العظيم في الأمور التي يمكن أن تنتظم فيها أحوال المجتمع الإسلامي العالمي، أن يضع المساواة بين الإنسان والإنسان، وأن ينشر المبادىء الإنسانية الصالحة لتقرير الإخاء، إخاء الإنسان للإنسان، لتكون قاعدة ثانية من قواعد الإسلام، ومن أجل تحقيق هذا المبدأ الذي يبتدىء بالعدالة وينتهي بالعدالة، بدأ في أصحابه من المهاجرين والأنصار في مثالية الأخوة الإسلامية للوصول إلى شمولية إنسانية عالمية. .، وبذلك أو بهذه الحكمة النبوية، توصل إلى توحيد الجزيرة العربية، ليكون هذا التوحيد «قاعدة انطلاق» أو بادىء مرحلة من مراحل التوحيد الكوني «عالم إلهي واحد» والرسائل التي بعث بها إلى الملوك والأمراء، كانت لا تنطوي على أهداف سياسية أو شخصية، بل كانت تنقل على صفحاتها الدعوة إلى السلام في الإسلام والعافية الإنسانية والسلامة، سلامة بين الشعوب وسلامة الشعوب.

ووضع بالاعتماد على القرآن تشريعاً روحياً للمجتمع الإسلامي العالمي، يحمي الأجسام والعقول والأرواح من الانحراف السافل، والمطامع الانتهازية والعقائد الثيولوجية المزيّفة التي تؤلف خطراً على حياة الإنسان في

أن التوجيه الخاطىء يؤدي إلى حيرة وعدم انسجام العقل والفكر.

وما كانت حياة الرسول محمّد، وقد وضع القضية الإنسانية العالمية موضع العناية والاهتمام ـ كحياة بقية الأنبياء ـ بل كان يختلف في حياته عن حياتهم كل الاختلاف بمعنى البيئة والنشأة، فهو يتيم، وقد فقد أباه، وهو يتيم وقد فقد أمه في سنه السادسة، وهو أميّ ما عرف قراءة الحروف أو كتابة الكلمات قبل الوحي، ولقد رعى الإبل في الصحراء الصامتة كواحد من الرعاة الذين كانوا تعرضوا للفقر والبؤس والفاقة وشظف العيش بحكم تخلّف المجتمع العربي تحت مؤثرات أتوقراطية الأمراء أو الأشراف وهو بهذا الحرمان من حنان الأمومة وعطف الأبوة والعزلة البعيدة في الصحراء التي أبعدته وفصلته عن أهله وعشيرته، لم يعرف نعيماً أو حياة ثراء، بل عرف التقشف، وذاق طعم الفقر والحاجة ومرارة اليتم وخجل الأميّة.

لقد كان في هذا اليتيم ـ يتيم صحراء العرب ـ صفات النبوة قبل أن تنزل عليه النبوّة، وصفات الإنسان الكامل قبل أن يبلغ سن الرجولة، وكان صادقاً أميناً، وصديقاً مخلصاً «أوسع الناس صدراً وأصدقهم لهجةً، وأوفاهم ذمة، يبدأ من لقيه بالسلام، ويبادر أصحابه بالمصافحة».

محمّد الرسول:

والسيد الرسول كان رسولاً لله والدين قبل الولادة، جاء ذكره بغير اسم في التوراة الحالية «لأنه هكذا رب الجنود هي مرة بعد قليل فأزلزل السموات والبحر واليابسة، وأزلزل كل الأمم، ويأتي مشتهى الأمم فأملأ هذا البيت عدلاً قال رب الجنود» سفر حجى الإصحاح الثاني.

وفي حاشية الأصل العبراني «مشتهى كل الأمم حمدوت» الذي تحمده كل الأمم، وفي سفر أشيعيا الإصحاح الواحد والعشرون، «وحي من جهة بلاد العرب» وفي إنجيل يوحنا الإصحاح الرابع عشر، قال السيد المسيح: «إن كنتم تحبونني فاحفظوا وصاياي وأنا أطلب من الأب فيعطيكم معزياً آخر ليمكث معكم إلى الأبد، وأما المعزي الروح القدس الذي يرسله الرب

باسمي فهو يعلمكم كل شيء، ويذكركم بكل ما قلته لكم سلاماً أترك لكم».

وفي إنجيل برنابا الذي لم يعترف به المسيحيون، جاء: «أجاب التلاميذ يا معلم من عسى أن يكون ذلك الرجل الذي تتكلم عنه الذي سيأتي إلى العالم؟ أجاب يسوع بابتهاج قلب، إنه محمّد رسول الله».

وفي القرآن الكريم إشارة إلى صحة ما جاء في الكتاب المقدس، في سورة الأعراف/١٥٧:

﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾.

وفي آية ثانية (سورة الصف/٦):

﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾.

ويقول يوحنا المعمدان ـ أو يحيى بن زكريا ـ في إنجيل متى الإصحاح الثالث من سفر الخروج:

«ولا تفكروا أن تقولوا في أنفسكم لنا إبراهيم أب لأني أقول لكم أن الله قادر أن يقيم من الحجارة أولاداً لإبراهيم، أنا أعمّدكم بماء التوبة ولكن الذي يأتي بعدي هو أقوى مني لست أهلاً أن أحمل حذاءه، سيعمّدكم بالروح القدس وناره» ويفسر المسيحيون أن الذي يأتي بعد يوحنا، هو المسيح، ولكن غلطاً ظاهراً يأتي بهذا التفسير يقرر بالتأكيد أن السيد المسيح كان في أيام يوحنا، وقد علّمه وعمّده، والذي يأتي اليوم لا يأتي بعد الظهور بعد اليوم، فالإتيان يجري بمعناه في مرور الزمن ومجرى الزمن حتى يصل إلى الأيام التي ظهر فيها محمّد الرسول.

وفي إنجيل متى الإصحاح الثالث عشر:

«لكي يتم ما قيل بالنبي القائل سأفتح بأمثال فمي، وأنطق بمكنونات منذ تأسيس العالم» ويعتقد المسلمون أنه في نبوة محمّد، وفي القرآن ظهرت الأمثال والمكنونات التي سبقت العالم في نهاية العالم...

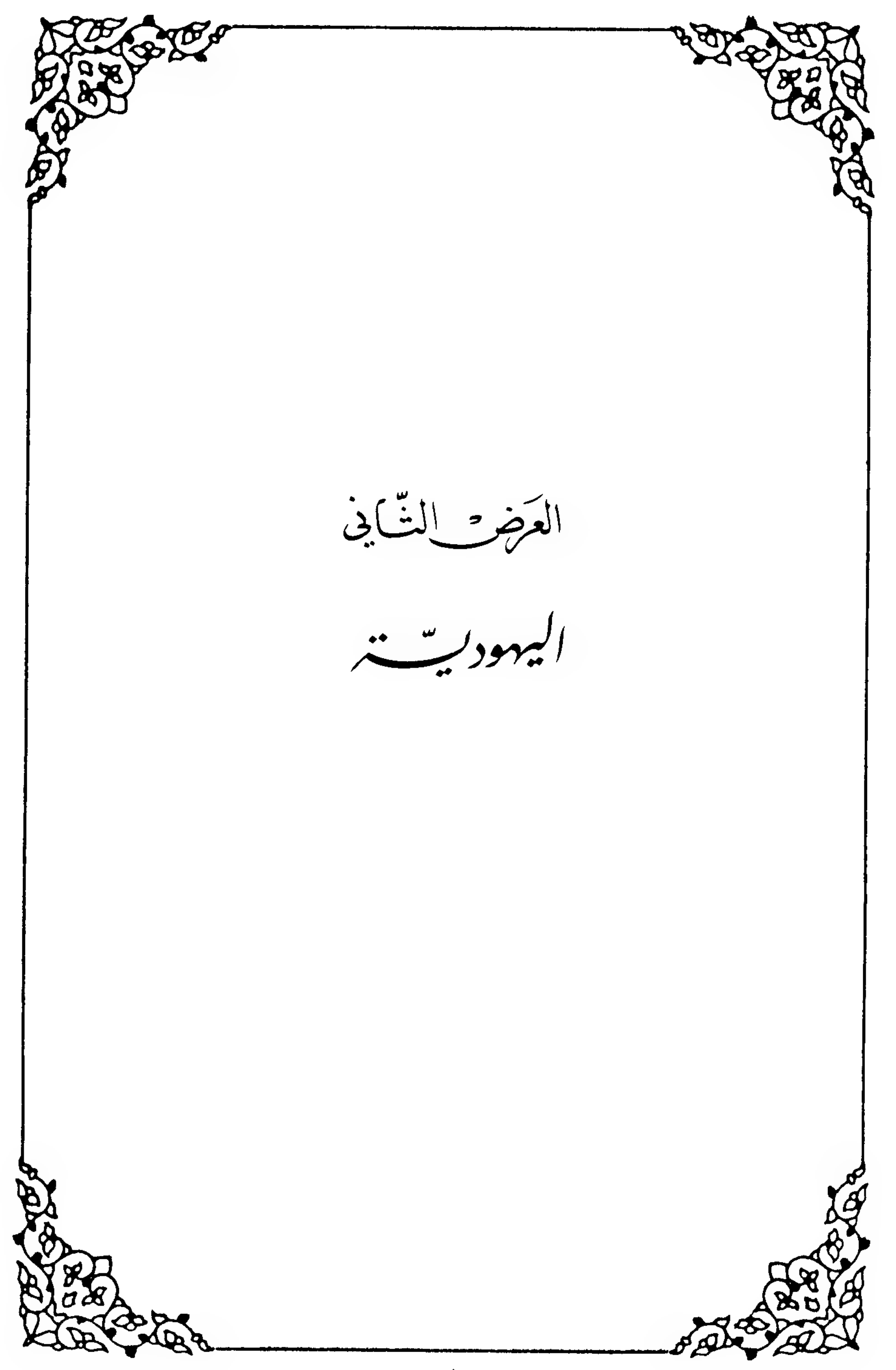
وفي إنجيل متى الإصحاح السادس عشر قال يسوع:

«الحق أقول لكم، إن من القيام ههنا قوماً لا يذوقون الموت حتى يروا ابن الإنسان آتياً في ملكوته».

وقال يسوع:

«ليس نبي بلا كرامة إلاَّ في وطنه وفي بيته، ولم يضع هناك قوات كثيرة لعدم إيمانهم».

وورد عن الرسول محمّد ﷺ: « لا كرامة لنبي في وطنه ».



العرض الثاني

اليهودية

اليهودية

قد يكون البحث في موضوع اليهودية، له وجه تاريخ عنصري، ينطوي وراء غيوم كثيفة من الابهام، غير الوجوه المعروفة في تـاريخ الشعـوب ـ الغرباء ـ أو الجانتايل، وله مشتقات وخصائص وعقائد ثيولـوجية ومثيولوجية تختلف وتنفرد في النوعية عن الذي هو معروف في عقائد الشعوب.

فـالتفرد العنصـري لهذا الشعب حمله على إسقـاط اعتبار تـاريخ الإسرائيليين الذين ذهب موسى لإخراجهم من مصر، وما خرجوا لأنهم كانوا في مأمن وفي معزل وحماية، وبُعدٍ في الفوارق بينهم وبين العبرانيين، وخرج العبـرانيـون مـع مـوسى «عبّـاد الـوثنيـة»، وتـرك عبـاد الله الصـالحين، فابتدأ تاريخ اليهود في حصره ضمن نطاق مفهوم جديد يتناول الوراثات والتقاليد والعقائد على أن تكون هي التاريخ، وهي الشرائع.

واليهود القدماء هم غيرهم اليوم، والإسرائيليون هم غير العبرانيين إذ أخذ العقل اليهودي بالتطور والنّمو تحت مؤثرات تدريب العقيدة، ونتج عن ذلك كله الاستمرار في إعادة النظر بالحياة اليهودية العنصرية والثيولـوجية والاجتماعية، فتركوا وأهملوا وأسقطوا وأبقوا القديم للقديم، وتوصلوا بهذا الإسقاط إلى تبديل وجه بعض التقاليد والوراثات، ووضعوا عليه ألواناً من المبالغة والغلو والأساطير والروايات وتمسكوابهذا الغلو بقاعدة «مبدئية» أن يكون الدين هو التوراة، وأن تكون التوراة هي الدين، على أنهم نظروا أيضاً أو أعادوا النظر في ثيولوجية التناسل الموجودة في الكتاب المقدس: «التناسل

على عدد رمال البحر ونجوم السماء» فأهملوا ما فيها من الغلو لأن الذي فيها لا يقبله العقل الحديث، بل لأن هذه المبالغة العنصرية قد يبطل معها مبدأ الادعاء العنصري المتفوق، ولا تتفق مع توجيه المعتقد اليهودي الجديد. . .

أما النظرة إلى نقاوة العنصر وتطهيره من الاختلاط بالغرباء ـ الجانتايل ـ فقد كانت ظاهرة في ملاحظة أن الطهارة الشعبية اليهودية غير مستحيلة في وجود بيئة وإحاطة الغرباء، وخصوصاً أن الاختلاط الكنعاني الوثني ـ الإسرائيلي العبراني الموحّد ـ لقّح دماء اليهود من ذي قبل أو مزجها بالزواج بدماء الكنعانيين والفينيقيين والمصريين وغيرهم، فاليهودي في العنصرية هو غير يهودي سليم من الاختلاط الغيري في معنى الانتساب اليهودي، بل هو مجموعة قبائل وشعوب وعروق وجذور شرقية وغربية، ومن أجل ذلك فتح اليهود باب التمذهب باليهودية بعد أن كان مغلقاً، وأطلقوا على الذي يدخل باختيار في اليهودية اسم المهتدي ـ Proselyte ـ كما كان الالتحاق في الإسرائيلية، وذلك في إضافة ابن إبراهيم أو أبناء إبراهيم.

وكان الاعتقاد عميقاً من ذي قبل أن إبراهيم الخليل هو أبو اليهود، وأن زوجته سارة الحسناء هي أم اليهود، إلَّا في إسقاط بعض الاعتبارات الوراثية القديمة، قرروا بل فضّلوا أن تكون «راشيل» زوجة يعقوب ـ إسرائيل ـ وأم يوسف الذي كان عزيزاً في مصر هي أم إسرائيل.

أما المعتقدات الثيولوجية من أصول وفروع، فقد جعلوها طريقة حياة، وحياة في طريقة ضمن نطاق المصلحة اليهودية العامة، على أن تقوم على التصرف بالأفعال والفكر والعمل الجديد في مبدئية الشعب المستقل بالعنصر، المستقل بالألوهية، المستقل في الأرض، وعمَّن في الأرض، وفوق ما على الأرض جميعاً. . .

لم يكن الشرع الإسرائيلي وشرف التفضيل على العالمين، ورفع المكانة العنصرية في إعطاء اللقب الإلّهي، شعب الله المختار، ووراثة الأرض، وأن الله في وجوده هو وجود يهودي لأنه إلّه اليهود بالذي أعطاه من مميزات عنصرية تجعله حقاً أن يكون إلّهاً لليهود ولا لغيرهم، فالاختلاط

العنصري، وكثرة التقاليد التي تحولت فيما بعد إلى تشريع، يدلنا دلالة صحيحة أن ادّعاءات الاختيار ووراثة الأرض، والتفضيل كانت قبل موسى، وكانت مختصة في أبناء يعقوب ـ إسرائيل ـ ومن لحقهم بالذرية من القبائل، فلهؤلاء وحدهم أعطى الرب ما أعطى وفضّل ما فضّل، واختار ما اختار، فلما ذهبت رياحهم مع الموت ماتت معهم تلك الألقاب الإلّهية التي كانت، لزمن مضى، سبباً لنزول الويلات الشعبية باليهود، وأوجدت لهم صعوبات اجتماعية في مجتمع الجانتايل، وفي الحياة مع حياتهم مع الآخرين.

فاليهودية قسمان، قسم قديم، كما عبر في هذا العرض، قسم أكله الزمن أو انحلّ في التاريخ، واهترأت صور التفضيل والاختيار والوراثة كأوراق الخريف المنحلة في التراب، وقسم جديد في قديم أو يقال فيه وراثة القديم، وهذا التحق التحاقاً باليهودية واعتنق المبادىء والقواعد الثيولوجية فصار يهودياً بغير انتساب إلى ذرية إسرائيل وآمن بالتوراة، ورجع إليها وأدخل عليها بعض التعديل، تعديل للمصلحة، على الواجبات الشرعية والحلال والحرام، والطهارة والنجاسة ومحظورات يوم السبت، وكان أكثر ما احتوى عليه هذا التعديل، يقوم على الاجتهاد الشخصي، اجتهاد الأحبار والربانيين والكهنوت الأعلى، فهذا القسم من اليهودية الجديدة لا علاقة له في نسب وشرف الرجوع إلى إبراهيم، أو «سارة» زوجة إبراهيم، أو إلى «راشيل» زوجة يعقوب أم يوسف عزيز مصر، ولا حق له ـ كما يعتقد المفكرون الأرثوذكس ـ في ادعاء ملكية الأرض، وفي التفضيل، والتفاخر في شرف الاختيار، وأن إلّه الوجود هو إلّه إسرائيل ـ أو إلّه اليهود ـ لأن هذه الضمانات الإلّهية التي يعمل بها في الاعتقاد حتى اليوم مضت وذهبت مع رياح الأحقاب... واليهود في جميع أنحاء الأرض، هم شعب خليط بالعنصرية، قوي بالشعور بها، خليط في العقائد والمذاهب والنظريات التشريعية كبقية الشعوب ومتمسك بشدة بهذه الأحوال...

والذي جعل اليهودية تنقبض على ذات تقاليدها، وتقاليدها طريقة حياة وتحتفظ بالذي عندها من وراثات، وخاصة في قضية الإلّه وتفضيل الإلّه وإعطاء الإلّه هو الانفصال المسيحي عن اليهودية، ومحاولة المسيحية أن

تأخذ بعض ما جاء في شريعة موسى في إلغاء العهد القديم لأنه قديم، وأن تدعو إلى القضاء على محظورات السبت والمحرمات الأبدية وقواعد الصوم والصلاة، وإباحة المحرمات التي وجدت المسيحية فيها وفي ممارستها تضييقاً على العقيدة والإيمان، كل ذلك وما له من ملحقات ومشتقات، أيقظ اليهودية على «صوت الخطر» صوت الجماهير الإسرائيلية، وهي كانت في الواقع ثورة لا صوت، ووضعتها أمام واقع غريب، واقع انفصال عن الأصل، وقضاء على الأصل في الفصل والانفصال، ونتج عن هذه النظرة إلى هذا الواقع الخطير، أن الكهنوت اليهودي الأعلى وقف أمام مفاجأة غير منتظرة، تنطوي فيها الحيرة والدهشة والاستغراب، بصورة جعلت هذا الكهنوت يقف في جمود فكري، لا يعرف معه ـ في البدء ـ كيف يتصرف وماذا يفعل في مواجهة هذه الثورة الخطيرة التي رأى فيها محاولات تلامذة يسوع، ظاهرة وبارزة في العزم والهدف للقضاء على اليهودية.

وكانت هذه الثورة تنمو وتشتد وتمتد بقيادة الفيلسوف اليهودي الكبير بولس الطرطوسي الذي أطلق عليه فيما بعد لخدماته الرائعة للمسيحية، بولس الرسول وكان اسمه «شاول» وهو ركّز المسيحية على أمتن قواعد الإيمان والتصديق ـ وسيأتي ذكره في العرض الثالث عن المسيحية ـ بعد أن أنزل العقاب والضربات الأليمة والقتل والتعذيب والتشريد ـ قبل أن صار مسيحياً ـ في أتباع السيد المسيح الذين قاموا في ثورة الانفصال يوم كان يهودياً ثم صار ـ لأسباب شخصية ـ مسيحياً. . .

والواقع أن البحث في اليهودية، بحث صعب لا تستقيم الخطوط المعاكسة مع تشعب معتقدات اليهودية، ولا تُدرك معه أهداف الرمزية في هذه المعتقدات، بل تختلف فيه الأطراف للتوراة، والمواضيع التشريعية، في اختلاف بعض الوراثات والتقاليد التي يعتمد عليها البعض من اليهود أكثر من اعتمادهم على التوراة، إلاَّ أن يكون الفعل يرجع عند الشك فيه، إلى التوراة. .

وليس من الهيّن على الباحث مع وجود الانبعاث العقائدي وكثرة الآراء والنَّظريات في عهد الهجرة والأسر في بابل، ومع وجود يهودية جديدة يقودها

المهتدون Passtytes أو المقتفون لمذهب اليهودية، أن يكشف عن الطاقات والمضمرات والأسرار الثيولوجية في حقيقة وجود اليهودية، أهي للإلّه وعبادة الإلّه أو هي للمهتدين الذين صاروا يهوداً بهذا الاهتداء والذين حصروا كل شيء بما فيه الشرع والعقائد والتقاليد والدين في نطاق العنصرية اليهودية ـ واليهودي المثقف وغير المثقف يعرف اليهودية من نافذة العنصرية التي هي الدين وإن تسأله ما هو الدين هزّ الرأس بجهالة الدين، وهي الشرع، وهي العقيدة وإن تسألة عن العقيدة قال: هي طريقة حياته في كل يوم وما يأتي بعد اليوم . . .

ولقد وضعت اليهودية الجديدة سياجاً من الانعزال حول الأتباع، له خيال وظلال، ورسمت للمعتقد حدوداً جديدة في الابتعـاد عن الغربـاء الجانتايل، لأن في نفوسهم نجاسة وفي النجاسة معنى الكفر، لكي تنجو من الخطر المسيحي أو غير مسيحي، ولئلا تتكرر أفعال الثورة المسيحية الأولى، وقد شاهدت اليهودية ذيولاً من هذه الثورة في الذي حصل لها ووقع عليها من تعذيب وتشريد وظلم وإكراه على اعتناق المسيحية في أوروبا وأسبانيا قبل الفتح العربي الإسلامي.

والذي يبدو من متابعة تركيز وتدعيم هذا «الحائط الفولاذي» بينهم وبين الغرباء، الجانتايل، وهذه الكلمة تطلق على جميع الشعوب التي هي غير يهودية، هو الضغط والاعتداء المتتـابع على اليهـود، فكان لا بـد لهم ـ باعتقادهم ـ أن يلجأوا إلى هذا التبرير القاسي دفاعاً عن النفس، وإن كان ذلك يعرضهم للانتقاد والنقمة والكراهية في بعض الأحيان، حتى تكون حماية الأحوال الاجتماعية والدينية والعنصرية في مأمن من الخطر ـ خطر الجانتايل ـ الذي وقع في حدوث التجربة القاسية في الانفصال المسيحي الأول، وهو الذي حدا بهم أن يرجعوا إلى ضغط الضرورات إلى تاريخ الإسرائيليين القدماء، وإلى الذي ذهب مع هذا التاريخ من وراثات وتقاليد لإحياء الدعوة الإلّهية الأولى، وبذلك تمكنوا أن يولدوا من جديد ويولد معهم التفاخر في أنهم هم شعب الله المختار، وهم المفضلون على الناس جميعاً باعتراف الكتب الثلاثة التوراة والإنجيل والقرآن، وهم أهل الدين وأهل العلم، وأهل

الحضارة والمادة، والله لهم ومنهم والوجود منهم ولهم، أما البقية من الأحياء فهم كبقية الهوام والحشرات والدواب يعيشون ولا يدرون لماذا يعيشون؟.

وإني لا أجد لوماً أو لائمة على هؤلاء القوم التي تأتي في حقدٍ وغيرةٍ من الغرباء ـ الجانتايل ـ إذا هم أعرضوا ونقموا، لأن الجانتايل في ممارستهم ومتابعتهم في الضغط الاجتماعي، وضغط التمايز العنصري في أوروبا في تحقير الجنس السامي أو السامية أجبروهم على الهروب إلى الأحقاب القديمة لنبش قبور التاريخ، وأجبروهم على اقتحام عقبات المخاطر في الابتعاد عن كل غريب، وأن ينظروا إليه أنه إنسان ميت وخبيث ولئيم ونجس. . .

ولا أجد خجالة في الاعتراف أن اليهود لهم فضل على العلم والمجتمع، وهم في الواقع أصحاب اختصاص، وأهل ثقافة رفيعة في الفلسفة والطب، والاختراع والمكتشفات العلمية، فلقد ألفوا وكتبوا وجرّبوا ووضعوا وأجادوا في التجربة والتأليف والوضع، يضاف إلى ذلك حضارة ثلاث آلاف سنة، جعلتهم في هذا المستوى الحضاري الرفيع، وفي طليعة الشعوب في الانتاج الفكري والمادي.

واليهودية عامل ثابت مستقيم، واليهودي هو تاجر ماهر، يحترف الأساليب للعرض والطلب، واليهودي هو كلمة فارغة لها أصداء تحقير وتذليل في مفهوم الغرباء ـ الجانتايل ـ ولكن واقع هذه الكلمة هو وحدة في طاقة وطاقة في وحدة.

بقي الاضطهاد ـ اضطهاد اليهود ـ ينتقل بالوراثة إلى الأجيال في أوروبا، وظلَّ اليهود يواجهون الضربات العنصرية الأليمة القاسية، إلى أوائل الفتح الإسلامي لأسبانيا في القرن السادس، ولا أقول الفتح العربي لأن الفتوحات كانت باسم الإسلام، وباسم الإسلام حكم الحاكمون في أسبانيا من العرب، ورأوا وسمعوا شكوى وظلامة الجاليات اليهودية من الضغط والتمايز العنصري الأوروبي، فأطلقوا لهم ـ كما هي طبيعة الإسلام ـ حرية العبادة والاجتماع، ورفعوا عنهم المظالم، وشجعوهم على بناء المعابد والمدارس، فعاشوا في الظل الإسلامي عيشة هناء وأمن وسلام ومساواة، بعد

أن تعرضوا في أوروبا ـ أكثر من مرة ومرة ـ لحكم الإعدام والاعتداء على الأعراض، واغتصاب الأملاك، ووجد العرب المسلمون بهؤلاء اليهود، خبرة وثقافة وفناً فعهدوا إليهم في إدارة أحسن مراكز الدولة ـ الداخلية والخارجية ـ ولقد ملأوا هذه المراكز إدارة وسياسة وكياسة . . .

إبراهيم ـ والأبوة الثلاثية:

وما كان إبراهيم الخليل ـ خليل الله ـ في أبوّته الثلاثية، أب اليهود والنصارى والمسلمين، ذا قيمة ثيولوجية أو عنصرية عند الأقدمين من العبرانيين، لأن موسى، كليم الله، يأتي في المرتبة الثانية بالتقدير والتقييم العقائدي، بعد الإِلّه، بل هو ثاني الإِلّه، وليس له ثالث، إلَّا أنهم مع عقيدة إسقاط التاريخ اليهودي القديم، يرجعون إلى إبراهيم في قضية الاختيار ووراثة الأرض، والتفضيل العنصري، فمنذ خروجه من مدينة «أور» وأرض بابل وتجوله وترحاله في أرض فلسطين، وفي المدائن وهجرته إلى مصر، كان قبل النبوة في حالة ضيق وعسر وفقر، فلم يُعرف في أشور، ولم يُعرف اسمه في المدائن، ولا اشتهر في مصر، ولا شعر بوجوده الوثنيون قبل الاختيار للرسالة الإِلّهية التي وصلت إليه، وقد بلغ من العمر عتياً ومن الهرم سناً وعجزاً، وكان قبل هذا الاختيار في حالة تساؤل وحيرة عن وجود الإِلّه مدفوعاً للمعرفة بعوامل الشك، ونظر إلى الكواكب والشمس والقمر والنجوم فقال هذا ربي، فلما غابت أو أفلت بحكم نظام الدورة الطبيعية للأرض، أو بحكم النظام الفلكي قال في حدّة وأسف «إني لا أحب الآفلين».

ولكنَّه بعد أن عرف الله وعهد الله إليه بالنبوّة، أعلن ثورته على الوثنية في تحطيم الأصنام والأوثان الرابضة فوق الهياكل كما جاء في الكتاب المقدس والقرآن الكريم الذي أشار إلى هذه القضية بكل وضوح:

﴿ وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا۟ مُدْبِرِينَ ﴿٥٧﴾ فَجَعَلَهُمْ جُذَٰذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ﴿٥٨﴾ قَالُوا۟ مَن فَعَلَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٩﴾ قَالُوا۟ سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٠﴾ قَالُوا۟ فَأْتُوا۟ بِهِۦ عَلَىٰٓ أَعْيُنِ

ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ﴿٦١﴾ قَالُوٓاْ ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٢﴾ قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُواْ يَنطِقُونَ ﴿٦٣﴾ فَرَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوٓاْ إِنَّكُمْ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٦٤﴾ ثُمَّ نُكِسُواْ عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴿٦٦﴾ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ قَالُواْ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓاْ ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿٦٨﴾ قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ وَأَرَادُواْ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ ﴾ (سورة الأنبياء/٥٧ ـ ٧٠).

والذي حصل في الاعتقاد الوراثي بوراثة الأرض لذريته التي ستكون بالتناسل على عدد رمال البحر ونجوم السماء، حينما قطع الرب عهداً ويميناً برفع اليد بهذه الوراثة وهذا الاختيار والتفضيل العنصري، كما جاء في التوراة والإنجيل من روايات ونصوص متناقضة حول هذا الموضوع، يهدف في التقدير أن ما طرأ على هذين الكتابين من تعديل في ذهاب الأحقاب، لم يكن في نية الخليل ـ لو رجع الرأي إلى الخليل ـ أن يشمل هذا العهد والعطاء جميع الشعوب في أوروبا ومقاطعات الشرق البعيد التي كانت لم تولد بعد، والذين كانوا بولادتهم الطبيعية من طينة أو تربة غير طينة وتربة العنصرية اليهودية، ويظهر من مضمون ما جاء في الكتاب المقدس أن التفضيل ووراثة الأرض والاختيار، كان موقوفاً أو محصوراً في أبناء يعقوب ـ إسرائيل ـ وذريته من القبائل الإسرائيلية ذات التقى والورع والصلاح، الذين ماتوا ـ كما سبق ـ وماتت معهم وثائق الوراثة، ودفن العهد في قسم الإلّه واليد التي رفعها في مطاوي الزمن، حتى أصبح في العرف العقائدي الحديث، عبارة عن أصداء في أصداء الأيام والأساطير والخرافات.

والأرض ووراثة الأرض إذا كانت حصلت فعلاً ـ ولا داعي لعدم التصديق ـ فإنها جاءت بمعنى الوراثة الصالحة للعباد الصالحين، كما ورد في القرآن الكريم ﴿أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ ٱلصَّٰلِحُونَ﴾ (الأنبياء/١٠٥).

وتعني الوراثة بهذه الآية، وراثة عمل في عبادة، وعبادة في عمل، فيمكن أن يكون الوارث يهودياً، أو نصرانياً أو مسلماً إذا كان من العباد

الصالحين، وحكاية أو رواية التاريخ اليهودي الثيولوجي في الكتاب المقدس عن إبراهيم وأحوال إبراهيم التي تثبت وتؤكد أخبار الوراثة ـ وراثة الأرض ـ مع أن هذه الوراثة لم تكن واردة في عقيدة هذا النبي العظيم، لأنها كانت بعيدة عن إمكانية التنفيذ والتحقيق، ومستحيلة من أن تكون صادرة عن الإلّه، وعدالة الإلّه، ولقد قصّ الإنجيل للأتباع رواية عن إبراهيم، أنه أحسّ أن الموت ينتظره وراء الخيام، وقد بلغ المرحلة الحاسمة في نهاية العمر، ذهب إلى صوحر بن حث الذي كان يقيم بجواره، ورغب إليه في شراء مغارة على طرف حقل رحيب ليكون له ولزوجته «سارة» قبراً أو جدثاً، واعتذر ابن حث في أن قطعة الأرض هي تابعة لـ «اليعازر الدمشقي» وجرى في المقابلة اتفاق وتبادل بين إبراهيم والدمشقي كانت نهاية ونهاية هذا النبي العظيم وزوجته سارة في أنهما دفنا بالرحمة والبركة في تلك المغارة المقدسة التي دفع ثمنها عنزاً ونعاجاً.

وإبراهيم الخليل ما حاول يوماً أن تكون دعوته إلى الله تهدف إلى إيذاء الآخرين بالشعور العقائدي، لأن الرسالة ـ رسالة الأنبياء ـ تبتدىء بالعدالة وتنتهي بالعدل بين الناس، والحروب التي قامت بينه وبين الوثنيين، كما ورد في الكتاب المقدس، كان الوثنيون أجبروه على مجابهة هذه الحرب للدفاع عن النفس، ولم يدّعِ يوماً أو ليلةً أنه مفضل على أحد في التشريف الإلّهي، لأن الناس، كل الناس، جاؤوا بعقيدته من نفسٍ واحدة، وهذا تدبير إلّهي، ولم يحاول أن يدّعي بوراثة الأرض، لأن في الأرض وملكية الأرض تنطوي المشاكل في النزاع والخصومة والعداء، ولو كان ذلك وارداً في ذهنه الإنساني، لمّا أقدم على شراء مغارة الدمشقي، وما قال في ليله أو نهاره إنه من الشعب المختار، فقد اختار الرسالة التي كانت موضوع حياته، وكانت في حياته أقدس من حياته وأرفع وأفضل من ذلك الاختيار، وما دار في خلده زمناً أو دهراً أن تطير هذه العقيدة بأجنحة ذهبية إلى أوروبا والمقاطعات النائية، لتنقل معها ورقة البيع أو البراءة في التفضيل ووراثة الأرض والاختيار العنصري أي إعطاؤها إلى اليهود في أنحاء أوروبا والشرق.

وكان بإمكان الخليل، أن يدّعي كما ادّعى أتباع المسيح، أنه رُفع إلى

السماء، وأن الله كلّمه وكرّمه، وأنه أحيى الموتى، لكنه في مثل هذا الادّعاء قد يضمر شر الخرافة والأسطورة، وهذا لا ينبغي لنبي نزيه عظيم عادل.

وجاء في التوراة ما جاء في القرآن، غير أنَّ القرآن عبّر عن هذه الحادثة بواقعها:

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦٠﴾﴾ (سورة البقرة/ ٢٦٠).

على أننا في الرجوع إلى كلمة الجانتايل، الغرباء نجد أن التعارض في الكتاب المقدس يختلف بارجاع المصدر في التسمية التي أضيف إليها شرط النجاسة، فقد جاء في العهد القديم، سفر التكوين، الإصحاح الثالث والأربعون، عن يوسف يوم كان عزيزاً لمصر: «وغسل وجهه عندما اجتمع بأخوته الاثني عشر، وخرج وتجلد، وقال قدموا طعاماً فقدموا له وحده ولهم وحدهم وللمصريين الآكلين عندهم وحدهم لأن المصريين لا يقدرون أن يأكلوا طعاماً مع العبرانيين لأنهم رجس عند المصريين».

واليهود الحديثون أو المتجددون يزعمون أن العبرانيين والإسرائيليين هم شعبٌ واحد، وهم في الواقع شعبان مختلفان في النشأة والعقيدة، إذ ثبت بالأبحاث التاريخية أن الإسرائيليين هم غير العبرانيين وأبناء إبراهيم الخليل إسحق ويعقوب وإسماعيل هم من إبراهيم، وإبراهيم هو من بابل، ويرجع بالعروق والجذور إلى جده نوح ومن نوح إلى آدم، فالتفضيل ووراثة الأرض والاختيار ـ كما مرّ ـ فهو للإسرائيليين أبناء يعقوب الذين اختارهم الله لتقواهم وصلاحهم وفضّلهم على العالمين، أما العبرانيون الذين أخرجهم موسى من مصر ـ ويؤكد علماء التاريخ أن الإسرائيليين بقوا في مصر ولم يخرجوا مع موسى ـ وهم ـ أي العبرانيون ـ الذين عادوا إلى الوثنية يوم صعد موسى إلى الجبل ورجع حاملاً معه لوحي الشهادة «لوحان هما من صنعة الله والكتابة كتابة الله منقوشة على اللوحين» سفر الخروج الإصحاح الثاني

والثلاثون، وقد رأى موسى المعصية الكبرى تظهر في عيونهم وفي قلوبهم عندما خرجوا على طاعة أخيه هارون يوم صنعوا «العجل الذهبي» وعبدوه وسجدوا له، وظنَّ موسى عند رجوعه إلى الجبل وقد استقبله «يشوع»، فقال موسى: «صوت غناء أنا سامع» وكان ظنه قد تحقق في يقين عندما اقترب من «المحلة»، وأبصر العجل وسمع الرقص والغناء في شكل العبادة والعودة إلى الوثنية.

والعبرانيون كانوا خلطاء العنصر، في بطونهم جوع بلا شبع، وفي قلوبهم أساطير وخرافات بدون إيمان، وفي عقولهم، وقد حشوا هذه العقول بالعقائد المزيفة، فما هم من الإسرائيليين، ولا الإسرائيليون هم منهم.

وهذه القبائل العبرانية كما ورد ذكرها في التاريخ الثيولوجي كانت عندما هاجرت إلى مصر طلباً للرزق حملت معها عقائد الوثنية ووراثة عبادة الأصنام، وشاركت الكنعانيين في عبادة الإلّه يهواه، كما دلّت الحفريات الجيولوجية سنة ١٩٣١ وذلك في وجود آثار كنعانية في فلسطين، وفي وجود قطع من الخزف كتب عليها اسم معبود كنعاني «ياهو أو ياه» كما وأن وثناً آخر وهو سيّد الأوثان، كان يعبده الكنعانيون واسمه «إيل» وإليه كانوا يتوسلون ويتضرعون تعبداً بهذه الكلمات وهي كلمات رائعة ينطوي فيها معنى الوحدانية:

«أب الإنسان اللطيف، الرحمن الخالق، خالق كل شيء» وهذا يدل - مكرراً - أن مبدأ الوحدانية كان معروفاً عند الكنعانيين الأقدمين كما كان معروفاً عند المصريين، وكان ما كان في عقيدتهم الوثنية أنهم يتصلون بهذا الإلّه بتلاوة الصلاة والدعاء وتضحية أو نحر الحيوانات، أو بالعرافة والتنجيم، وقد سبق في عرض الأنبياء أن عيسى ابن مريم، أي يسوع، قال وهو على أعواد الصليب كما قالت المسيحية وكما جاء في العهد الجديد «إيلي إيلي لماذا تركتني» وفَسّر المسيحيون كلمة إيلي أي إلّهي لماذا تركتني؟..

موسى والخروج من مصر...

خرج موسى من مصر، بعد أن قتل نفساً زكية بالأمس من أيامه، خائفاً مذعوراً يترقب، وقد كان في هذا الخروج يختبىء في الأودية ومغاور الجبل نهاراً، حتى إذا جنَّ الليل كان يقطع المسافات الملأى بالمخاطر الطبيعية إلى أن وصل إلى المدائن، وكان من زواجه من ابنة الكاهن يثرون ـ شعيب النبي ـ ما كان، ويتساءل نقاد الكتاب المقدس مع هذه القصة وغيرها من هو موسى؟

وكان من نتيجة رأيهم أن قصة موسى كموسى «شخصية خرافية» في العادات القومية كما تأتي شخصيات الدراما أو الحكاية أو الأسطورة ويظنون في شيء من التأكيد أن وجود شخصية موسى في الكتاب المقدس، هو وجود ثيولوجي كتب سيرته الربانيون والأحبار إعادة وتدعيماً وبعثاً لأمجاد العبرانيين.

ويذهب نقاد الإنجيل الذين هم من علماء النصارى، أن الإنجيل لم يكن له علاقة أو صلة بالسيد المسيح من حيث الوضع والإنشاء، لأنه لم يترك له حكام روما والكهنوت اليهودي فرصة ليكتب إنجيلاً أو يملي قولاً، ولم تمهله الأيام الصعبة وقضاء الملاحقة ليكون له كتاب ترجع إليه النصرانية، ولكن الأتباع كتبوا ما كتبوا من الإنجيل بعد مرور أربعمائة سنة على وفاة المسيح أو صعوده إلى السماء بعد أن أخذوا ما أخذوا ونقلوا ما نقلوا عن التوراة أو العهد القديم، ولقد تمادى هؤلاء بعد هذا الأخذ والنقل في تفسير الحوادث على قاعدة الافتراض المنطقي الذي يعطي صورة عن السيد المسيح، غير الصورة التي كان يُعرف بها في أيام الرومان، ومن هؤلاء العلماء كارليل الإنكليزي وسميث ومارسيون في تقدير أنه إذا كان موسى ذا شخصية صحيحة في التاريخ، فإن نشأته في مصر وحضانته كطفل في البيت الفرعوني، وتعهده وتوجيهه وتثقيفه كشاب، حملت به على أن يكون من المعتقدين بالهنوثنية (The Henotheism) أي الوحدانية المشبوه بها، ويعنون في ذلك عبادة إله واحد، مع الاعتراف بآلهة الآخرين، ومنها آلهة الوثنية ـ دون التنكر لها أو التهجم عليها، وهذا المأخذ الذي يأتي بمعناه كشبيه

بالعلمي، يرفضه الكتاب المقدس في عهديه القديم والجديد كما يرفضه القرآن عند المسلمين. . .

وما ينبغي ـ وقد كثر الشك والظن حول قصة موسى ـ أن نلتفت بالتقدير إلى ما يُظن في الشك، أو يُشك في الظن، فقد أثبت العهدان القديم والجديد، وأثبت القرآن أعمال موسى للوحدانية الواحدة، أو الدعوة إلى عبادة الإلّه الواحد الأحد، دون أن يكون هناك اعتراف أو تفكير أو موافقة على أي معبود، شجراً كان أم حجراً، نجماً أم قمراً. . .

والذي جاء في القرآن الكريم بأحداث ما حدث يزيد موسى شرفاً ورفعةً بالإخلاص لله، ويجعله مقرباً بالإيمان العميق إليه أكثر من بقية الأنبياء الذين سبقوه في ماضي الأحقاب، وقد أطلق عليه القرآن ﴿ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمٗا﴾ (النساء/ ١٦٤) ويقولون إن أليسع Elija كان أقوى بالقداسة والمكانة عند الإلّه أكثر من موسى، وذلك عن بعض الإسرائيليين الذين كانوا يرجعون بعقيدتهم إلى إبراهيم الخليل، واليهود كافة يقدّمون أليسع بأفضلية الاعتقاد على موسى، لأنه كان ذا روحية وشخصية لم تكن متوفرة في ذات ابن عمران، والواقع أن هذا الاعتقاد جاء مع عقائد الأيام في عقائد العبرانيين الذين جعلوا «أليسع» ثاني الإلّه، قبل موسى، في المنزلة والرتبة والمكانة.

وكلّما مرّ ذكر إبراهيم في الكتاب المقدس، نجد أن هذا الذكر يحاط بسياج العنصرية اليهودية في العهد والوعد والوراثة والتفضيل والاختيار، أي التفضيل على العالمين، وكلمة العالمين تأتي بمعنى الزمن يوم كان زمان الإسرائيليين، فمضى الزمان ومضت هذه الأثرة الإلهية التي كان يُعمل بها في مرحلة من التاريخ، وزالت بل انمحت هذه المرحلة. . .

وكلما جاء ذكر موسى في التوراة أو العهد القديم، يذكر الأتباع أن موسى جاء من العبرانيين ومن أجل العبرانيين، والعبرانيون احتكروا جهاد موسى وأعماله وحولوها في الفائدة والمصلحة والانتفاع الشخصي إلى مجرى الاحتفاظ بالعنصرية دون الالتفات في البدء إلى موضوع الدين، والذي حصل لموسى في رجوعه إلى مصر ماراً في الواد المقدس كما وردت السيرة

في التوراة والإنجيل والقرآن أن الله كلمه في شكل نور ونار كانت تنبعث أو تفيض من العليقة أو الشجرة كما ورد في القرآن:

﴿وَهَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ۝٩ إِذْ رَءَا نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدًى ۝١٠ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ يَـٰمُوسَىٰٓ ۝١١ إِنِّىٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخْلَعْ نَعْلَيْكَ ۖ إِنَّكَ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ۝١٢ وَأَنَا ٱخْتَرْتُكَ فَٱسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰٓ﴾ (سورة طه /٩ ـ ١٣).

وهذه القصة تأتي في العهد القديم، سفر الخروج الإصحاح الثالث:

«وأما موسى فكان قبل ذلك يرعى أغنام يثرون حَميّه كاهن مديان فساق الغنم إلى وراء البرية وجاء إلى جبل حوريب وظهر له ملاك الرب بلهب من نار من وسط علّيقة وإذا العليقة تتـوقد بالنار والعليقة لم تكن تحترق فقال موسى أميل الآن لأنظر هذا المنظر العظيم لماذا لا تحترق العليقة؟ فلما رأى الرب أنه مال لينظر ناداه الله من وسط العليقة وقال موسى: ها أنا ذا فقال لا تقترب إلى ههنا اخلع حذاءك من رجليك لأن الموضع الذي أنت واقف عليه أرض مقدسة»... فالوحي والتكليم أو المكالمة والحديث مع الإلّه والنظر إلى وجه الإلّه،والنار في البرية والنار التي اشتعلت في سيرة إبراهيم الخليل، تكاد تكون واحدة في الهدف الثيولوجي الذي يتعارض ويختلف بين كتاب وآخر في النص والأسلوب، فموسى على ما يظهر من التواء بعض الروايات، ما كلمه الله بالكلمة المعروفة التي تتداول بين الناس، بل كلمه بالوحي النفسي والعقلي، والنظر إلى وجه الله، هو تفاعل الصور الناتجة عن الإغراق في العبادة ـ كعبادة الصوفية الإسلامية مثلاً ـ وكأن العابد المتصوف يرى في المخيلة الهائمة ذات الخيال والأشباح والألوان الفكرية أنه رأى الله وجهاً لوجه، والنار في العرف الاجتماعي وفي هذا الموضوع قد تكون أحياناً، فتنة، وقيل إن الفتنة أشد من القتل، وأسباب القتل كثيرة، منها أن عمل الإنسان الذي يوقد النار بطريقة غير مباشرة، والبرد والسلام الإلّهي الذي أخمد نار الاحتراق أو الفتنة عن إبراهيم بن تارح بن نوح، وابن آدم أي إبراهيم الخليل، هو عناية ورعاية وحماية من الله، وهو تبرير ينبثق من الفكر

الثيولوجي الذي يعطي الإنسان في الإحاطة الوثنية، الشعور بالنجاة في أن في قلبه سلاماً وبرداً يرتاح إليه الجسم والعقل.

ومن الضرورة ألاَّ ننكر أن الموافقات الروائية التي جاءت في القرآن مع الكتاب المقدس بحدوث القصة أو الرواية، هي موافقات واقعة كما وقعت، ولكنها تظهر في الإنجيل بأسلوب غير أسلوب القرآن، أسلوب فيه بعض الركاكة والضعف في التعبير لأنه تُرجم عن عدة لغات، منها الآرامية والإغريقية واللاتينية، وفي التوراة والإنجيل من الحوادث والحادثات، التي ينقصها الاستقامة والتركيز كأنما كتبها أكثر من واحد، بفكر لا يتفق مع فكر آخر، لاختلاف المنهج والسياق والصيغة والأسلوب، أما القرآن فقد أضفى على أنواع الرواية نوراً من البلاغة السلسة، ومن الأسلوب السليم الرائع ما يحمل القارىء إلى الاطمئنان والقناعة والارتياح في أن الذي يقرأه هو صحيح في نقاء وصفاء.

وإذا كان في نية الاعتقاد عند أهل الكتاب - ومنهم المسلمون - الحط من كرامة دين آخر في الادعاء وفي الصحة وعدم الصحة، فالقرآن مع البيّنة الفصحى في توافق تلك الروايات هو حق لا يأتيه الباطل، وهذا يعني الاقناع والاقتناع في النفس اليهودية والنصرانية والإسلامية، ويهدف بوضوح أنه لا مناص من الإيمان في أن الدين هو واحد وأن الدين عند الله هو الإسلام.

فلماذا الابتعاد؟ وقد نطقت الروايات بغير ذلك!

ولماذا الخصومة؟ وقد قبح الإله جميع مصادر الخصومة!

في حين أن القرآن - وهذا يعني المسلمين - اعترف بالأنبياء واعترف بكتبهم المنزلة كمقدمات إسلامية لإكمال الدين - دين الإسلام - فمن الضرورة في وجود الأدب الإنساني والسماحة الدينية، ألاَّ ينظروا إلى أهل الكتاب بالذي ينظرون، فأهل الكتاب هم جزء من الإسلام - قبلوا أو رفضوا - والإسلام هو منهم، ومن يتهم بريئاً بالذي هو ليس فيه، فقد يجعل نفسه عرضة للتهمة بالمثل.

تابوت العهد:

ومن يقرأ سفر الخروج من العهد القديم، يطلع على أوصاف وأحوال تكاد تكون موضوعة وضعاً في التركيب المادي لتابوت العهد، فهو ـ كما ورد في الإنجيل ـ مصنوع من خشب الأبنوس، مرصّع بالفضة والذهب في تطريز فنّي، إلى آخر الأوصاف، في حين أن التاريخ يثبت أن موسى أخذ فكرة التابوت عن المصريين ـ يوم كان عزيزاً في ديارهم ـ أي «التابوت المقدس» الذي كان يعد لدفن الملوك والأمراء، وتاريخ المصريين كما هو معلوم ومفهوم، يسبق تاريخ موسى بالعدد الكثير من السنوات، ويؤكد علماء اليهود أن موسى قال للإسرائيليين أو العبرانيين إنه في تابوت العهد تحل روح الرب، ومحرم على الإسرائيليين أن يمسّوه أو أن يلمسوه إلّا أن يكون الناس كموسى في النبوّة، وأن يكون مثل موسى في القداسة والوجاهة عند الإلّه.

وإذا رجع الباحث إلى الذي ورد عن حياة أفلاطون الفيلسوف الإغريقي، يجد تقارباً وتجاوباً بين فلسفة اليهود الثيولوجية وفلسفة الإغريق في مبدأ التوحيد، إذ يوضح أفلاطون في فلسفته التجريبية أن الوجود هو النفس، والنفس مرتبطة في أعلى الوجود الذي يكون فيه الواحد أو الأول، وهو جوهر كامل يفيض بالنور، ومن هذا الفيض كان العقل وهو قريب منه أي من الواحد أو شبيه به، ومبدأ الوجود يفيض بالأحداث، وتلتقي هذه الأحداث في صورة أو شكل هي النفس، ومن فيض الأول كانت الكواكب والبشر، فمن هذه الفلسفة أو من الاتحاد عليها وعلى تفسيرها، تظهر حقيقة علمية تنطوي فيها معاني التوحيد والتثليث، واحد في شبه واحد، وواحد في ثلاثة.

والتوحيد ـ كما زعم علماء التاريخ ـ كانت مصر القديمة تعتقد به اعتقاداً راسخاً في النفوس والقلوب، ويظن البعض من نقاد التوراة أن موسى تأثر بهذا الاعتقاد، وخرج مع قومه من العبرانيين الذين كانوا على الوثنية، يحمل في قلبه ونفسه عقيدة التوحيد وفكرة التابوت المقدس في حلول تابوت العهد.

ويبالغ اليهود في تقديس تابوت العهد، كما يبالغ المسلمون في التبرك

من قبور الأولياء والأنبياء، الذي إذا كان فيه شيء فإنما يحتوي على نعلي موسى اللتين خلعهما في الواد المقدس ـ كما أشار إلى ذلك القرآن ـ ﴿**اخلع نعليك إنك في الواد المقدس طوى**﴾ وكان يحتوي أيضاً على عمامة هارون، وقفيز من المنّ والسلوى، ورخاص من الألواح، ويعتقدون أيضاً أنه في هذا التابوت كانت التوراة القديمة، وكلمة التوراة اشتقت من كلمة «تورة» العبرانية التي تعني وصية أو شريعة.

ولقد جاء في القرآن الكريم ذكر التابوت كما ورد في العهد القديم، إلاّ أن الرواية في القرآن، لا تشير إلى قداسة وبركة هذا التابوت بالمعنى الذي يفهمه أهل الكتاب، ففي سورة البقرة/٢٤٨: ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ءَايَةَ مُلْكِهِۦٓ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ ءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ هَٰرُونَ تَحْمِلُهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٤٨﴾﴾ . . . ويستدل من هذه الآية القرآنية، وما جاء فيها من أوصاف القداسة ترجع إلى ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ﴾ فالقول للنبي وليس القول للإلَه، والآيات التي تناولت حياة موسى وهي كثيرة الحوادث، إنما نزلت كموضوع أخلاقي يشير إلى ضرورة التشريع، أو كقضية زمنية، ردَّها القرآن إلى صورة من عصر وإلى عصر في صورة، وسواء كانت حدثت أو لم تحدث، فإن في كل حادثة ينطوي الفوات والعبور من الزمن، ولكل زمان ذهاب وإياب.

أما العهد فلم يكن جديداً في ظهوره بين الإسرائيليين بعد يعقوب، فكلمة العهد جاءت من اللغة الفينيقية القديمة، وكان العهد معروفاً في العصور القديمة التي سبقت آدم فقد كانوا يذبحون الحيوانات ويقطعونها إلى عدة قطع، ثم يمرُّ المتعاقدون بين هذه القطع، وبذلك تتم صيغة العهد أو الميثاق المقطوع أو التعاقد على شيء.

والعهود التي جاءت في الكتاب المقدس كثيرة منها:

- عهد مع آدم وأبناء آدم.
- عهد مع نوح.
- عهد مع إبراهيم.

ـ عهد مع موسى.
ـ عهد مع عيسى ابن مريم أو السيد المسيح. . .
ـ عهد مع الأنبياء كما ورد في القرآن الكريم. . .

وتنظر العقيدة المسيحية إلى العهد القديم أنه عبارة عن مواعيد لإبراهيم والفداء والتضحية في دم الحيوانات، وما يرافقه من شعائر الغسل والصوم والدعاء، وهو، في نظرتهم الثيولوجية، أصبح كاسمه قديماً، وهذا يعني أنه زال وتقطع وبطلت فيه المحتويات، وعندهم أن العهد الجديد الذي هو إنجيل النصارى، فهو بدء العهد الجديد ـ أو عهد جديد ـ تكامل وتم في قداسة دم السيد المسيح والإيمان بالله والاتحاد الثلاثي ـ أي التثليث.

ويصعب على الباحث مع هذه التناقضات أن يعرف النشأة اليهودية والنشأة الثيولوجية، وخاصة أن اليهود لم يعتنوا عناية خاصة بتاريخهم لأن الدين والعنصرية هي كل شيء عندهم وهذه لا تحتاج إلى تاريخ أو تحتاج إلى مؤرخ غريب يتتبع خطوات العبرانيين في الزمن الذين كانوا مزيجاً بالزواج من الكنعانيين ومن المصريين، وكانت لغتهم مختلطة من الفينيقية والآرامية لغة الكنعانيين، وأن يعطى الموضوع صوابه في الإيفاء في الرواية الصحيحة، لأن تطورات الشرائع اليهودية والمواريث والتقاليد التي تحولت فيما بعد إلى تشريع وقانون، ولأن تشعًّب فروع اليهودية ـ شرقية وغربية ـ في منعرجات تاريخية غير متلائمة، تضع الكاتب أمام صعوبات قاسية وتعقيد وجمود وانطلاق عنصري إلى أبعد حدود الحماية من الغرباء، ويعترف اليهود أن بعضاً من التقاليد ـ كما سبق ـ أصبحت شريعة بمرور الزمن، وهي تأتي في مصلحة حياة اليهود الجديدة المتطورة مع الأيام، والذي تعرفه عن اليهودية أنها ترجع بالافتراض التاريخي أو واقع التاريخ إلى جدّين متقاربين «سام» وإليه يرجع الجنس السامي، وترجع إليه إسرائيل القديمة، «وأيبهر» من ذرية آدم وإليه يرجع الجنس العبري أو العبراني، فاليهود في وضعهم الثيولوجي والاجتماعي هم في العصور القديمة ساميون إسرائيليون، فإن طابت لهم طعمة الانتساب إلى التاريخي قالوا إنهم «عبرانيون» وإذا راق لهم ألَّا ينتسبوا إلى حام أو سام أو أيبهر قالوا نحن أبناء إسرائيل، وإسرائيل من آدم.

ومن الطبيعي أن تواجه اليهودية بهذا الاعتقاد، صعوبة في وجود الاختلافات العنصرية والأساطير، وتواجه بعداً وتفاوتاً في العقيدة، فالشريعة أو الاشتراع الذي جاء موسى يحمله بالألواح إلى قومه ـ أي الوصايا العشر ـ وهذه يوجد فيها سبع وصايا أخذها عن إبراهيم بالرجوع إلى نوح صاحب الوصايا السبع، ويعتقد الكثير من نقاد الكتاب المقدس من علماء النصارى أن موسى أخرج العبرانيين من الوثنية فلما ذهب موسى عادوا إليها في ماضي الحقب، وهذا اعتقاد على ما نرى مبالغ فيه لأنه لا يقوم على الصحة، فاليهودية الأرثوذكسية ما زال فيها بقية مما ترك هارون وموسى.

ويقول الكاتب الإنكليزي «كارليل»: «إن العهد القديم هو عبارة عن ألبسة مخاطة بيد العبرانيين» ولا علاقة لموسى وهارون بالذي جاء فيه من الخرافات والأساطير التي فيها أن «راشيل» زوجة يعقوب أو إسرائيل، كانت في حالة عقم جنسي ما استطاعت معه أن تلد ولداً، إلَّا أن التدخل الإلّهي في الموضوع أعطى لها «عصير فواكه» جعلها تلد ابناً سموه «يوسف» وقصة يوسف عند علماء التاريخ، هي قصة رومانطيقية عاطفية قامت على التفاخر في العبقرية العبرانية، من أن ضائعاً في بئر، ورأى آخر أن إخوته باعوه بيع الرقيق، يخرج من هذه البئر ويصبح سيداً عزيزاً في مصر، كما أن طفلاً ضائعاً وتائهاً على وجه الماء في سلةٍ من قصب يحمله النهر إلى أعتاب قصر فرعون ـ أي قصة موسى ـ يصبح عالياً في هذا القصر وليس فوقه أحد، ويصبح قائداً ونبياً وكليماً لله، وأن طفلاً جاء من غير أب من مريم العذراء ـ يسوع المسيح ـ كما جاء في العهد الجديد، طفلاً ضائعاً في مغارة ليصبح إلّهاً ورباً يُعبد.

وأنّ شيخاً أشورياً ومن مدينة «أور البابلية» يهاجر إلى المدائن وفلسطين إلى أرض مصر طالباً للرغيف يصبح نبياً منظوراً، ويصبح أباً وحيداً للشعوب والأمم، وأي أمم؟ وكيف يكون إبراهيم أباً للصينيين والافريقيين والروسيين واليابانيين وقد اختلفت عروقهم عن عروق الأشوريين والعبرانيين.

وأن إنساناً من تراب كآدم، حمل الخطيئة على كتفه ـ كما حمل السيد

المسيح كما قالوا خشبة الصليب في تعارض المثل ـ من السماء إلى الأرض كما هو في الكتاب المقدس والقرآن، وأي أرض وأي سماء تلك التي جعلت آدم خليفة في الأرض ولأهل الأرض، بعد المغفرة والتوبة؟.

ويحق لنا إذا نحن أرجعنا عامل الحدوث إلى أسبابه، وتحرينا النتائج والأسباب والكيفيات، أن نقف بالبحث العقلي عند شك، وإن كان الدين فوق العقل بتقرير العقيدة النصرانية واليهودية، قد تدفعه ظواهر العقائد الموروثة إلى ما وراء الشك، مع إكراه الأدب النفسي والإجماع الإنساني على احترام ما جاء في الكتاب المقدس والقرآن، دون أن نتعرض إلى مشاكل الحوار والجدل في الإنكار أو عدم التصديق، وخصوصاً أن الظن وعدم اليقين ـ وفي أحوال كهذه ـ لا يرتكز على قياس علمي أو حقيقة قائمة على العلم.

والذي جاء في تلك الكتب المقدسة يرجع بالتنزيل إلى الله على كثرة ما ورد من توافق في الأشكال والأحوال والصور العقائدية، ومن الممكن أن يكون في العهد القديم تأخير، وفي التأخير قديم لا ينطبق على قواعد العلم ومفهوم العقل، وما نريد أن نطبق أحوال الذي تقدم على أحوال الذي تأخر، أو أن نأخذ أو لا نأخذ وقد فاتنا الواقع أن يكون كنظرية أو حقيقة أو عقيدة أو «دراما تمثيلية» قد تكون فيها الحقيقة المفروضة هي نظرية أو مجرد رأي، أو تكون النظرية حقيقة خالصة لا مجال للتأكد من صحة الدور التمثيلي في الحوادث التي تكون أقرب إلى ما نعتقد من حدوث.

وإذا أردنا أن نتحرى من أجل البحث والإظهار المذهبي أو الديانة القبائلية لليهود التي كانت قبل إبراهيم وموسى، وقد عرفنا الوصايا السبع التي تركها نوح والصحف الضائعة التي تركها إبراهيم، فلا يمكن مع هذا التحري أن نصدق أو لا نصدق أنها جاءت في كتاب مرقوم أو رواية منقولة كما جاء في كتاب التوراة والإنجيل والقرآن، ويصعب علينا الوصول إلى منطويات التاريخ التي عفى عليها الزمن وطال وأناخ.

وإذا كان البعض من نقاد العهد القديم يأخذون على موسى أنه هو

الذي كتب الناموس أو التوراة، ولا علاقة للإله بالذي كتب وخطب ـ وهذا نقد يخلو من صواب الرأي ـ ويذهب البعض الآخر المتطرف إلى أبعد من ذلك، فيقولون إن شخصية موسى هي شخصية ميثولوجية كما مرّ في العرض الأول، والذي كتب التوراة أي الكتب الخمسة هو «عزرا» أو العزيز الذي قال عنه اليهود إنه ابن الله كما قالت النصارى أن يسوع الناصري هو ابن الله، فإن صحّ هذا القول ـ وهو قول غير صحيح ـ فإنه يقطع الصلة الروحية التي كانت بين موسى كليم الله وبين الإله، إله موسى . .

ولا يفوتنا التدليل بالرجوع إلى ما قاله نقاد العهد القديم، أن موسى أخرج العبرانيين من الوثنية ولما مات موسى رجعوا إلى الوثنية وهذا يعني أن القراطيس والأبواب التشريعية،وما ورد من غيرها من التوراة، قد يكون ضاع منها ما قد ضاع، ودخل عليها ما قد دخل، غير أن القرآن يشير في تفصيل القصة والحوار، إلى الحوادث التي حدثت مع موسى في أكثر من ثلاثين سورة قرآنية ـ بالمراجعة والإعادة ـ فلا يمكن أن يكون التعريض بالتوراة بالذي يؤخذ به من حيث الصحة والحدوث، ولئن كان بعض العلماء من اليهود يعترفون أن نقصاً وتديلاً طرأ على التوراة في مرور الأحقاب، فإن العقيدة اليهودية المرنة القائمة على الإيمان الخالص بما جاء في التوراة هي التوراة. . .

الأضرار التي تركها الانفصال:

ولقد أحدث انفصال النصرانية عن اليهودية، ردود فعلٍ مؤسفة في نفوس اليهود، وقد حاول النصارى القضاء على العهد القديم، ـ التوراة ـ وهي كل ما عند اليهود من مواريث ثيولوجية مقدسة، إذ قالوا ـ أي النصارى ـ إن العهد القديم هو قديم لا يصلح للاعتقاد والإيمان، وقد حلّ محله العهد الجديد الذي هو كل الإيمان، وأن السيد المسيح هو إله الناس، وهو إله غير إله موسى، من أجل ذلك انتفض الفريسيون وغضبوا وتظاهروا بالخصومة الأبدية ضد يسوع، ولقد قال رئيس السهندريم ـ المجلس الأعلى لليهود ـ عندما وضع المسيح على أعواد الصليب «ليمت شخص ولا تمت أمة».

وفي التقاليد الوراثية لليهود التي هي شبه تاريخية يوجد فئات ثلاث تركزت وتكيفت عليها الديانة اليهودية هي:

الفريسيون: طائفة يهودية كانت تمارس العقيدة بين الشك واليقين. وكانت قوية وفظة غليظة الطبع. تظهر ثيولوجياً وكأنها من ذوي النزعات المتطرفة التي كانت لا تطمئن إلى ما حولها من وراثات عقائدية، ولا تعترف في حساب الآخرة لأنه لا يوجد آخرة لآخرة، وهم بالإضافة إلى هذا ينكرون القيامة والبعث والثواب والعقاب، لأن النفس تموت وتفنى مع الجسد - إنجيل متى الإصحاح الحادي والعشرون - إلاّ أنهم كانوا يعتقدون بوجود الملائكة والأرواح الجبرية، ويقولون بحرية الإرادة الكاملة والقدرة على الأعمال ضمن نطاق هذه الحرية التي هي اتصال دائم مع العقيدة، على أن الإرادة والقدرة والحرية والعمل والعقيدة تكون سبباً من أسباب الخير إذا كانت صحيحة وسليمة الأفعال والنيّات، وتكون سبباً للشر إذا تعرضت تلك العقائد والصفات إلى حماقة الأفعال والأسباب، ويزيدون على ذلك أن الإله لا يتدخل في أعمال الخير فالخير للخير، كما أنه - يقف على الحياد - لا يتدخل في الردع والإعراض عن ارتكاب الإثم والشر.

والفريسيون هم الذين وضعوا قواعد الاجتهاد ومقدمات الاستنباط، ومبدأ الحلول، غير أنهم في الاعتماد على حرية الاجتهاد بالرأي - كما هو عند المسلمين - أخذوا بتفسير التوراة وأغرقوا وبالغوا في التفسير والتحليل، فضاعت أفكارهم في متاهات الفكر الضائع في هذا التفسير والتحليل والاجتهاد والاستنباط...

الصدوقيون: طائفة عبرانية أو يهودية من رؤساء الكهنوت الأرستقراطي كانت في وضع ثقافي رفيع، وذات ثراء وجاه وسلطة ونفوذ بين الشعب وفي إدارة شؤون الشعب، وكانت على خلاف نظري مع الفريسيين من وجهة عقائدية، فقالت بخلود النفس والبعث ووجود الأرواح والثواب والعقاب والحساب، ويقال كما ورد عنهم أن اسمهم اشتق من صادوق رئيس الكهنة في أيام داود وسليمان، ولهم حوار مع السيد المسيح كما ورد في الإنجيل.

الأسنسيين: طائفة يهودية ثالثة، وقد مرّ البحث عنها في العرض الأول من هذا الكتاب.

المسيح المنتظر:

وكان اليهود في القرن الثاني الذي سبق ظهور عيسى ابن مريم أو السيد المسيح، في وضع اجتماعي سيّء، وفي وضع إفلاس اقتصادي تدنّى إلى رقم الصفر، وفي حالة عقائدية ينطوي فيها القلق والتخبط والتأرجح بين الوثنية والوحدانية، غير أن الوضع الثقافي الذي كان مجاناً ومباحاً، لم يطرأ عليه أي تكاسل أو تباطؤ، بل مضى علماء اليهود في التفكير والتعليم، من العهد البابلي إلى اليوم، وفي تشجيع الأتباع على طلب العلم والفنون، فمنذ ذلك العصر امتاز العقل اليهودي في خلق الآراء والنظريات والفلسفة، بل منذ أن تراكمت في بيئته وعلى أحواله الصعوبات الاجتماعية طلعت عليهم فكرة المسيح وهو الشعب الذي كان يرزح تحت ضغط الفقر والمشاكل، أي أن مسيحاً منتظراً سوف يأتي ويرجع للشعب اليهودي هيبته ووقاره، ويملأ الأرض عدلاً واستقراراً في ظل الأمة اليهودية، وكان لا بد لهذه الفكرة أو هذه الأيدلوجية التي استعارها الفكر المسيحي، أن تصادف قبولاً واطمئناناً في الاعتقاد ـ اعتقاد العامة والخاصة ـ لأنها في مضمون الانتظار أعطت أملاً في إعادة أمجاد اليهودية القديمة، وبدأ اليهود ـ بعد ذلك ـ بوضع حماية وضمانة ورعاية في الاحتفاظ بالوراثات التي قد تزول بزوال الزمن، وقد تبقى وستبقى إذا ظل الابتعاد عن الغرباء الجانتايل، قائماً ومستمراً، وإذا دام عدم الاختلاط معهم بالتزاوج والتجمع ـ الاختلاط الجنسي الاجتماعي ـ فإن الأجيال اليهودية تبقى سليمة في عافية وصيانة، وتمر الأيام الصعاب على حياة اليهود في أوروبا والشرق، ويشتد التمسك في هذا الحفاظ والابتعاد بالانتقال الوراثي الذي أدّى إلى الانتصار الثيولوجي على الإحاطة والعداء الخارجي الغريب.

لقد امتازت هذه الفكرة ـ فكرة المسيح المنتظر ـ في أنها قوّت معنويات الشعب اليهودي، واستطاعت تحت عقيدة الابتعاد عن الغرباء في انفصالهم

عن اليهودية، أن تنفصل كما انفصلوا بالتمسك بالوراثة الدينية، بينهم وبين قوم كانوا سبباً من أسباب التعريض في العقائد اليهودية ومحاولة القضاء عليها، ومن هذه المجموعة في العقائد ظهرت كلمة «يهودي» وهي كلمة مقدسة بمعناها عندهم لأنها تحتوي على معنى الدين والتاريخ، ومعنى العقيدة السلبية والإيجابية وكتب التوراة والأنبياء وأعمال الرسل، والأحبار والربانيين والاظهار والوضع.

ومع أن اليهود الذين جاؤوا بفكرة المسيح المنتظر، وانتظروا ظهوره في كل يوم وجدوا بهذه الفكرة بعداً عميقاً في الصواب وعدم الصواب، وتتابعت المسميات للأطفال اسم المسيح ليكون هو المسيح، فلما ظهر عيسى ابن مريم، الذي يرجع بالعروق والجذور إلى آل هارون وآل داوُد، فرح اليهود بظهوره وابتهجوا وعقدوا على هذا المسيح الظاهر، الآمال الطوال، لأنه سوف يصبح ملكاً لإسرائيل، غير أن السيد المسيح عندما أراد إعادة الهيبة التشريعية إلى التوراة في إكمالها بإكمال الإنجيل، تقلص ظل الأصل اليهودي وأنكروا وتنكروا أن يكون هو المسيح الذي ينتظرون، ومن ثم بدأت الملاحقة والتسفيه والوشاية وذلك من أجل هذا الخارج عن الناموس، وبدأ أتباع المسيح الذين كانوا من الفقراء يلتفون حول يسوع، ونتج عن ذلك فكرة التثليث بعد أن غاب وجه ابن مريم عن إشراق الأرض ـ أي الأقانيم الثلاثة ـ أب وابن وروح قدس، إله واحد، التي تركت الأثر السيء في نفوس اليهود، إذ عطّل عليهم هذا المبدأ قاعدة الوجود على أساس التوحيد، وأحدث تمسكاً إيجابياً في عقيدة ظهور المسيح، وقد طال الانتظار لهذا الظهور، وكان هذا الخطر، خطر المسيحية، أعظم شأناً وأقوى مفعولاً من الأخطار التي واجهت الشعب اليهودي من أيام إبراهيم إلى أيام بابل.

وبدأ اليهود يعملون بجهد وروية حفاظاً على متروكاتهم التقليدية من أن تتعرض إلى الخطر المسيحي، فأعادوا كتابة التوراة بعد أن نقل المسيحيون أكثر ما فيها إلى الإنجيل، في ظهور الكتب الخمسة وكتب الأنبياء والمشنا والمرداس والزهر والكابالا والتلمود، وغيرها من الكتب التي بلغت عدداً كثيراً وكثيراً، وأدخلوا عليها ما يجب إدخاله للحماية ولئلا تبتلعها المسيحية كما

ابتلعت العهد القديم، أو تتعرض للذوبان في تيارات الانفصال والخصومة الثيولوجية النصرانية، التي كانت تحاول حصر اليهود في زاوية بعيدة عن الوثنية والمسيحية. . .

وجدير بالذكر أنهم استطاعوا في هذه المرحلة الصعبة أن يجعلوا ديانتهم ثرية في التشريع والفقه والأحكام والاستنباط والاجتهاد والإنتاج الثيولوجي، فتجاوزت المبادىء والتعاليم المسيحية التي أخذت عنها أكثر ما جاء في الإنجيل، ولا شك أن ما عند اليهود ـ لو سمح اليهود والمسلمون ـ تلتقي بالتوافق الشرعي بقرآن وفقه الشريعة الإسلامية.

ومن يقرأ ما ترك علماء اليهود في الاجتهاد والاجتهاد في الرأي، يدرك حقيقة ما أشرنا إليه، فأعمال وفتاوى وكتب واجتهاد «هليل وشماي وراسي» التي هي مرجع من مراجع التكليف والتقليد، عززت العقيدة اليهودية، ومكّنتها بل قوّتها في نفوس الأتباع، وهي فصل في كتاب وكتاب في فصل يعود إليه الأحبار والكهنوت لحل المشاكل التي لها علاقة في العبادة والطهارة والنجاسة ومحظورات السبت. .

ولقد وصل هؤلاء العلماء في إطلاق وفتح باب الاجتهاد إلى ذروة الفصل والفتوى في اليهودية، ووضعوا قواعد جديدة للاستنباط أقاموا عليها نظريات ثيولوجية جديدة، وفتاوى مستقلة تكاد تكون فلسفة تجريبية في المنطق، إلّا أنها مع شكلها التجديدي تأتي ضمن نطاق المسيرة الدينية، وعن هذا الاجتهاد نتج مع ضرورة الاستنباط شمولية فقهية أدَّت إلى تطور الفكر اليهودي الثيولوجي في ظهور فئة المتجددين، وهؤلاء حاولوا أن يوفقوا بين القديم والحديث في الحياة اليهودية، داخل المصلحة المتطورة، وفي ضمن متطلبات الكيفية والظروف، وظروف الانتقال في التجديد، فهم ينظرون إلى المسألة أو المشكلة أو القضية، أنه بالإمكان تغيير وجهة النظر فيها، وذلك بتطبيق قاعدة المقدار والقيمة والحاجة، فلو أنَّ رجلاً في الأيام القديمة وضع صحناً من خزف خارج الدار، ومرَّ سارق أو غير سارق وأخذ الصحن بحكم الميل الطبيعي، فالمسؤولية هنا تقع في الرأي القديم على

السارق، أما المتجددون من اليهود، فيضعون المسؤولية على الذي يملك الصحن الخزفي لأنه أهمل قاعدة الحاجة والقيمة والمقدار في التعريض والاهمال إلى ضدٍ ناشيءٍ عن الذي لا يعتقد.

وفي الانتقال الزمني، يجد المتجددون مقارنة بين صحن الخزف وبين «الدراجة» مثلاً، فيقولون إذا تركها صاحبها أمام البيت ومرّ سارق أو غير سارق وأخذها بحكم الميول الطبيعية، ففي هذه الحال تقع المسؤولية على السارق لا على المالك، لأن الحاجة الجديدة التي تتطور مع الأيام الجديدة هي أقوى دافعاً من الحاجة القديمة، وأن المقدار والقيمة هي أكبر بالتقدير المادي من قيمة صحن الخزف. . .

وعند علماء اليهود المعاصرين، اجتهاد في انطلاق، وانطلاق في اجتهاد في القضايا الدينية، وتقليد يرجع إلى الأصول القديمة ذات الاعتدال في الوضع والتنفيذ، واستنباط شخصي يقوم على التحليل وإصدار الفتوى، وذلك بالأخذ بمبدأ المقارنة بين الذي حدث في الماضي، وبين الذي يحدث في الحاضر ـ وهذا هو القياس عند المسلمين ـ كما أن التقليد كالتكليف يتناول الفرائض والأحكام والعادات والوراثات الواردة في العهد القديم، ويشمل هذا التقليد جميع نواحي الحياة اليهودية الخاضعة لعقيدة الحلال والحرام، والطهارة والنجاسة ومحظورات السبت والتعامل مع الغرباء ـ الجانتايل ـ. . .

لم يكن التقليد معروفاً عند اليهود في الأيام القديمة، بل نشأ ونما في الفترة التي كان فيها اليهود أسرى في «بابل» فاتخذ العلماء اليهود هذا الفرض والإجبار في الإقامة ـ الإقامة الجبرية ـ فرصة لتأسيس المدارس، بعد أن أعطاهم البابليون بعض الحرية في الدين والعبادة وتعليم الشريعة الموسوية ـ التوراة ـ ضمن حلقات دراسية في الكنيس كحلقات الدراسة التي كانت عند الرواقيين الإغريق وغيرهم، وتمكنوا بهذه الحرية أن يضعوا اتجاهاً ثيولوجياً جديداً، وأن يتوسعوا في الشرح والتفسير والتطبيق، وألّفوا الكتب الكثيرة في هذا الموضوع أهمها كتاب التلمود الذي يبلغ ثمانية عشر مجلداً

وكتاب «المدراس» وكلمة مدراس تعني معلّم. . . أما العلماء القدماء الذين اشتغلوا وكتبوا وتوسعوا بالتفسير والتحليل والشرح والتقوى قبل الأسر البابلي، فقد أنتجوا وبالغوا وتابعوا ووضعوا القواعد الأصولية والفرعية منهم:

فئة السفريم: أي الكتبة وهؤلاء بلغوا مكانة رفيعة في التأليف في عصر الميكابيين، وفي أيام «عزرا» أو العزير الذي كان يُطلق عليه اسم «نبيّ» وابن الله، وكلمة نبي جاءت من العبرانية أي الذي ينظر في مجاهل المستقبل. . .

الازدواجيون: وهؤلاء كانوا في عصر الميكابيين وعصر الدوديسيين أي أنه كان يظهر في كل جيل اثنان أو عالمان يقودان الحركة والمنهج الثيولوجي، الأول رئيس السهنديم المرجع الأعلى لليهود، والمرجع الذي في التقليد، والعالم الثاني كان يدعى «بيت الدين» وكلمة دين كلمة عبرانية معناها الحكم والمحاكمة أو رئيس المحكمة.

العلمانيون: ظهرت هذه الطبقة اليهودية في السنة العاشرة قبل المسيح وظلت مواظبة على نشر التعاليم اليهودية والتوراة إلى سنة المئة الأولى بعد المسيح، وكانوا يطلقون على الواحد من هؤلاء العلماء ألقاب الشرف العلمي ـ ربان ومعلم ـ ولقد أخذ أتباع السيد المسيح هذا اللقب وأطلقوه على «يسوع» معلم ورب، ويأتي اللقب الأخير بالأصالة إلى العلم، لا إلى الاعتراف أو الاعتقاد بالألوهية، ونال ابن مريم الألقاب الكثيرة من تلاميذه لأن ذلك كان شائعاً بين الطبقة العلمانية التي كان لها حوار وجدل مع السيد المسيح وأتباع المسيح. . .

ومن هذه الطبقة المعلم والمشترع الكبير «هليل» الذي أنشأ مدرسة للدين كانت ذات اعتدال وسماحة وحرية في حلّ القضايا اليهودية ومعالجة المشاكل التي يلحقها الشك في نفوس الأتباع، وكانت هذه المدرسة تعتمد في الأحكام على التأويل والاجتهاد، بينما كانت مدرسة «شماي» تحافظ بشدة وإصرار على النص الحرفي للتوراة، وترفض التأويل الذي لا يقوم على النص. . ومن الذين قدموا الخدمات الكثيرة للعنصر اليهودي، البطريرك أو الحبر الأكبر «يهودا» وهو الذي جمع كتاب «المشنا» وهو كتاب يحتوي على شرح الناموس ـ التوراة ـ بما فيها من شرائع وأحكام وفرائض مدنية وصحية،

وكلمة «مشنا» تعني تكرار التعليم، ويكاد يكون هذا الكتاب في اعتماده على التقاليد التي أصبحت شريعة بمرور الزمن، شبيهاً في كتب الحديث عند المسلمين، أو أن كتب الحديث في الإسلام شبيهة بالمحتوى والتبويب بهذا الكتاب.

المتكلمون: طبقة يهودية كانت مهمتها المثلى «شرح المشنا» كما كانت الحال في بابل وفلسطين، وهذا الشرح يقع في كتابين تلمود أورشليم أو فلسطين، وتلمود بابل، وكتبه الأحبار في أيامهم في اللغة الآرامية. . .

المعلّقون: كانت مهمة هذه الفئة اليهودية التي عاشت في القرن السادس قبل المسيح، أن تكتب الشروح والإيضاحات في تعليق يأتي ضمن باب الاجتهاد، وفي التأويل النظري والتعليم الدراسي، في بيان ما جاء في التلمود، والتمسك بقواعد الحلال والحرام. . .

وفي اليهودية القديمة والحديثة طوائف أخرى، قد تختلف في الاعتقاد والرأي الجذري، اختلافاً قد يتحول عن الأصول في بعض الأحوال، فجالية قمران اليهودية مثلاً كانت تعتقد أن الوصايا كتبت على ألواح من السماء ونزلت على موسى في جبل سيناء، وكشف الرب له في هذا النزول ـ سرياً ـ عن تاريخ اليهود، منذ بداية الخلق إلى نهاية ما وراء الخلق، كما كشف الإلّه لآدم، من قبل، عن عدد الأيام التي يجب معها بقاء المرأة في حالة النفاس وكيفية التطهير التي عمل بها قوم موسى من الإسرائيليين. . .

وما زال اليهود يعملون بها، وهي مدة تقع في تمام الأربعين يوماً وعند المسلمين عشرة أيام فإن زادت صارت حيضاً. . . إن تاريخ اليهود في معنى التاريخ هو بداية لم يكن لها نهاية، وهو نهاية لم يكن لها بداية، وقد يتبدل الزمن في أيامه، وتمرُّ الأحداث في أسبابها، ويبقى كل شيء في العقيدة كأنه باقٍ على الأيام، وكأن الأيام تكاد تكون باقية فيه ومن أجله، ونجد بالإضافة إلى ما سبق في هذا العرض، أن اليهود الأرثوذكس اتبعوا في عقيدتهم المنعزلة منهج «الواقعية الإغريقية» التي هي عبارة عن سلوك خاص على القيام على مواجهة الحقائق وعدم التهرب منها، وإهمال الجماح العاطفي

والابتعاد عن الإغراق في الشهوات، والواقع أن هذه العقيدة لم تكن في الأصل عقيدة دينية، بل هي مجرد نظرية فلسفية لا حقيقة علمية لأنها تقول إن للمـادة وجوداً حقيقياً مستقلاً عن الإدراك العقلي. . .

وفي كتاب الميكابيين الرابع لليهود الأرثوذكس، عقيدة مستقلة تقول إن الحكمة هي الاعتدال أو ضبط النفس والصمـود أمام الحـوادث ببسالـة وشجاعة، والتجرد النزيه في جرأة وترفع، والإنصاف دائماً في عدالة، وأن العقل مع هذه الأحوال يجب أن ينتصر على الجسم، ويكون الثواب أو المكافأة في هذا الانتصار هو خلود النفس في السماء. كما نجد في الكتاب الثاني تناقضاً وتعارضاً في مسألة الروح التي تبقى بعد الموت كما هي وهي، حتى ولو كانت من الأرواح الشريرة، وفي مكان آخر من هذا الكتاب يقولون إن أرواح الشر تموت وتفنى مع فناء الجسم.

الأساطير الثيولوجية:

تؤكد المصادر المجردة لأهل التاريخ الذين عنوا عناية خاصة في تاريخ الدين، إن الشك يتنـاول بعض الذي جـاء في الكتاب المقـدس، لأن النصارى ـ بعد الانفصال الذي حدث وفي الاختلاف على شخصية المسيح ـ أدخلوا كثيراً من الأساطير الثيولوجية على العقائد، وأن اليهودية دخل عليها أكثر من خرافة من الدس المسيحي، ودخل على المسيحية أكثر من أسطورة، من الحشو اليهودي، وخاصة في كتب موسى الخمسة، التوراة، وفي كتب الأنبياء المؤلفة من ثمانية كتب، وهؤلاء ـ أي اليهود والنصارى ـ قد اشتركوا وتبادلوا تحريف الروايات أو أضافوا على التحريف تعديلاً على التحريف، ولن تخلو الهيوغرافية اليهودية المؤلفة من أحـد عشر كتاباً، من أفكار وآراء قد تكون مسيحية أو تكون يهودية، لا تتوافق مع بعض ما جاء في العهد القديم، بل إن العهد القديم بنصّه المشبوه لا يتفق مع ما جاء به إبراهيم وموسى في بعض القصص العنصرية.

لم يكن باستطاعة الذين وضعوا قواعد الكتاب المقدس ـ في أيامهم ـ أن يثبتوا أمام زحف الحقائق في العلوم الحديثة، ففي الاكتشافات والحفريات

التي ظهرت أخيراً، نجد أن الكتاب المقدس بعيد بالرواية وتحقيق الرواية عن الذي حصل في أيام موسى من وجهة الصحة الجيولوجية أو التشريعية.

ومن يتابع نشأة وتطور اسم الإلّه عند اليهود، يرى أن تبديلاً وقع في التسمية مع اختلاف الآراء والنظريات في وجود الإلّه أو عدم وجوده، فمن كلمة «يهوه» المركبة من أربعة أحرف التي أعطاها الإلّه لموسى بالكشف عن اسمه ـ اسم الإلّه ـ في سؤال موسى، تنبثق أسماء كثيرة لهذا الإلّه وهو الذي أطلق عليه المؤرخون «مبدأ التربيع» Teragrammain أو «أوناي» أو «شادي» وهو اسم مأخوذ بالاشتقاق عن معبود الفنيقيين «أدونيس» الذين كان لهم حضارة ومدنية وتاريخ سبق تاريخ وحضارة العبرانيين، فقد ذكر قزحيا في الإصحاح التاسع عشر أن اللغة العبرانية ومُفرداتها، كانت قد نُقلت أو أخذت عن اللغة الكنعانية، وأخذ الإغريق والرومانيون أكثر من شيء وأشياء من محاسن الحضارة الكنعانية، فقد كان المجتمع الكنعاني في مكانة عظيمة من الازدهار الاقتصادي والرقي والعمران والتجدد، مما حدا بالإغريق، وهم أهل حضارة أيضاً، أن يغيّروا أحوال حياتهم الاجتماعية على نمطٍ يوافق الظواهر العصرانية الكنعانية، وهم الذين أطلقوا عليهم اسم الفينيقيين كما جاء في كتاب «إسرائيل القديمة» للكاتب اليهودي هاري م. أولنيسكي...

ولم تمضِ فترة قصيرة من الزمن القديم على العهد القديم، أو الكتاب المقدس، وعلى العقيدة اليهودية التي كانت تتعرض لمؤثرات الوثنية القديمة، حتى ظهرت عقيدة الامتياز العنصري والاحتكار العقائدي وجعلوا «مبدأ التوحيد» أن يكون توحيداً لعنصريتهم، فالإلّه في المعتقد اليهودي هو إلّه اليهود ولليهود وليس لغيرهم، ولقد بطل اعتبار الوحدانية في هذا الاحتكار العنصري، فالتوحيد على ما يظهر من هذه العقيدة، هو توحيد خاص باليهود، لا توحيد عام يمكن أن يأخذ به الغرباء، بينما نجد أن التوحيد عند المسلمين هو توحيد كليّ أو شمولية عالمية.

وإذا جاز الافتراض، أو البحث المبني على الافتراض في أصل ونشأة الآلهة، ووجودهم المشبوه، وفقاً لعلم الثيوغونيا «The Theogony» نجد أنه

بالإمكان أن نأخذ بموضوع هذا البحث إلى ما وراء الاعتقاد اليهودي، ففي زمن الوثنية القديمة ـ قبل موسى ـ كان للعبرانيين أكثر من إلّه، ولعل أبرز الآلهة التي عبدها العبرانيون كانت في البدء Anath ملكة السماء ثم تطورت بالعقيدة الوثنية إلى أيام الإسرائيليين الذين عبدوا الإلّه «يهوه» مع المعبودة Asherah أو «عشيرة» واستبدل بالانتقال الثيولوجي اسم ملكة السماء باسم عشيرة، التي كانت صورتها الرمزية معلقة إلى جانب صورة «يهوه» على الجدار المقدس في الهيكل، وظهرت بهذا الانتقال مؤشرات الوثنية الكنعانية في جميع أحوال الشعب اليهودي الاجتماعي، والتوحيد الذي نفهمه عند اليهود يقوم في النشأة والتطور على:

- التربيع، أربعة أحرف لاسم إلّه واحد.
- الاثنانية، عبادة إلّهين لاسم إلّه واحد كما حصل في اسم ملكة السماء واسم عشيرة إلّه في السماء وإلّه في الأرض.
- التفريد أو الفردانية الثيولوجية أي أن الإلّه واحد في وجود واحد تحدر بالعقيدة الثيوغـرافية في أن يكون إلّهاً لإسرائيل فقط، ومن إسرائيل ومن أجل إسرائيل . . .

فالتوحيد المعروف عند المسلمين وهو توحيد «كلي عالمي» ـ أي يحق لأي إنسان وإن كان من غير المسلمين ـ أن يرى في مبدأ التوحيد ما لا يراه المسلم، وعندئذٍ تظهر النتيجة في أن الوحدانية هي فردانية غير اليهود جعلت المبدأ الاثنالوجي اليهودي يؤمن خالص الإيمان بالعرق والعنصر العبراني والإسرائيلي، الذي هو أسمى وأعلى وأقدس شيء في وجود الإنسان، فالدين والدنيا والإلّه في السماء والأرض هو لهم ومنهم، والإلّه الأعلى مـرتبط باختياره بالميثاق والعهد الأبدي مع إسرائيل، وهو إلّه مكثف بقيود ثيولوجية وأغلال من حديد، وهو على ما يظهر لا يُعرف عبادته ووجوده إلّا بوجود وعبادة إسرائيل، أما بقية الشعوب فهي ـ بحكم العقيدة الارتباطية والفردانية ـ مثل بقية الحيوانات، والمخلوقات هم أموات لأنهم لم يولـدوا إسرائيليين أو عبرانيين.

والخلاف بين العبرانيين على معاملة الغرباء ـ الجانتايل ـ أخـذ دوراً

مهماً في الحوار والجدل، فقد كان الإنسانيون المتجددون من اليهود، ينظرون إلى الغرباء وقد تطورت أفكارهم وعقائدهم تحت انتقال مؤثرات الثقافة الكنعانية وثقافة الإغريق، وخاصة في انتشار فلسفة الحكمة الإغريقية التي كانت تدرس في مدارس الكهنوت اليهودي، إنهم غرباء في العقيدة، وليس في الأخوة الإنسانية إلاّ أن المتعصبين العنصريين، ما رضوا بهذه الظاهرة التي لا تقبل بها الأكثرية اليهودية، وتعالت أصوات الخلاف لمجرد حادث قليل أو ما قل في حادث، حول هذا الموضوع الذي شغل أفكار الأحبار والربانيين، وخصوصاً أن الجنس العبراني كان يرفض الانتماء إلى فريق آخر منهم فريق العبيريين Habiru، لأنهم في أحوالهم البدوية وترحالهم في الآفاق، جعل حياتهم موقوفة على الغزو وقطع الطريق ـ كما كان العرب القدماء ـ وينال شرف الانتساب أولئك العبرانيون ـ غير هؤلاء ـ الذين تحدروا كما زعموا من ذرية إسرائيل أو يعقوب.

والرأي القاطع في هذا الاختلاف، أنه لا يمكن الأخذ به من وجهة تاريخية، لأن اختلاف الأجناس في القطاعات الفلسطينية وبابل وكنعان أو فينيقيا والجزيرة العربية، يترك صعوبة في إلحاق أي عنصر بجذوره إلى عنصر آخر، الأقصى والأدنى، ولما فتح الهكسوس مصر، أي الحكام، دخل معهم فريق من العبرانيين والساميين والسامريين، واختلطوا وتناسلوا كما أشار إلى ذلك المؤرخ اليهودي «جوزفيوس» الذي عاش في القرن الأول بعد المسيح، ومن الثابت أن «جوزفيوس» أخذ معلوماته التاريخية عن المؤرخ المصري «مانوتو» الذي عني عناية خاصة ـ في كتابه عن العبرانيين ـ في تحرك هذه القبائل مع الهكسوس، وهذا التحرك أو الحياة في بيئة مزيجة ومختلطة، جعل القبائل الأولى المهاجرة تموت وتذهب، وتأتي أجيال بعدها ذابت في البوتقة المصرية الشعبية وذابت بقية القبائل ومنهم العبرانيون القدماء، وكان من نتيجة هذا الذوبان أن ظهر جيل جديد لا هو من المصريين ولا هو من العبرانيين جيل حائر لا يعرف إلى من يرجع بالعروق والنسب، وإلى من يقلّد في التكليف الثيولوجي أو الوثني في وجود وانتشار العقائد والفلسفة الإغريقية، فلسفة الحكمة التي أخذت مكانة الدين في أسواق مصر وفلسطين والمدائن. . .

الوثنية في العقيدة والفكر اليهودي:

أكّد الكاتب اليهودي، آرثر هتزبيرج في كتابه «اليهودية» أنه «عندما تجلى الإلّه لموسى ولبني إسرائيل في سيناء تمّ زواج بين الرب وبين إسرائيل، وسجل عقد هذا الزواج بينهما وكانت السموات والأرض شاهدين على هذا الزواج».

وجاء في الكتاب المقدس أن التابوت صنعه موسى ووضع فيه لوحين من الألواح ووثائق وذهباً وفضة وسماه تابوت العهد، وقال لبني إسرائيل: «إن روح الإلّه يهوه في هذا التابوت ولا يسمح لأحد غيره أن يمسّه». . .

لم تكن تسمية «تابوت العهد» بالشيء الجديد في معتقدات اليهود، ففي الهند - قبل اليهود - تابوت مقدس مثل تابوت موسى، وفي مصر وقبل ولادة موسى كان عند المصريين تابوت يقال له التابوت المقدس، وهو تابوت خاص لدفن الملوك والأمراء، ومن الغريب أن نجد في العقائد اليهودية التي تعتقد بالوحدانية، وهي في الواقع فردانية ثيولوجية مادية، فكراً وثنياً كنعانياً وإغريقياً ينتقل مع اليهود في انتقال الوراثات، وهم الذين بلغوا قمة من العلم، وخبرة عملية في الحياة بما في الحياة من أخبار وآراء وأحداث، فكيف فاتهم تحرير عقائدهم من وثنية الكنعانيين الظاهرة في بعض الأساليب الثيولوجية اليهودية، وتابوت العهد يختلف في معناه في تقدير ووجوب العبادة والتقديس، فيقول فريق منهم إنه رمز تاريخي ثيولوجي وشهادة على تفوق الشعب الإسرائيلي والعبراني في العهد الذي قطعه الإلّه على ذاته في أنه اختارهم وحفظهم وأورثهم الأرض في ثمن معنوي هو أن يعبدوه في مقابل ما أعطى، ورضي الإلّه عنهم في هذه العبادة ورضوا عنه في أنه قطع الميثاق المقدس ليكون إلّهاً لليهود، ولا يمكنه - بعد هذا التعاقد - أن يكون إلّهاً لغيرهم من الغرباء أو عند الغرباء، ويقول فريق آخر إن تابوت العهد هو ليس من الدين، ولم يكن للدين أية صلة به وهو عبارة عن زينة وتفاخر بالوراثات.

وفي الكتاب المقدس روايات ثيولوجية فيها شيء من متروكات الوثنية، العبرانية والكنعانية، منها قصة أيوب العاطفية والحوار الذي جرى بينه وبين

أليعازر الدمشقي، ويلدد الشوحـي، وصوفر النعماني، الإصحاح الثالث، مزامير أيوب «من هو هذا الإنسان الذي يأخذ اهتمام الإلّه وانشغاله فيه» وذكروا في المزمور الرابع والثامن عن أيوب أنه قال عن الإلّه: «إنه أكبر جاسوس على الإنسانية، ولماذا لم يتركه هذا الإلّه وشأنه» وأضاف إلى ذلك بعد نزول المصائب في أحواله وداره وذكر الكتاب المقدس أنها كانت من الإلّه، في نقمة وسخرية: «إن عدالة الإلّه في تعامله مع الإنسان هي عدالة القوة ضد الضعيف، ولا يمكن الاعتراض على هذا الإلّه وعلى سوء عدالته سواء كان مخطئاً أو غير مخطىء». . .

وأيوب وفي مزامير أيوب حكمة وبلاغة شعرية ما أظن ولا يظن أهل العلم بالتاريخ، أنها صدرت عن هذا الرجل البار الصالح، وهو إن كـان نسب إليه أنه كان فيلسوفاً بليغاً أوقف فلسفته على تمجيد الإلّه، فإن كان ذلك صحيحاً ـ وهو صحيح ـ فالمكافأة من الإلّه كانت مؤسفة ورخيصة وما أعتقد بل ليس من الممكن الذي قد يؤخذ على التصديق أن يقول الذي قاله عن الإلّه في الحوار بينه وبين أصدقائه، في حين أننا نرى في ذات الموضوع في الكتاب المقدس، بعد أن خسر أيوب أملاكه وأولاده بحدوث عوارض طبيعية لا علاقة للإلّه بها قوله: «الإلّه أعطى وأخذ تبارك اسم الإلّه» ويرجع إليه القول المأخوذ عن الحكمة الإغريقية: «اعمل خيراً تجد خيراً، اعمل شراً تجد شراً». . . وفي العهد القديم تكييف وتشبيه وثني لطبيعة الإلّه «الرب يكره الخطيئة ويتضايق من حصولها» وفيه قصص وروايات تكـاد تكون ميثولوجية، منسوبة إلى أنها نزلت من الإلّه، كتبها عنصريون متعصبون، وهي لا تنطبق على حقيقة التاريخ، ولا على حقيقة العهد القديم.

أما الذنـوب أو الخطيئـة التي شغلت الفكر الإنسـاني في القديم والحديث فقد أخذت منزلة فعالة في العقل والعقيدة، وفي أحوال وهمية تختلف عن الأقوال، ومن هذه الروايات الثيولوجية «أن جُماعاً جنسياً حدث بين كائن إلّهي، وبين مخلوق بشري في قصة Swan and Leda، أبناء الله، أي أن ملاكاً نكح امرأة من أهل الأرض اغتصاباً وبصورة غير شرعية، وكان من نتيجة هذا الجماع أن ولدت إنساناً صاحب قوة فوق قوة البشر ـ إنسان

سوبرماني»- وعلى هذه القصة الثيولوجية أو الميثولوجية قامت عقيدة اختيار إسرائيل وقوة إسرائيل، ونشأت فكرة العهد والتابوت بين القبائل اليهودية القديمة، كما استمرت الأقاويل والأحاديث، كما سبق، من قول الكاتب اليهودي هتزبيرج حيث قال إن زواجاً وقع بين الإله وإسرائيل وكانت الأرض والسموات شهوداً على هذا الزواج، وتلتحق في ذلك عقيدة «ابن الله» وعقيدة التثليث وعقيدة الفردانية العنصرية وقصة «صوان وليدا» والملاك الزاني الناكح المغتصب، وولادة الإنسان السوبرماني الذي قد يأتي يوم يقال فيه إنه إسرائيل وإله إسرائيل.

إسرائيل ـ الصهيونية ـ المسيح المنتظر:

لم يحدث أو يُعرف في التاريخ أن اسماً إنسانياً يحمل في ذاته معنى النبوة ومعنى القوة، ومعنى الإله، ومعنى الأمة، ومعنى التاريخ والدين، كالذي حمله إسرائيل «يعقوب الذي تصارع مع الرب» كما جاء في العهد القديم، سفر التكوين الإصحاح الثاني والعشرون:

«فبقي يعقوب وحده وصارعه إنسان حتى طلع الفجر، ولمّا رأى أنه لا يقدر عليه ضرب حق فخذه فانخلع حق فخذ يعقوب في مصارعة معه وقال: أطلقني لأنه قد طلع الفجر قال: لا أطلقك إن لم تباركني فقال ما اسمك قال يعقوب، قال: لا يدعى اسمك ما بعد يعقوب بل إسرائيل لأنك جاهدت مع الله والناس وقدرت وسأل يعقوب وقال: أخبرني ما اسمك فقال لماذا تسألني عن اسمي وباركه هناك. . . ».

ويظهر من هذه القصة التي تأخذ ناحية من اهتمام الكتاب المقدس، أن يعقوب تمكن بقوته الشخصية أن يتفوق بالصراع على قوة الإله، ومن هذا التفوق الميثولوجي، انبثقت عقيدة القوة السلبية عند اليهود، للوصول إلى الأهداف الصالحة للشعب اليهودي في التطور الديني والاجتماعي والسياسي والاقتصادي، على أن النبوة التي وصلت إليه بالوراثة عن الشيخ الكبير إبراهيم الخليل، أضفت عليه وقاراً واحتراماً، وقد كان في حياته الأولى،

حياة الشباب، شاذاً منحرفاً كما جاء في التوراة، فهو نبي بهذا المعنى، وهو القوي الذي لا يغلب في وجود التسامي والشدة في القوة الشخصية على الثورة الإلٰهية في ذلك الصراع[1].

فإسرائيل اسم كان لشخص، ولقد أصبح هذا الشخص أمة فيها الألوهية والنبوة والقوة والتاريخ والدين والعلم، إنها إسرائيل!!. والأمة التي اكتسبت جميع هذه المزايا العظيمة في الخلود كيف يمكن أن تعتقد وأن تنتظر ظهور المسيح اليهودي المنتظر الذي سيعيد أمجاد إسرائيل القديمة بعد الزوال، وعقيدة المسيح المنتظر كانت معروفة قبل إسرائيل، يعقوب، وقبل أبيه إبراهيم بأحقاب، أفلا يمكن بالتقدير والافتراض أن يكون يعقوب هو المسيح، فإن كان مع حدوث الافتراض ممكناً، فقد بطلت هذه العقيدة ومضت وتقلصت لتلتحق بتراب الأجداد ومنهم إسرائيل ـ يعقوب.

على أن الصفات التي كانت لهذا الرجل قد انتقلت بالتاريخ الوراثي إلى كائن سياسي يقال له الصهيونية، التي بدأت حركتها في ملاحقة تحقيق الفكرة اليهودية التي كانت تهدف إلى إنشاء وطن قومي لليهود في فلسطين أو في غير فلسطين، وقبل أن قامت الثورة الروسية في القرن السابع عشر كانت منظمات اليهود في موسكو وجوارها ذات مكانة وأهمية وهيبة ونفوذ اجتماعي وسياسي وكان لها شأن نما وامتد في إدارة الدولة، فلما بدأت حركة الثورة بدأ الانحلال يظهر في شكل وهيكل تلك المنظمات، غير أن الاشتراكية التي كانت تأخذ اهتمام الفكر الروسي، قدّر لها أن تبقى وأن تنمو وتمتد وتنتشر بعد الثورة الروسية إلى أوروبا والمقاطعات الجغرافية العالمية، وقد كانت «الراديكالية» اليهودية في القرن الثامن عشر، تعارض في إنشاء وطن قومي في فلسطين على اعتبار أن هذه الفكرة هي فكرة إقطاعية بورجوازية، ودام الاعتراض مع الجدل والحوار مع نفوذ«الراديكالية» إلى السنة التي انضمت فيها المنظمات اليهودية ـ بعضاً في بعض ـ في منظمة واحدة أطلقوا عليها

---

(١) القرآن الكريم عند المسلمين ينفي هذه الصفات عن يعقوب وهو عندهم من الأنبياء، أنبياء الاخلاص لله والترفع عن المعاصي وفي القرآن سورة باسمه.

«المنظمة الصهيونية العالمية» التي شرعت حالاً في التنسيق وتهيئة وتنفيذ المناهج السياسية والاجتماعية لتحقيق فكرة الوطن القومي في فلسطين.

وتمر السنوات الهينات المليئة بالخير والنعمة التي هيأتها هذه المنظمة للشعب اليهودي الذي ارتاح كثيراً لهذه الظاهرة العنصرية، فمنذ البدء كان هدف هذه المنظمة هو جمع أشتات الجاليات اليهودية في أوروبا وغيرها وتوحيد عواطفهم نحو تأييد فكرة الوطن القومي الذي إذا قدر له أن يتم ويتحقق ـ وقد تمّ وتحقق ـ كان من الممكن إعادة أمجاد إسرائيل التي عفى عليها الزمن في الإهمال الوراثي مع النمو الحضاري، وقدّر لهذه المنظمة النشيطة وقد انضم إليها أكبر العلماء وأهل الفكر والفلسفة من اليهود الأقوياء، أن تأخذ لنفسها وعلى نفسها تمثيل الشعب اليهودي في كل مكان، ولقد نالت بما وصلت إليه من براعة وإخلاص وإنجازات بهذا التمثيل، ثقة اليهود وتأييد الأحبار والكهنوت بدون منازع أو معارض، إلاَّ فئة ضعيفة زالت مع ضعفها كانت تعاكس في الرأي، وذهب أهل الفكر الثيولوجي بعد نجاح هذه المنظمة إلى القول في أكثر من مناسبة، إنها هي المسيح المنتظر، وليس من الضروري ـ كما قالوا ـ أن يكون المسيح شخصاً واحداً تنتظره الأمة، بل إن المسيح هو مجموعة أشخاص من العلماء والسياسيين والعامة والفقهاء والأحبار يتركب منها هيكل وكيان المنظمة وشخصية المنظمة ومنها تتكون ـ أو بواسطتها ـ الأمة اليهودية، إذ تكون أو تظهر في إنجازاتها المعجزة هي المسيح في الأمة وهي الأمة في معنى المسيح...

ويرى بعض العلماء من اليهود، فيما رأوا بالرد على تمسك بعض الفئات الثيولوجية، بعقيدة المسيح المنتظر، أنه من الخطأ الذي لا يبرر أن يُظن أن الصهيونية تمثل عقيدة المسيح المنتظر بل هي المسيح بالذات، فقد أخرجت اليهود من ظلمات الذل والخيبة والملاحقة وتمايز عنصر الجانتايل، إلى العز والكرامة والتفاخر، وذلك أنها أخذت الدين والتقاليد والوراثات الإسرائيلية والعبرانية، والأنبياء ـ أنبياء بني إسرائيل ـ والتوراة والتلمود والمرداس والكبالا، إلى آخر قائمة الكتب والمؤلفات التي تعنى باليهودية، وكوّنت منها مجموعة يهودية، وذات قوة عقائدية لا تقهر، ومن هذه المجموعة

ظهرت طلائع الثقافة والسياسة والاقتصاد، وظهرت المنافع العامة لتكون موزعة بالترابط والاتصال على أشتات اليهود، ولكي تتوصل الصهيونية التي وُلد فيها المسيح ككائن مركب من عدة أشخاص إلى حماية وضمانة حقوق اليهود في كل مكان فقد أخذت بمبدأ السلبية ومبدأ الإيجابية في الظروف التي يلزمها استعمال القوة السلبية، وفي الأحوال التي يمكن أن تعالج بالقوة الإيجابية. . .

أما التفاسير الثيولوجية للتوراة وقد بلغت عدة مؤلفات، وغيرها من الحواشي والمقدمات التي تفرض على الشخص اليهودي في العقيدة القديمة أن يكون في عزلة وظلمة، فقد عالجها العلماء اليهود الذين هم على اتصال دائم مع منظمة الصهيونية، بشروح وتحليل وافٍ من التطورات الفلسفية والاجتماعية التي توافق دستور المنظمة في احترام التوراة، تلك المنظمة ـ مع دعم العقل اليهودي المثقف ـ تجد أن من أهم وظائفها هو العمل على رفع كلمة اليهود وكيان الأمة اليهودية فوق شعوب الجانتايل ـ الغرباء ـ ولقد نجحت في إقناع المسيحية المناهضة في القديم لليهودية، أن الأدلة كافية في الإنجيل أو العهد الجديد، وهي تؤيد صحة الاستعلاء والتفوق اليهودي في معنى الاختيار الإلّهي والتفضيل ووراثة الأرض. . .

وتمكنت هذه المنظمة بقدرتها السياسية الفعالة، أن تكيف حياة الفرد اليهودي على وجود قوة شعورية تجعله يؤمن باعتزاز بالشخصية اليهودية العامة بعد أن لحق هذه الشخصية الذل والتحقير في مجتمع الجانتايل، فإن قال «أنا يهودي» ففي هذه الكلمة فرد في أمة، وأمة في فرد، وعن ذلك نتجت الحلول الفكرية للمشاكل اليهودية التي كانت وما زالت تجابه الصعوبات الجغرافية في حياتها في مجتمع تكون فيه السلطة والقوة للغرباء. . .

ويقول الكاتب اليهودي والفيلسوف «هرتزل»: «إن فكرة الصهيونية لا تمثل العقيدة الدينية والأيدلوجية السياسية فحسب، بل تكيّف قيْمة المصالح اليهودية بما يوافق رفع وإعلاء كلمة الشعب اليهودي الحضارية، والصهيونية هي قوة خارجية تقف في وجه العالم، أما قواها الروحية فهي لليهود ومن

اليهود، وترجع إلى اليهود، دون أن يكون لأحد علاقة أو تأثير على هذه القوة. . .

المحدود: كيف يمكن تفسيره بما هو غير محدود:

في العهد القديم وفي أكثر الآراء والنظريات والقصص في الإنجيل، تعارض والتواء في اختلاف الرأي الثيولوجي، وفي تفسير المحدود بما هو غير محدود، مثلاً:

آدم والخطيئة: في هذه الميثولوجية أو الثيولوجية أو التمثيلية في مقام معنى روائي غير واضح القصد والاتجاه، فقد أعطى الله الحرّية لآدم في الفردوس، على أن يمارس هذه الحرية ضمن نطاق المصلحة الخاصة لخدمة الشخصية، وعلى أن لا يسيء الاستعمال ـ حتى في النيّة ـ بهذه الممارسة، وعندما أساء آدم الاستعمال لهذه الحرية، تكونت أفعال الخطيئة، والخطيئة لها تفسير في التوراة لا يتلاءم مع طبيعة الإنسان وطبيعة الوجود.

التجربة: عندما نأخذ بالذي ورد في الكتاب المقدس، أخذاً منطقياً وواقعياً، يظهر لنا أن الإله أراد أن يطبّق عروض التجربة والامتحان على آدم، لأنه كان يعلم ـ وهو الإله ـ ما يدور في الجهاز العصبي الجسمي والروحي لهذا الآدمي المطلق والمقيد بمعنى ممارسة الحرية، من تفاعلات كيماوية وصراع ونداء وهتاف وصراخ وحنين وأنين داخلي في النفس، أسماه أهل الدين «الشيطان أو إبليس» وكانت هذه التفاعلات في تكاثر، دورة هذا الجهاز تظهر في الدواخل في شكل وسواس وتساؤل فكري وهواجس، لماذا المنع وقد تم العطاء؟ ولماذا العطاء مع وجود المنع؟ فالتجربة هنا كانت جبرية لا اختيارية وإن كان يدخل في ذلك الموضوع الأمر والنهي، وكان من نتيجة هذه الفتنة أو هذه التجربة، أن ظهرت أو حدثت المعصية والخروج على الأمر الإلهي في حتمية وضغط ووجود التفاعلات الكيماوية الطبيعية في حياة الإنسان، وقد أشار القرآن الكريم إلى هذه التجربة بمعنى التفاعل:

﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ﴿١﴾ مَلِكِ ٱلنَّاسِ ﴿٢﴾ إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ ﴿٣﴾ مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ ﴿٤﴾ ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ ﴿٥﴾ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ ﴿٦﴾﴾ سورة الناس. . .

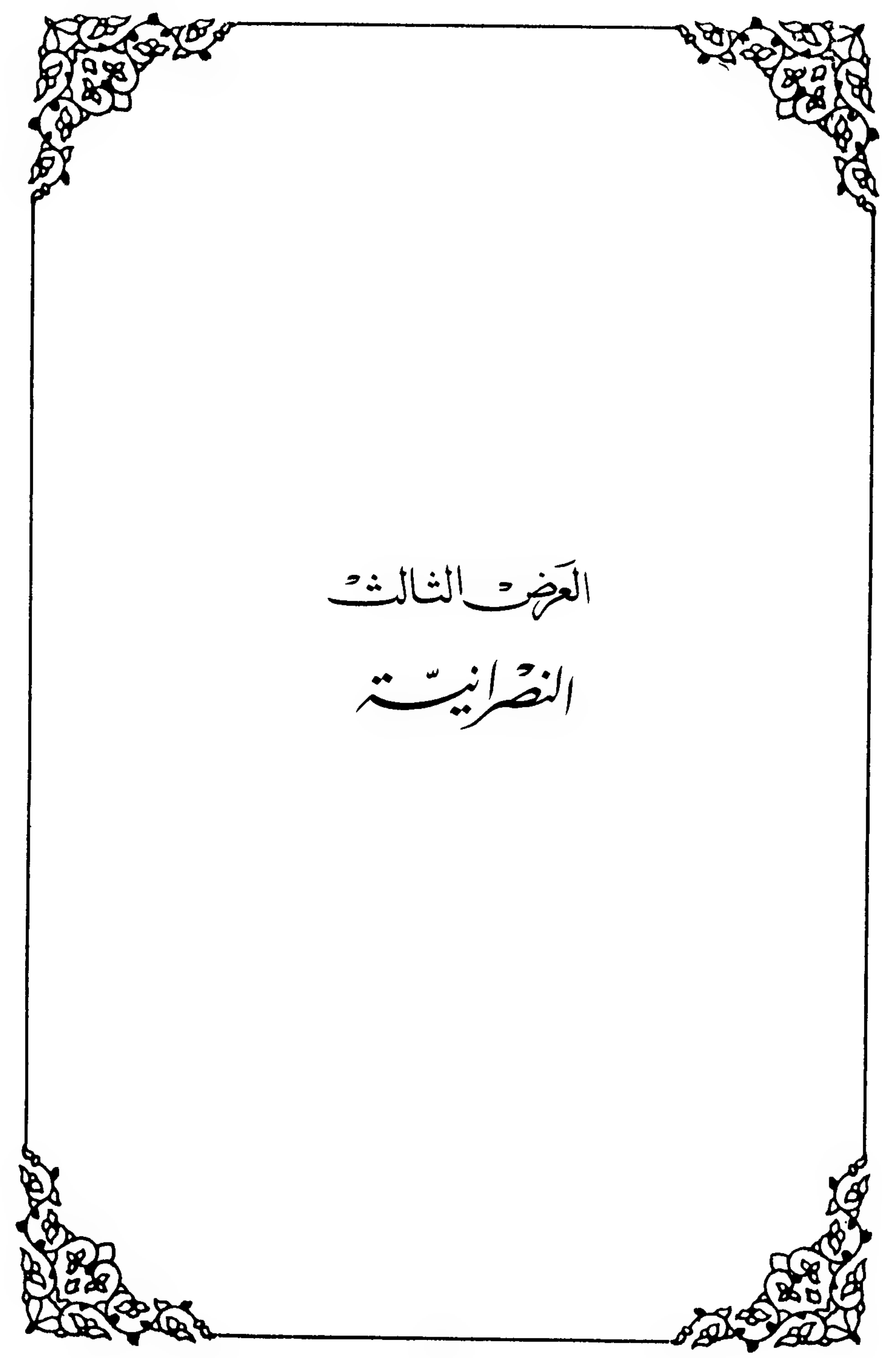
حدوث الخطيئة: ففي الأحوال الغامضة والملابسات المبهمة التي دارت حول هذه التجربة، قالوا إن علامة الخطيئة هي كعلامة العهد، تقرر أن المخلوق انفصل عن إرادة الخالق - أو خرج - في إساءة الاستعمال وعدم تقرير قيمة الحرية التي لم يعطها الإلّه لغير الإنسان، ومن الممكن في الافتراض المحمول على الشك، أن الوسواس هو أهواء الكيميائية التي كانت تتفاعل في نفس آدم في ضغط طبيعي على صدر وقلب آدم، تلك التفاعلات التي أطلقوا عليها اسم الشيطان أو إبليس كما عبر في البحث، قرّب الأبعاد وهوّن المصاعب في إساءة استعمال ثانية هي إساءة الفهم، وكان الذي يختلج في نفس آدم، في أنه إذا حدث الخروج في التجربة التي فيها أمر ونهي، ربما يصبح آدم إلّهاً يشارك الرب في القدرة والإرادة والنهي والأمر كما شارك إسرائيل - يعقوب - القوة والصراع والتغلب على الإلّه[1].

الألـوهية: وفي الشـروح والحواشي التي رافقت التـوراة والإنجيل وغيرها، تظهر التماثيل الوثنية وكأنها رمز ناطق يهدف أو يحاول تفسير الذي هو غير محدود - وهو محدود - وتفسير المحدود بما هو غير محدود، وهو غير محدود، وقد طبقوا هذه القاعدة على العقل بتحليل الإيمان، وعلى الجسم في فرض واجب العقيدة وعلى الروح بحلول الإكراه في القدرة والإرادة، وتطورت هذه القاعدة بالانتقال الوراثي والتطور الديني في المنهج القديم، حتى صارت الأشياء وكأنها مختلطة بأشياء.

فالشخص أو المعتقد الذي يعيش في الزمن لأن يحيا وينعم بالحياة في أيام تأتي وأيام تمضي، يتعرض في عقيدته وحياته الدينية والاجتماعية إلى قاعدة المحدود بتعبير آخر للذي هو غير محدود، وهو شخص جديد، كما هو الواقع في ولادته وأيامه، ولكن مثل هذه العقائد التي تتأرجح كالزئبق في النفوس تلبسه ثوباً قديماً من زمن قديم، إذ يصبح ويمسي في حياته شخصاً قديماً ولو عاش في عصور جديدة. . .

(١) أكّد القرآن الكريم وجود الشيطان أو إبليس وأنه مخلوق وقد يكون وجوده غير منظور كوجود الجن والشياطين.





العرض الثالث

النصرانيّة

النصرانية

قد يختلف البحث ويصعب في موضوع النصرانية كدين، لأن امتداد العقائد الثيولوجية وتطورها وانتشارها المدعوم بالتبشير المسيحي وظهور الفلسفة الموضوعية لخدمة الكنيسة ومن ورائها الدعم المادي. أخذت دوراً كبيراً وفعالية في ربط التشريع كامل التشريع في قانون الكنسية الذي أخذ معظم مصادره عن التوراة والتلمود اليهودي، كما يصعب ويختلف البحث عن اليهودية وإن كانت النصرانية قد اشتقت منها وانفصلت عنها، وهو انفصال لم يكن في مصلحة اليهود لأنه يحمل «معنى العكس والضد» في إدارة وبُعد الفكر المسيحي عن الفكر اليهودي وتحويله إلى اتجاه جديد وإلى عهد جديد الذي لا يقبل مع الرفض، حصر العقيدة العنصرية في أن الإلّه ـ كما ورد في القديم ـ يختار شعباً دون آخر وقد جاؤوا من طينة واحدة أو ترابة واحدة، في إرادة واحدة، وكان من الطبيعي في هذه المحاولة الخطيرة التي بدأت في ظهور السيد المسيح أن «الجدل والحوار البيزنطي» بين قوتين متصارعتين أخذ مجراه ومفعوله في إظهار كتاب جديد لعهد جديد ـ إنجيل النصارى ـ كان من أهدافه في البدء التبديل والتجديد والترميم في مواضيع العهد القديم ـ التوراة ـ لأنه قديم في النص للزمن ولم يعد يصلح في الزمن للنص، وتأتي البيّنة ـ بيّنة التجديد ـ في الاعتماد على ما جاء في التوراة من قول يهوذا بن يعقوب جد إحدى القبائل الإسرائيلية:

«إن الرب قال ستأتي الأيام التي أعطي فيها عهداً جديداً لآل إسرائيل وهو ليس بالعهد الذي لآبائكم»...

ويعتقد النصارى القدماء أن العهد القديم الذي كتبه العبرانيون من قوم موسى، هو تشريع مخبأ في تشريع، يأتي كله في خدمة العنصرية بالاختيار والتفضيل ووراثة الأرض ولا يصلح للإيمان المسيحي...

ومنذ حدوث الانفصال عن اليهودية قامت النصرانية بوضع «تشريع خاص» يتناول شريعة موسى في التعديل والتبديل، لكي تحصر تلك الشريعة في زاوية العقيدة اليهودية، وتجميدها حتى لا يكون عندها قدرة أو طاقة للامتداد الجغرافي، وبدأ هذا التشريع الخاص سلطته التنفيذية في إبطال محرمات أو محظورات السبت اليهودية، وإبطال تعدد الزوجات، وإباحة أكل اللحوم ذات الأظلاف والخنزير وغيرها التي حرّمها موسى ومن لحقه من الأحبار والكهنوت اليهودي.

وكان لا بد لهذا الانقلاب العقائدي أو هذه الثورة الثيولوجية التي أخافت اليهود في فضح أسرار الاعتقاد المشبوه فيه، أن يضع اليهود في حالٍ من اليقظة والحذر والحيرة وفي شعور الخطر، فبدأوا من جديد في تجديد ما قال النصارى عنه «إنه قديم» وتمكنوا بهذا الرد والصد الفكري أن يوحّدوا العقيدة في شروط تكاد تكون جديدة، وأن يثبتوا أمام «العاطفة المسيحية» التي فتحت أبواب الدخول إلى المسيحية لكل فرد بدون قيد أو شرط، بعد أن كانت مغلقة عند اليهود وذلك لحماية العقيدة العنصرية، وصيانة شرف التفضيل والاختيار العالمي، وأن يستعينوا بقوات الروم لملاحقة السيد المسيح، بعد الحوار والجدل الذي دام لأيام والذي أدّى إلى الثورة الفكرية، وإحالته إلى المحاكمة في «المحكمة الرومانية» ومن المحكمة صدر الحكم في رفعه على أعواد الصليب. لقد كان من المحتمل في بدء «المعركة الدينية» في تبديل الشريعة وإلغاء المحرمات اليهودية، أن يقبل اليهود أن يكون يسوع الناصري، هو المسيح المنتظر عندهم، وهو النبي المرسل كبقية أنبياء بني إسرائيل، وهو الأب والابن والروح القدس وهو الإلّه الواحد، لو جاءت رسالته في المصلحة اليهودية والشعب اليهودي - إلّه الفردانية - بمعنى التفرد بالإلّه للدين اليهودي ومعنى الوحدانية في أن يكون هذا الإلّه إلّهاً وحيداً لهم ومنهم، وأن يقوم تفاهم موضوعي للوفاق في كيفية ظهور المسيح

ولمن ظهر، ولا مجال للرفض في الذي ادعاه في أنه جاء لإكمال الناموس ـ التوراة ـ وهي خدمة كبيرة لليهود لو حاول السيد المسيح أن يمشي في القافلة الإسرائيلية، إذ يكون في إمكانهم لو فعل هذا كسب عواطف الأتباع وتأييدهم الذين كانوا يهوداً ثم صاروا نصارى ولحقوا بالسيد المسيح وتمكنت عقيدتهم في الإيمان النصراني، إلاَّ أن اليهود بعد أن رأوا إصرار يسوع على رسالته، لم يلتفتوا إلى إمكانية هذا الوفاق أو هذا الاتفاق، بل بدأوا بعد أن رأوا إظهار العداء والخصومة لهذا السيد العظيم، وأنكروا عليه وعلى أتباعه أن يكون هو المسيح المنتظر الذي ترجع إليه عقيدتهم في الظهور ـ ظهور المسيح اليهودي المنتظر ـ ولا زالوا ينتظرون.

ويومذاك كادت بوادر المفاهمة في مفاعيل الثورة الثيولوجية، أن تتحقق على الذي قيل وعلى الذي قد يقال، غير أن الذي حدث في عقيدة التثليث والظهور والرفع والصلب، لم يترك مجالاً للتفاهم، بل اشتدت من أجل ذلك غضبة الانتقام في ظهور الخصام الشديد والملاحقة الأبدية، وتحول الخصام إلى عداء ينطوي فيه الفناء والإبادة والعداء إلى قضاء، والقضاء إلى ادعاء أن الدين هو دين إبراهيم وموسى ولا دين غيره، وأن الرب هو رب إسرائيل ولا إلَه غيره، وكان أن أقام المسيحيون بدعوة إلى رد الفعل فقالوا إن المسيح هو الدين، وأن الدين هو المسيح، وأن المسيح هو الإلَه...

وعندما ظهرت العقائد اللاحقة بالثورة والنوايا المتطرفة، تحركت أعصاب الأحبار من اليهود وكهنوت النصارى للدفع والدفاع، فكتب المسيحيون الإنجيل بعد ظهور المسيح بأربعمئة سنة، وكلمة إنجيل في نسبتها إلى مدينة بابلس الإغريقية تعني عند الإغريق «درج أوراق البردى» وسارع اليهود إلى تجديد كتابة العهد القديم على ضوء هذا الحدث الثيولوجي الخطير الذي هزّ العقيدة اليهودية وأخافها بل روّعها، وتتابعت المؤلفات العقائدية عن الأنبياء والرسل، بالظهور والنشور، بعد أن فات الزمن ـ زمن المسيح ـ وتعاقبت الأيام وكانت الأبوكرافيا اليهودية Apocryphia التي تتألف من أربعة عشر سفراً، من أهم وسائل الدفاع عن العقائد اليهودية التي وقفت صامدة في وجه الخطر المسيحي، وهي أي هذه الأسفار تفوق

بالمكانة والتقديس مكانة العهد القديم، وهو الجواب القاطع على بطلان العهد الجديد، ومن الواضح أن النصارى من طائفة البروتستانت لا يعترفون بهذه الأسفار كما اعترفت بها بعض الفرق المسيحية لأنها موضوعة ولم يكن لها صلة بالإله، بل هي مكتوبة أو كتبت من أجل خدمة عقيدة اليهود الذين ألفوها وبالغوا في التأليف.

وظهر في منتصف القرن الثاني بعد المسيح، اللاهـوتي المشهور «فالنتونيوس» Valinetinos الذي تثقف في مصر وكان مرشحاً في أن يكون مطراناً في أيامه لروما، غير أنه لقي معارضة كبيرة من الكهنوت المسيحي المتعصب الجامد، الذي اتهمه «بالفنوسطية المسيحية» وهو مؤلف «إنجيل الحق أو الصدق» وكان في نيّته أو هدفه بعد أن تعلو رتبته الأكليروسية أن يصبح البابا في روما أو نائب السيد المسيح على الأرض، وأن يدخل التعديلات المعقولة في إصلاح الجهاز المسيحي وإرجاع العقائد المسيحية التي تاهت في الغلو والمبالغة إلى عهد المسيح وما قال المسيح.

ولو أن هذا اللاهوتي المشهور حققت له الظروف ما كان يصبو إليه، وقد كان الكهنوت المسيحي في نضال وتزاحم للوصول إلى هذا المركز، لكان للمسيحية «وجه» غير هذه الوجوه، التي تقنّعت بها المسيحية، ولكان من الممكن التغلب على الصعوبات والصراعات العقائدية، التي كانت تمشي مع الأيام، والأيام تمشي معها على نغمة الكهنوت، وهو الذي قال:

«إن الألواح والوصايا التي نُسبت إلى موسى، هي من موسى وإلى موسى ولا علاقة للرب أبداً بهذه الوصايا والألواح، وهي إذا رجعت إلى مصدرها، نجد أن موسى أخذها أو تعلمها ـ بما فيها من حكمة وتشريع ـ عن المصريين يوم كان في مصر[1] وضرب مثلاً بالطلاق، وقال إنه تشريع لموسى يخالف ما جاء في إنجيل متى: «إن الزواج هو زواج إلّهي، وعندما يتعاقد الزوج والزوجة فلا يمكن الفسخ لأنه زواج أبدي كزواج آدم وحواء».

وذهب فالنتونيوس في بُعد نظره إلى ما وراء الأبعاد التي هي منطوية

(١) في القرآن الكريم أن شريعة موسى نزلت عليه من الله تعالى.

وراء الروايات والقصص فقال إن ما جاء في إنجيل متى على لسان قزحيا يؤكد قوله في أن التشريع صدر عن موسى لا عن الإلّه:

«إنَّ هؤلاء سيشرفونني في شفاههم غير أن قلوبهم بعيدة عني إذ يعلّمون المبادىء التي هي من وصايا الإنسان».

ويؤكد هذا اللاهوتي العلامة أن شريعة موسى قد اتجهت وتبدلت بحكم التطور إلى عدة اتجاهات، منها تشريع الحكماء والأنبياء، والقانون الإلّهي ـ كما يرى ـ ينقسم إلى ثلاثة أقسام:

التشريع الخاص: وهو الذي لم يخرج من النفس، بل يبقى في النفس، وهذا هو القانون الذي جاء به المخلص للإتمام والإكمال في التوراة.

التشريع الموضوعي: وهو مليء بالخوف وعدم العدالة، وقد قضى عليه المخلّص لأنه لا يتفق مع طبيعة الطيف الروحي الذي هو فوق الوجود المادي.

التشريع الرمزي: وفيه شرح وتحليل للعقائد والأحداث، وهذا أقرّه المخلّص على أن يأتي ضمن مبادىء وظواهر غير منظورة.

العلماء المسيحيون والنصرانية:

كانت عوامل الانفصال بين اليهودية والمسيحية، بالإضافة إلى ما جرى من حروب بين القبائل ومحنة الأسر في بابل، وما تركت محاولة تبديل وتعديل التوراة في العهد الجديد، هي التي أيقظت اليهود على خطر الإحاطة الوثنية وعلى نظرة «الغيرة والحسد» التي ترافقها السخرية والازدراء من بعض الغرباء، ومن أجل ذلك رفض رئيس المجلس الأعلى اليهودي ـ السهنديم ـ أن يرسل مبشرين أو دعاة أو كهنوتاً لنشر قواعد الشريعة الموسوية وتعليم التوراة، كما هو شأن النصرانية، وكان عذر أو حجة رئيس المجلس الأعلى، أن عدم الاختلاط بالغرباء ـ الجانتايل ـ أو منع الاختلاط يضمن بقاء اليهودية

على ما هي عليه في اتباع الخطر الثيولوجي الإسرائيلي، الذي يعتبر في المعتقد اليهودي أنه أرقى وأفضل وفوق ما عند الشعوب ـ شعوب الغرباء ـ وتمكنت المسيحية بهذا الانقباض والانعزال اليهودي ـ بعد زمن طالت أيامه ـ أن تتوسع وأن تمتد بسرعة بعد أن قام بولس ـ اليهودي من طرطوس ـ بوضع قواعد التأسيس والتركيز والتبشير في حال دخوله المسيحية، هذا التبشير الذي اعتمد على خطبه ورسائله لأنها وحيدة في التعبير وقوية في الفلسفة الإقناعية، وهو على ما نقل في الروايات، أوجد أيدلوجية التثليث، ويأتي الدليل على صحة الرواية ما جاء في قوله الآتي، الوارد في إنجيل متى:

«الحمد لله في الأعالي ويعني الأب، وعلى الأرض السلام ويعني الابن، وبالناس المسرة أي روح القدس».

كان بولس يحمل في ولادته في طرطوس اسم «شاول» وكان يهودياً بالعقيدة رومانياً وإغريقياً بالجنسية أي أنه كان يحمل الجنسية الإغريقية والرومانية كمواطن ممتاز، تعلم في مدارس طرطوس وتفوق في علومه، واطلع على فلسفة الإغريق وفلسفة الهند وتعمق فيها وبرع، وكان بالإضافة إلى ذلك من الطبقة الأرستقراطية الحاكمة وعضواً منظوراً إليه في السهنديم اليهودي ـ المجلس الأعلى ـ بعد أن استوطن فلسطين واستقر فيها، وقدّر له مع علو ثقافته وواسع طموحه، أن يسيطر على المجلس اليهودي لبراعته في السياسة والفلسفة، ولقد وضع بولس أكثر من واحد من زملائه، الأعضاء أصحاب الغيرة والحسد، في زاوية ضيّقة، حدّ فيها من نفوذهم وسلطتهم ووجاهتهم، وكان من الطبيعي أن يحصل تنافس ونزاع ذو شأن سلبي بينه وبينهم دام لأيام وأيام، وصراع طال لأكثر من أيام وسنوات، وخصومة شخصية بقيت وكأنها زمن يمر مع زمن، وصادف أن الأخصام في تداول الأيام بين الناس، قويت وجاهتهم وتمكنوا من اتخاذ قرارٍ جاء بالإجماع تقريباً، في فصله عن عضوية المجلس، فنقم وانتقم وألحق الأذى والقتل والتشريد في أتباع المسيح من اليهود ـ بعد ظهور المسيح ـ وقبل أن يلتحق بالنصرانية بعد أن انخفض نفوذه وتقلص ظله السياسي والثيولوجي، فلقد صعب عليه وهو الذي يتمتع بمركز سياسي منظور عند الحاكم الروماني في

فلسطين، أن يؤدي به المصير إلى النتيجة المؤسفة في فصله عن عضوية المجلس، غير أنه عندما رأى أن دعوة يسوع تزداد نمواً وانتشاراً وقبولاً، خاف من الاسقاط من عضوية المجلس واعتبره كتجريد من الحقوق المدنية، كما أن اليهود اعتبروه خارجياً في الذي حصل في الصراع السياسي الشديد، ورأى أتباع السيد المسيح خصماً خطيراً وهو الذي أنزل فيهم التعذيب والتشريد قبل أن يصير نصرانياً، ففكر وأمعن في التفكير، وما أن وصل تفكيره إلى نهاية والنهاية إلى نتيجة، قرر أن يترك اليهودية وأن يلتحق بالنصرانية، فبدأ حملته الخطابية وهو الخطيب المفوه البارع، في إعلان الاعتناق المسيحي وجاء في خطابه الأول:

«إن الإلّه يتصل بالأرض بواسطة الكلمة، والكلمة هي الأب والابن والروح القدس».

ومع أن بولس شهد على نفسه بصراحة «أنا يهودي وفريسيّ ابن فريسيّ ـ والفريسيون كانوا أعداء السيد المسيح ـ فقد حملت تصاريحه وخطبه أتباع المسيح، على أن يولوه الثقة الثيولوجية، وخاصة بما سمعوا منه وعنه وما لم يسمعوا من غيره، وشوق حب الاطلاع والاعتقاد وخاصة مبدأ الظهور والصلب والصعود في تركيزه على قاعدة التثليث التي أعطاها بولس قوة ثيولوجية عصفت في قلوب الأتباع، وقيل إنه هو الذي أعطى اليسوعيين الأقدمين، فكرة المسيح وفكرة ابن الله في الحلول، وقد كانت هذه الفكرة من أهم عقائد اليهودية، ففكرة المسيح المنتظر هي منهم ولهم، والعزير أو «عزرا» النبي هو ابن الله منهم ولهم، كما هو الاعتقاد اليهودي.. ويظهر لنا في أجواء التخلف الثقافي ـ أجواء أتباع المسيح الأقدمين ـ أن عبقرية بولس لمعت وأضاءت القلوب بالإيمان المسيحي، وبرزت مواهبه وكأنها سراج يضيء ليل الأتباع، ولقد استولى على الشعور والعقل المسيحي القديم، في سمو ما وصل إليه من الإبداع الفلسفي والحكمة، إذ نجد ذلك في إحدى رسائله:

«إن رأس كل رجل هو المسيح، وإن رأس المرأة هو الرجل، ورأس

المسيح هو الرب، وإن كنه الإلّه أو ذاتية الإلّه تفرض على كل مسيحي قبول هذا الاعتقاد والعمل به، أي أن الثلاثة هي واحد وأن الواحد هو ثلاثة في واحد». . . ومن يرجع إلى قراءة أو مراجعة أقوال يوحنا المعمدان، يحيى بن زكريا، يوم كان يدعو الناس إلى التوبة وإلى ملكوت السموات وأقواله جاءت في العهد القديم: «أبانا الذي في السموات وابن الإنسان وابن الرب» يجد أن بولس ما أتى في الواقع بشيء جديد، بل إنه أضاف لوناً ثيولوجياً على هذا الاعتقاد، وإن كان قد أخذه عن يوحنا المعمدان، وأخذ معنى الكلمة من فلسفة الحكمة عند الإغريق وأحال في عبقريته وبلاغته هذا المعنى إلى قاعدة التثليث، وقد كان يعرف وهو الذي قضى شبابه في ظل اليهودية، أن قومه اليهود عندهم عقيدة التربيع أربعة أحرف لاسم الإلّه (ي هـ و ه) فأسقط حرفاً واحداً وكان قصده أو غايته من هذا الإسقاط إسقاط الشريعة اليهودية من العقيدة المسيحية التي حفظوها بالانفصال والانتقال. . .

وكانت فكرة أو مبدأ الحلول معروفة في الفلسفة الهندية قبل ظهور المسيح، وهي أنَّ ذات الإلّه موجودة في حلوله في البقر، فعبدوا البقر وكأنهم يعبدون الإلّه، وأن الوثنيين قبل موسى وقبل إبراهيم كانوا يعتقدون أن كنه أو روح الإلّه يكيّف في عقيدتهم في «بعل» و «إيل» إلّه الكنعانيين والفينيقيين فعبدوه. .

ويرجع بولس لمحاسبة اليهود بعد أن تفاقم الإضمار في الانتقام، التي كانت تؤمن في عالمية الدين والذين كانوا يؤمنون في أن الدين والعالم هما منهم ولهم، فنقض هذا الإيمان أو هذه العقيدة ورفضه، وقال إنه اعتقاد عنصري خطير في التعاليم والتوجيه، وإن المسيحية بعيدة عن اليهودية، والدين المسيحي هو دين الإنسانية الشامل وهو دين الإنسان في أي زمان ومكان، ويتناول في دعوته لكي يتأكد من تثبيت هذا الرفض في نفوس الأتباع، وصايا موسى فانقضَّ عليها كالنسر الجريح، وحمل على الذين فيها من أنه محاط بالنقص وعدم الكمال، إذ أخذ للمثل كلمة «روح» من العهد القديم، وهي الكلمة التي بدأ فيها في تطوير عقيدة التثليث، وهذه الكلمة مأخوذة عن «قزحيا» إذ قال عن المسيح ـ أي بولس ـ روح الرب سوف يكون معه وروح

المعرفة والإيمان والإتيان بالمعجزة إلخ.

ومع أن أكثر المفكرين من علماء النصارى، يعتقدون أن المسيح كان يهودياً بالولادة، وقد بقي على يهوديته في الاعتقاد والتمسك والتنفيذ في الشرع، ويذهبون إلى أبعد من هذا فيقولون إن بولس هو الذي وضع الأساس للمسيحية باسم يسوع، وإن يسوع ـ بالإضافة إلى ما سبق ـ جاء كنبي لإكمال ما نقص من الناموس، شريعة موسى أو التوراة، وكان من المتعارف بل كان من المفهوم بين أتباعه القدماء أنه واحد من أنبياء بني إسرائيل، ولم يدّع يوماً أنه إلّه أو ابن إلّه... وفي الأيام التي عاشها يسوع في الدعوة إلى الله لم تُعرف يومئذٍ كلمة نصراني أو مسيحي بين الذين اتبعوه وآمنوا بتعاليمه، بل ظهر هذا الإطلاق في خطب بولس، وامتد في إشاعة هذا الاسم، ولكنه لم يؤخذ به كإيمان ثابت أو كملحق في الإيمان حتى بعد وفاة يوسف، أو يُعمل به ليكون قاعدة ثيولوجية من قواعد المسيحية، بل إن لقب أو «اسم مسيحي» كان قد ظهر في التعميم في قرار المؤتمر اللاهوتي الذي عقد في مدينة ـ نيس إيطاليا ـ في القرن الثالث بعد المسيح.

من هو روح القدس؟
وما هي علاقته بالآب والابن؟

ومما لا يدعو إلى الشك، أن الثيولوجية المسيحية في وضعها الحاضر لم تكن معروفة أيضاً في أيام يسوع، ولم يترك هذا السيد العظيم وصيّة في أن يكون الاعتقاد نصرانياً أو مسيحياً، بل ظهر هذا الاطلاق بظهور الإنجيل، بعد فوات أربعمئة سنة على صلب المسيح أو رفعه وصعوده، واحتوى الإنجيل، بما احتوى، من أقوال التقليد والنقل المنسوب إلى تلامذة يسوع الأبرار الأتقياء، وما كان لواحد منهم أن يُعرف عنه أن قال قولاً بالكتابة والنقل والرواية عن المسيحية القديمة الأولى، مسيحية يسوع الناصري التي ولدت في بحرٍ من الأطياف كانت كامتداد لظل يسوع، غير أن الذي نراه في هذا الظل هي «صورة ثيولوجية» لوّنها الأتباع بألوان الإيمان والعقائد، وقد جاءت قريبة من التعاليم، بعيدة عن الرسالة، ومبدأ التخصيص في اتجاه هذه الرسالة الذي جاء به ابن مريم، وما كانت عقيدة التثليث مذكورة بوضوح

النطق أو الهمس، أو منطق الوضوح في العهد القديم بصرف النظر عن الذي جاء في العهد الجديد.

وكلمة روح القدس، لها معنى آخر عند اليهود وعند المسلمين، غير المعنى اللاهوتي الذي يفهمه النصارى ويقدسونه بل يعتقدون به، فالملاك جبرائيل عند الفريق الأول كان كضابط ارتباط، بين الإلّه والأنبياء يعطيهم التعاليم الإلّهية بطرق إيحاء النفس أو الوحي وعند الفريق الثاني ـ أي المسلمين ـ هو واسطة للوحي والتنزيل من الإلّه إلى الرسول محمّد، وإذا كانت الوحدانية في مفهومها العام تقول بإلّه واحد عند المسلمين ـ لا إلّه إلاَّ الله ـ وفي مفهومها الخاص عند اليهود أي الفردانية، في أن الإلّه الواحد في وجوده بوجود اليهود وهو إلّه اليهود، ولا يمكن أن يكون إلّهاً لغيرهم بما قطع على نفسه من عهود ومواثيق لإسرائيل، فالإلّه بناء على هذه الفردانية هو حلول في ثلاثة: إلّه، ووجود، وإسرائيل. فلماذا هذا التطويل والامتداد الثيولوجي في معرفة الإلّه، ولو أن النصارى قالوا بإسقاط الأقانيم الثلاثة في الاعتقاد بإلّه واحد، لكانت التقت العقائد الثلاث في توافر البيّنات وفي أن الله واحد في كون واحد[1] وإنسان واحد وإلّه واحد للكائنات... لقد حاول البعض من العلماء المسيحيين، الإجابة على هذا السؤال المحاط بالإبهام والغموض الذي تعالى فوق العقل، ومنهم فريق (Monarchrist)، حركة مناصرة الوحدانية، أن يعملوا على حلّ هذه المشكلة اللاهوتية المعقدة، وذلك بإسقاط كلمة يسوع والروح القدس، وبذلك يبقى الأب الواحد الأحد ـ أي التوحيد ـ أو بما جاء في تفسير وتحليل هذا الحلّ «الأب الواحد للوجود والكائنات» على أنهم بهذا الاعتقاد، توصلوا إلى الاقتناع العقلي والتاريخي، أن يسوع هو إنسان وقد وُلد بمعجزة إلّهية من مريم العذراء، وأطلق عليه اسم المسيح لأن اليهود كانوا ينتظرون مصلحاً أو مسيحاً تعاد في ظهوره أمجاد الأمة اليهودية، وقد كان يوحنا المعمدان، يحيى بن زكريا، يعمّد الأتباع قبل المسيح، أي ممسوح بالزيت المقدس، كما جرى في معمودية السيد المسيح من قبل يوحنا المذكور كما جاء في

(١) الكون الواحد هو الذي عُرفت فيه الشرائع الثيولوجية أي كون الله والأنبياء.

الكتاب المقدس والعادة القديمة كانت تتطلب عند ولادة الطفل ـ أيّ طفل ـ أن يمسحوا جسمه بالزيت، زيت الزيتون، أي مسيحاً أو مسوحاً، والذي يُكرّم بهذه التسمية، ويتشرف بهذه المعمودية يصير روحاً للقدس، أي نال الطهارة الروحية، ولكنه لا يمكن أن يكون في هذا التكريم والتشريف، الإلّه الثاني أو الأول والأخير كما هو المعنى في عقيدة التثليث. . .

ويأتي بعد مرور زمن في زمن «ثيودوتسTheodotos » وفي الأيام التي وصلت فيها المسيحية إلى ذروتها الثيولوجية، يثبت بالمنطق والحكمة والحقيقة والإقناع، إنه من الخطأ أن يطلق على السيد المسيح «اسم الرب» بل هو نبي جاء في رسالة المخلّص من الذنوب بالوعظ والإرشاد والدعوة ـ دعوة يوحنا المعمدان ـ إلى ملكوت السموات.

وظهر في المجتمع المسيحي فريق آخر من Modalist «الشكليون» وهم يرجعون في عقيدتهم إلى Monarchist، أصحاب حركة مناصرة الوحدانية، فيقولون إن التثليث ـ الأب والابن والروح القدس ـ هي أقانيم في رأس الرب أو عقل الرب يوحدها الاظهار في شكل أو أسلوب «Modes» بحيث تكون الوحدانية في رأس الرب، ولكن الإظهار الثيولوجي يتجلى في ثلاث حالات للشكل والأسلوب Modes، الأولى، الإلّه الأب الخالق ومعطي الشرائع، والحال الثانية إظهار ذاته في التقمص والحلول في شخص المسيح المخلّص، منذ الولادة إلى الصلب والموت والصعود أو الرفع، وفي الحال الثالثة يستمر المسيح في ذاته كروح قدس في التحديد الروحي Regenerates وفي التضحية لكي يجعل كل شيء جديداً في التجديد.

وأقرّ هؤلاء سيراً مع هذه العقيدة، مبدأ التشبيه والمضارعة، فقالوا إن الأب الإلّه هو كالشمس، والسيد المسيح هو أشعة تلك الشمس، وروح القدس هو طاقة لحرارة الشمس.

وجدير بالذكر أن «المودلية» المذكورة هي مفعول بذاته غير مفعول الانتقال والحلول والمضارعة، وهي لا تطبق على الإلّه في الأسلوب والشكل، فالمودلية Modes هي مادية طبيعية وتأتي متوازنة ومتعادلة في

التفاعل، «كإحداث الحرارة في أنسجة الجسم بواسطة تيارات كهربـائية سريعة الذبذبة، مدفوعة بجهاز أو آلة لبعث هذه التيارات».

ولقد دام الحوار بين المسيحيين عن الروح القدس، زمناً طويلاً، فمنهم من قال «إن الروح القدس» تتفاعل وتتحلل في نفوس الأتباع لخدمة الكنيسة، وخدمة الكنسية تؤدي إلى خدمة المسيح، وتناول بـولس هذا المعنى عندما خطب في أهل Galanians «لكي أبرهن أنكم أبناء الرب، فقد أرسل الرب ابنه إلى قلوبنا صائحاً أبي أبي» إشارة إلى قول السيد المسيح الذي جاء في الإنجيل: «إيلي إيلي لماذا تركتني» في حال الصلب.

ومن الغريب في هذا الحوار الثيولوجي والتعارض في الآراء، وبما دار حول هذا الموضوع، موضوع روح القدس، من نقاش، أن الأقانيم الثلاثة تدور على نفسها وعلى نفسها في فلك مجهول وفي طاقة سرية لمعنى بغير معنى، وبغيرسرٍ لا يدرك بالعقول أو الكلمات أو هي بالتعبير والتقدير، بعيدة عن الإدراك والفهم العقلي والروحي، وهذه الطاقة على ما نتج من جدل الأتباع هي كالطاقة الذرية طبيعية مادية ـ وليست لاهوتية ـ تتفاعل في دورة صعود وهبوط، ودائرة في نفسها وعلى نفسها ومن نفسها..

والذي يدعو إلى أكثر من الشك هو أن الكلمات في كل لغة، وفي كل أمة، قد كثرت واشتقت وامتدت وتقاربت وتباعدت في الأصول والمعاني والجذور حول هذا الموضوع، مع أن لهذه الكلمات أكثر من أصول وجذور وعروق في القديم والحديث إلاَّ أن كثرة الاستعمال، وكثرة الترجمة والنقل والتبديل والتعديل، أهملت أو قطعت العلاقة بين ما تعني هذه الكلمة في اختصاص معناها، القائم على ذات الكلمة وبين ما هي كلمـة المعنى الجذري أو الأصلي، ومن هذه الكلمات جاءت الـوثنية والـدين والعلم والإنجيل والتوراة والقرآن، إلاَّ أنها في تطور واستمرار عمر الشعوب، بعدت في معناها عن الأصل، وفي أنها كانت تصلح للقديم، وقـد يشك في صلاحها لإدارة وتنظيم حياة الإنسان الحديث، والذي جاء من الاستيرادات الثيولوجية من أنظمة وقوانين وتشريع وأيدلوجيات سياسية واجتماعية، ليس من

الاستطاعة بل من الصعب أن تُرد إلى العروق والجذور اللغوية، واللغة كانت من ذي قبل تتحرك بقوة القويّ في إثبات ما يريد، وفي نقص وإسقاط ما لا يريد، وكلمات هي كالرقيق، وكلمات مقيدة مسخّرة، وكلمات لا معنى لها جوفاء كالهواء، وإن كان في الظاهر والسمع لها أصداء، ومن هنا نشأت الفوارق والخصومة في المعاني الثيولوجية بين الإنسان ـ إنسان الشرق والغرب ـ وبعدت مناهج الدين وأهدافه عن أهداف الحياة وأهل الحياة.

والدين جاء لخدمة الحياة، وخدمة الإنسان الذي هو الحياة، وهذا الإكثار في «فلسفة الدين» والأيدلوجيات الإلحادية وغيرها، يعطي صورة وهمية مغمضة، وشكلاً بورجوازياً من الإلّه كان في البدء إلّهاً حياً ومات في النهاية، وذلك في موضوع «الروايات التمثيلية الثيولوجية» التي جاءت في إبعاد ما قال عن ما قيل في أحوال العبادة والتعرف والاختيار، وفي تفضيل شعب على آخر أو أمة على أمة، وإذا نظرنا إلى الأنظمة الروحية التي هي من القلب إلى القلب، غير أن هذه الأنظمة لا تعرف رباً ولا زمناً أو قضاءً وقدراً ولا هي تابعة لمقاطعات جغرافية، أو إلى عوامل وظروف مسخرة لخدمة مصلحة الأمة، التي تعلو على غيرها بمجرد الادعاء بالقوة العنصرية، على أنها ليست قوية أو بذات قوة، ولقد يتضايق المزاج العقلي الحرّ المطلق الذي لم يتقيّد ـ ولن يتقيّد ـ بفروض الحصر والإكراه الصادر عن تعاليم القوة الثيولوجية والاجتماعية المنحرفة، ويغرق الفكر في التفكير في مواد تاريخ مزيّف، وفي مبادىء وتعاليم ما نزلت على أحد من إلّه أو غير إلّه، بل هي من «صنع الإنسان» ـ ماركة مسجلة ـ الذي خلقه الله من طين وماء وجعل فيه نسباً وصهراً، وأن الإنسان بهذه المخالفات والمعارضات للأهواء الدينية، يريد بذلك أن يكون هو الإلّه، ويتصرف في الأرض كما يريد أن يتصرف، وكأنه هو الإلّه.

والتاريخ في مواده وحوادثه، كالإنسان يخضع للطاعة المفروضة على الإنسان من أصحاب الرأي والسلطة والسيطرة الثيولوجية، فهم الذين يصنعون التاريخ أحياناً، ويقدمونه على طبق من فضة للأتباع، ولو سأل سائل ما هو هذا التاريخ في موضوعه وصحته وأهميته التي بمكن أن تؤدي إلى نتيجة،

والنتيجة تذهب بالقطع إلى إصدار الحكم، في القضية أو المشكلة الروحية أو الثيولوجية التي أخضعت واستخدمت عقل الإنسان، ووضعت العصاب الأسود على عينه وقلبه لتجعل منه عبداً خائفاً ذليلاً مذعوراً، يأتي الجواب من هؤلاء في هواء يعصف في هواء.

والأديان ـ وليس هناك أديان ـ بل هناك دين واحد لا يلحقه التقسيم لثلاثة أو أربعة أو أكثر، ولا هو بهذه التعددية خاضع للجمع لم تترك هذه الأديان الإنسان أن يعيش حراً طليقاً من سيطرة العقائد والتقاليد بل أرفقت مع هذه المنتوجات الثيولوجية الخوف والذعر واليأس في الذي صوروا فيه الإلّه على جدار العقيدة، وكأنه يحمل فأساً أو سيفاً ليقطع الرقاب، وكأن الخوف والوعيد والتهديد يخرج من أقواله أو فمه كنار محرقة تكوي الجباه، وتحرق الأبدان، مع أن الإلّه هو غير ذلك إلّه صحبة وسلام وعدالة وأمان على الأرض.

والظواهر الثيولوجية ـ على ما يظهر ـ المعمول بها في هذا العصر وبكل عصر، الذي وصل شأواً كبيراً من النمو الحضاري، معرضة للشك دائماً ومعرضة للأمل والتأمل والأنانية... الأنانية التي تظهر وتأتي في الاحتكار الديني والعنصري، هي التي تضع العقل في كهف مغلق، لكي يكون بعيداً عن مفرق الوجود ومعرفة الدين الصحيح، وعن معرفة نفسه ومعرفة الحياة الطبيعية التي خلقها الله من أجل الإنسان، وقد سدّت منافذ التفكير والمراقبة والقبول وعدم القبول، وشلت في نفسه طاقة الرفض والافتراض لتلك العقائد التي ظهرت في زمن قديم وأناس قدماء لهم تفكيرهم وله تفكيره، وفي قواعد الخوف المركزة على الأمر والنهي في الدين ـ الخوف من الإلّه ـ والتحذير من غضبه وانتقامه وشخصه وضربته القاضية في الدنيا والآخرة، وهنا تظهر عوامل الإكراه والإجبار والعبودية أو الاستعباد القهري، وكلما زاد أو نما التساؤل العقلي في الشك لماذا الخوف؟ جاء الثيولوجيون بأعذار يتحدّون فيها شعور الإنسان بزيادة الخوف من لهب النار، نار جهنم، أو محرقة الإلّه الكبرى، وكان لا بد لهذه الملاحقة الأبدية أن تعطيهم السلطة في قوة المنع، المنع في أن لا يكون للإنسان حرية في الاختيار وقابلية في الاعتراض، أو أن يكون له

قدرة على المقارنة بين ما كان وبين ما قد يكون، أو طاقة حرة في تحديد مفهوم الاستيعاب العقائدي في هضم القيم الثيولوجية وصلاحها ونتج عن هذا كله أنه من الصعوبة في كل شيء أن يخرج، وقد سجنوا عقله، أو أن يعترض على الذين قالوا أن يكون في صالح الحياة، أو لا يصلح، أو أن يرفع الصوت بالاحتجاج العفوي على الذين فرضوه وأقروه من مخاوف زاجرة لا يصح أن تطبق على وحشٍ ضار، فالله ما خلق الإنسان من خوف لكي يخاف، بل خلقه من حرية وانطلاق، حرية الإرادة العليا التي فيها المحبة والعدالة والسلام، بعيدة عن مخاوف ومشاكل البشر، قريبة إلى الذين يعرفون الله معرفة فهم ويقين عن طريق هذه المحبة التي فيها البركة والرحمة والسلام.

والعقل في كل نفس نزل فيها الاعتقاد القهري أو غير الاعتقاد، له طاقة واتساع وامتداد لقبول الوحي والإيحاء ولقبول الصالح أو غير صالح، وليس من الضروري أن يكون الوحي مختصاً أو موقوفاً على الأنبياء، فاتركوا الإنسان وعقل الإنسان ففيه جهاز في الدواخل يمكنه أن يتلقى الوحي بدون واسطة، من الإله، وذلك بحسب الإمكانية والطاقة التي تختلف بموجب تركيبه الطبيعي بين شخصٍ وآخر.

وإذا كان التشريع الثيولوجي هو جزءاً من الدين ـ بل هو الدين ـ يتناول العقل والفكر والشعور والحس والعاطفة والخوف وعدم الخوف والحلال والحرام ـ إلى آخر القائمة الثيولوجية ـ يقرر الإكراه والإجبار ـ كما سبق ـ والطاعة والخضوع المطلق لأمر ونهي الدين وأهل الدين، ففي ذلك قوتان متعارضتان قوة الدين على أنها قوة الإله، وقوة أهل الدين على أنها أخذت مكان الإله والدين، فحياة الإنسان في معنى هذا التعارض والتفاعل والسلب أنه لا حياة له ولا هو يعرف ما هي الحياة، وخصوصاً أن السلطة الدينية جردته ـ بالسلطة والتسلط ـ من حرية العقل والعاطفة والتفكير والحس والشعور الصحيح بإعطائه «الحقنة الأفيونية» من مادة الخوف.

والخوف يحل في نفوس أهل الكتاب الثلاثة وينزل منزلة العبادة، فإن

سألت اليهودي يوماً هل تدفع بك الإرادة والحرية أن تكون مسلماً، أو نصرانياً، أجاب في حنقٍ وغضب ظاهره وباطنه الرفض، وإن تسأل نصرانياً هل تفكر في قبول اليهودية والإسلام في أن تكون لك كدين، أجاب بشيء أشد من الرفض، وإن تسأل مسلماً إذا كان بإمكانه أن يتخذ اليهودية والنصرانية ديناً أجاب كما أجاب القرآن ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ﴾ . . .

وهنا تأتي عقيدة الخوف فتجزّئ الدين إلى ثلاثة أديان، وتلهب في النفوس وفي العصبية ثورةً وحماساً ورفضاً، مع أن اليهودية والنصرانية هي مقدمات سابقة من مقدمات الإسلام، ومن المؤسف أن يعيق الإنسان في جزء قليل من العقل والفكر، لأن الأيدلوجيات والثيولوجيات الكثيرة، أخذت من تفكيره وعقله في أنه فقد كثيراً من هذا العقل والتفكير تحت مؤثرات الضغط والإكراه الديني، والذي بقي من عقله ومن تفكيره لا يكفي لإدارة الحياة في جسم وعقل وروح كإنسان، هذا الإنسان الذي هو كونٌ في وجود ووجود في كون، وهو عناصر كثيرة تتفاعل في عناصر، ويحتاج إلى منظم غير المنظمات الدينية: وإذا كان الإلّه مات كما يزعم أهل الفلسفة الإلحادية، فلماذا لا يترك الثيولوجيون هذا الإنسان، أن يعيش وأن يحيا الحياة التي تلائم طبيعة الحياة في الحياة في الطبيعة، أو إذا كان الرب هو «خنثى» كما زعم أصحاب الرأي الناقص ذي الخبل والعته، في أن كل شيء ينتقص في ذاته في الحياة، له عضوية الذكر والأنثى «Andrgynos» أي اثناني الجنس، فهو ذكر في عقله، وهو أنثى في تفكيره، وتمتد هذه الصفات الازدواجية إلى جميع الكائنات، أنثى وذكر، التي لها روح والتي هي بغير روح، كما زعم جماعة من المتصوفين المسيحيين الذين كانوا يمارسون اللذات الجنسية الجسدية للاتصال بالرب، وجماع الجنس مع الجنس، هو عقيدة مقدسة ينطوي فيها حب السماء لأهل الأرض. .

فإذا كانت هذه الأساطير والخرافات القديمة، تشغل عقل هذا الإنسان إلى جانب الانشغال في الخوف من الدين، وهو في الواقع يرفضه في الباطن الساكت، فلماذا لا يُترك لهذا الإنسان ـ كما سبق ـ حريته ورأيه وتفكيره لإعادة النظر في المؤسسات الثيولوجية والتشريع، فإن أراد أن يبقى على

عقيدته باختيار ورضى وقناعة، كان خيراً، وإن أراد الرفض والخروج، فلماذا الملاحقة والاتهام بالكفر والضلال والزندقة والإلحاد؟؟

العلماء والثيولوجيا. . .

كتب الكثير من العلماء أتباع السيد المسيح، عن علاقة المسيحية بالوجود، وعلاقة الوجود بالإنسان، فقالوا إن وجود العلاقة بين الإنسان والدين، هي علاقة سيطرة وخوف، وليس لها اتصال بالوجود الذاتي أو الكوني، لأن للكائن «الإنسان» نظاماً خاصاً به، وللوجود الطبيعي نظام له علاقة بحياة الإنسان، والمبادىء أو التعاليم الثيولوجية، فالذي يعتقد به بعض هؤلاء العلماء، هو مجرد رأي ونظرية وعرض وتقديم وتأخير، وهو على الأكثر ذو سلطة ونفوذ، وحياة ترف وثراء لأفراد وجدوا فيها نعيماً وعافية في خدمة الذات التي قالوا إنها خدمة خالصة للدين والله. . .

ولقد عالج الفيلسوف الألماني «عمونائيل كانت» العقائد والإيمان المسيحي والخلق والحياة الثانية في الأبدية وقضية الروح والمشكلة الإنسانية التي تخضع لمؤثرات المسيحية، ولكنه بهذه المعالجة الفكرية، لم يجد حلاً يرضي ضميره ويقنع عقله فترك الاختيار لكل فرد أن يعتقد أو لا يعتقد في أي شيء، إلاَّ أنه تحت عوامل هذا الاختيار، خرج على المسيحية في أنها لا تصلح لحاجة الإنسان الطبيعية، وحمل آخرون على النظام الثيولوجي فقالوا إنه «أوقيانوس هائج» من العقائد المتنوعة المتعارضة يغرق في أمواجها الإنسان، وهو مطمئن خاضع لهذا الغرق، وذلك سيراً واحتراماً للمؤثرات التي تركها الوعظ والإرشاد المسيحي في بواطن النفس، وكأنه يسير في سفينة من الخوف والرعب، التي تنقله إلى خدمة الكنيسة وخدمة السيد المسيح. . .

وأشار أحد علماء الاجتماع الإيطاليين، إلى أن انحدار المجتمع الديني والصناعي إلى المستوى النهائي، هو نتيجة من نتائج الغلو والمبالغة والخروج عن صواب الموضوع الثيولوجي الصالح، حيث دخلت الإنسانية بحكم ذلك الغلو المفزع، في ليل طويل مظلم، ويدوم أو سيدوم هذا الظلام في عبور

الأجيال، حتى عميت فيه بصيرة التفكير، لكثرة ما أحاط بالعقل من أنظمة قاسية ومحرمات ومحظورات وواجبات سلبية، بصورة لم يعد معها من الإمكان النظر إلى النهاية أو البداية، نهاية يقف فيها الدين عند حدّ، ونهاية يضع فيها الإنسان حدوداً بينه وبين أولئك الذين اشتغلوا بالدين وشغلوا الناس بما لا يصلح للناس.

ويصعب ـ بالإضافة إلى ذلك ـ في تفاقم وامتداد النمو الحضاري، تقدير التعاليم الدينية الضعيفة، على العوامل الاجتماعية ذات القوى المتوثبة، التي تسير مع هذا النمو بسرعة وتطور رافق العلم الحديث ـ علم الاكتشاف ـ بل من الصعوبة أن تكون العقيدة الثيولوجية ـ كما هي وهي ـ قادرة على السير مع مفهوم الاكتشاف والاختراع، لأنها لم يكن عندها الطاقة العلمية والأدبية، وقابلية التطور، وقد لاحظ رؤساء الكنيسة ، أن العقيدة النصرانية بدأت تضعف تحت ضغط الأحداث السياسية المتطورة، وتحت ضغط الانفلات من المسؤولية والإباحة الأخلاقية التي تنشرها المادية ودعت إليها لإحداث الفوضى في المجتمع الإنساني، بحيث فقد الدين مع الدعوة إلى الإلحاد، كرامته وهيبته واحترامه، وصلاحيته في بعض النواحي التي تعمل على توجيه القلب والعقل والضمير والأخلاق.

ولقد شهدت المسيحية من المذاهب الإلحادية ما جعلها تلجأ إلى السكوت والاعتصام باسم السيد المسيح، ومن هذه المذاهب، مذهب لاهوتي شعاره «الإلّه يخاف مني» وهو مذهب يرفع بالناس بالإقناع والتعالي، إلى مرتبة الكمال، أي أنه يمكن التحرر والخلاص من خوف الإثم والخطيئة إذا أخلص الفرد في مفهوم هذا الشعار ـ الإلّه يخاف مني ـ الذي هو عبارة عن إيمان خفي، وصلة روحية متدفقة بالنور بين الإلّه والناس، إذ يتم بهذا الاتصال الروحي مع نمو هذه العقيدة، وحينئذٍ تبطل التعاليم الثيولوجية التي بدأت بالخوف وتنتهي بالخوف، خوف أو تخويف يأتي من سلطة اللاهوت أو الكهنوت الذي شلّ وظائف العقل الطبيعية باسم ذلك الإلّه الذي لا يعرف ـ أي العقل ـ ذلك الإلّه ولا الإلّه عارف به، فيخاف المعتقد من السلطة الدينية، ويخاف من الرب، ويخاف من الإثم والخطيئة والعذاب دائماً وأبداً،

مع أن الإلّه بحسب مضمون هذا المبدأ اللاهوتي يخاف من خوف الإنسان!

ومن فلسفة هذا المذهب هو رفض كل شيء يكون دون درجة الكمال والتعالي، وكل خير هو كامل، وكل شر هو غير كامل أو ناقص ولا يصلح للكمال، ويظهر أن أصحاب هذا المذهب كانوا تأثروا بالفلسفة الإغريقية القديمة ـ فلسفة الحكمة ـ التي تقول: «الخير كان خيراً، والشر كان شراً». . . وذهب «فونتين» أحد فلاسفة القرن السادس عشر إلى القول إن الفلسفة الثيولوجية تحولت إلى فلسفة مادية أو آلية، ومن المخجل أن يكون الاشتغال بهذه الفلسفة بين أبحاث ومواضيع دينية فقدت معناها في ذوبان البعد عن حقيقة الإلّه، وعلاقته بالوجود، وعلاقة الوجود بالإنسان. . .

وبلغ الفيلسوف الفرنسي Jean François في قوله إلى أبعد ما ذهب إليه «فونتين»: «إن تلاعب اللغة في الألفاظ والمعاني، وفي تناقض ونقض الأحداث في التطور الاجتماعي، يجعل العقائد الدينية، كالنظريات الفلسفية، تضعف وتضعف قدرتها على البقاء حتى على صفحات الكتب، إلّا أن يظهر «أشخاص مخلصون» أوفياء للإنسان، وأوفياء للعقائد الصحيحة المجردة من ضغط اللاهوت أو الكهنوت، أو أوفياء في المشاركة بشعور الإيمان الداخلي الذي يأخذ بالعلم المجرد، ليكون قاعدة لبحث موضوع الدين وموضوع الإلّه، وإذا كانت تعاليم السيد المسيح قامت على الحب والقوة كما جاء في الإنجيل، فمن وظائف الإيمان المطلق، أن يفصل بين القوة والحب، وفي مفهوم الإنسان، بمعنى أن القوة لها وظائف واتجاه، وأن الحب له عوامل تسير في اتجاه آخر».

وأكّد الكاتب العلامة، «أنطوني دالاس» أن أي دين يدّعي القوة بتأييد قدرة إلّهية مجهولة، وخارجة عن طبيعية الوجود، لا بد له أن يتجه بخطوات سريعة نحو الموت والانقراض.

على أن «كارل ماركس» وجّه الانتقاد القاسي أكثر من مرة ومرة إلى الفلاسفة في أوروبا في أنهم يحاولون أن يضعوا تفسيراً أو شرحاً للوجود، وهذا لا يكون في طاقة الإمكان، وهو بهذا الانتقاد يوافقهم في العرض أي

وضع التفسير، ولكنه يخالفهم في القصد، ويصرّح في أن الذي نحتاج إليه هو أن نبحث عن كيفية تطور هذا الوجود.

ومن الطبيعي أن تكون علاقة الوجود بخالق الوجود صريحة، وتحتاج إلى تفسير أكثر في الكيفية والعرض، والذي هو عند الثيولوجيين من إيمان وعقائد، لا يصلح للعقل لأنهم جعلوه فوق العقل . . .

والنظريات القديمة التي مرّت، والآراء الفلسفية التي تولد لتموت، لا قيمة لها ولا اعتبار عند أصحاب البيوقراطية المسيحية، والأتوقراطية اللاهوتية، لأنها تركت آثاراً سيئة في تاريخ المسيحية الذي ابتدأ بمحاكم التفتيش في إسبانيا وامتد إلى أحوال فوق أحوال في عرض ومعارضة التطور والنمو الحضاري الذي يضع المسيحية في زاوية ضعف يزداد معها الشك وعدم اليقين.

ويذهب نقّاد الإنجيل إلى أن وجود الأتوقراطية الكهنوتية أَضْعَفَ من القيم المسيحية وخاصة أن الطبقة المحافظة من الكاثوليك يقلقها بل لا يرضيها مؤثرات النمو الحضاري الذي وقف بوجه النمو الديني، ومن أجل ذلك حصل الانفصال عن الكنيسة الكاثوليكية بقيادة الكاهن «لوثر» وغيره، وكانت العين الثيولوجية الكاثوليكية تنظر إلى التقدم الحضاري والتطور الزمني، إنه نموٌ للبورجوازية في المجتمع المسيحي مع تأييد الرأسمالية المادية، وهو الذي وضع الكنيسة في حراجة وضيق وموقف حائر، جعلها تتعرض إلى ما لا يرضي القائمين على الكنيسة.

وقد رجعت الكنيسة الكاثوليكية من أجل هذا التعارض والاختلاف في العقائد القائمة على النظريات والآراء، إلى الكنيسة الرومانية القديمة، وأعلنت أن هذا الرجوع يعني أنها عادت أو رجعت إلى التحرر في الإيمان وإلى الاتساع في آفاق الفكر، وإلى مواجهة التطور والتحول والنمو الاجتماعي بما يوافق مصلحة الكنسية ومصلحة الأتباع، والكاثوليكية اسم أطلقه على الكنيسة المذكورة القديس أغناطيوس مطران أنطاكية سنة ١٠٧ ا. د، وهي تعني شمولية أو عالمية، وحينما عادت الكنسية الكاثوليكية إلى ما

عادت إليه، ظهرت مع هذه العودة وبعدها:

- الراديكالية الكاثوليكية: وهي مزيج من النظريات والأنظمة الثيولوجية ترتبط بالعقل والتفسير والانتقاد وتسير في حركة علمانية سياسية.

- مذهب العصمة: Fondelmentist أو مذهب الحرفية، حركة البروتستانت في تطور قرن العشرين، وهي تأخذ بالعقيدة القائلة إن الكتاب المقدس تحيط به العصمة من الخطأ، وخاصة في قضايا العقيدة والأخلاق والتاريخ والغيبيات، وقصة الخلق، وولادة المسيح من مريم العذراء، وظهوره ثانية والحشر الجسدي، والعصمة مأخوذة من العقيدة الإسلامية للقرآن والنبي محمّد والأئمة الاثني عشر عند الشيعة من المسلمين.

- الحركة الليبرالية التحريرية: Lebrelisms وهي فلسفة أو عقيدة تقول بتجاوز الحدود الطبقية وعدم التقيد بالتقاليد والتخلص من كل شيء له اتصال أو علاقة بالقديم، وتصر على المحتوى الروحي والأخلاقي، وهي شبيهة بحركة «الإآله يخاف مني» وبالحركة المثالية Modernation Mode، وهي تهدف إلى التجدد بحيث يتسنى للفكر الكاثوليكي أن يقوم بتغيير وشرح تعاليم الكنيسة، وفقاً لآراء ومذاهب الفلسفة الطبيعية والعلمانية والعصرانية البروتسنتية التي هي عندهم عبارة عن نزعة لاهوتية تحريرية ترمي إلى قطع الصلات بالقديم والبحث عن صورة أو شكل تعبيري يوافق المجتمع الجديد، في تفسير وشرح جديد، لأن النمو الحضاري - الذي ظهر من تحرك الكنسية - أوجد إعراضاً وبعداً عن الدين، وأوجد الشك في أن يكون السيد المسيح هو الإآله أو الرب، وأن يكون وُلِدَ من مريم العذراء بدون اتصال أو اجتماع جنسي، يضاف إلى ذلك عوامل النفور والرفض وعدم القبول في الدعوة - وفي العقيدة - إلى قيام المسيح من القبر وعودته ثانية، وصلبه وآلامه وموته لتخليص البشر من الخطيئة.

ومن رأي العلّامة المفكر «توماس باين» Thomas Paine أحد علماء القرن السابع عشر، أنه أنكر في ذهابه إلى ما وراء الأبعاد الثيولوجية الكاثوليكية وغيرها، وأنكر على أهل الدين أن يكون الإلّه كلّم أحداً من الأنبياء وغير الأنبياء، وأكّد في مقارنة بين العهد القديم والجديد، والتعاليم التي ظهرت بعد كتابة «الكتاب المقدس» من شعراء إسرائيليين ومن لاهوتيين مسيحيين، أن (الوحي) Revelation الذي يعتمد عليه الكهنوت النصراني مع النبوءات ـ قديماً وحديثاً ـ لا أساس له في اعتبار أن الهيكل الجسمي للإنسان غير مجهز بالخاصية والحاسية لتلقي الوحي الذي ينقل كلام الإلّه إلى الأنبياء، وكلام الرب ـ غير كلام الناس ـ يكون ثقيلاً على السمع والعقل، ولا يمكن لأي فرد أن يتحمل تأثير قوة الوحي، التي تفوق القوة الذرية أو الألكترونية. فالوحي في مفهومه الطبيعي هو هذا الوجود، وكلمة الرب هي الإنسان الذي أوجده فوق هذه الأرض.

وينكر هذا العلّامة، على الدين المسيحي أن يكون له علاقة بالمسيح، لأن اللغة تؤكد أن الأبعاد الزمنية جعلت السيد المسيح في ناحية تاريخية ذابت كما تذوب الأطياف في الظلمة، ويسوع الناصري كان يتكلم العبرانية، وجاء كما نسبوا إليه لخلاص العالم من الخطيئة بالتضحية الشخصية، وهو في الواقع، وفي زمنه، كان بحاجة إلى من يخلصه من ملاحقة اليهود والرومان والصلب، وإذا كان التسليم القائم على قاعدة الافتراض أن أقوال المسيح وتعاليمه، كانت قد كُتبت أو جُمعت كإنجيل أو كتاب مقدس، بعد مرور الأربعمئة سنة الأولى، فالإنجيل كُتب في العبرانية وفي الآرامية ومن الآرامية إلى اللاتينية ومن اللاتينية إلى بقية اللغات، ومن الطبيعي أن اللغة والكلمة تفقد الصحة في المعنى إذا تُرجمت وتحولت من لغة قديمة طال عليها الأمد، إلى لغة جديدة لها مفاهيم وتعابير جديدة.

ومن هذه النتائج التي توصل إليها العلامة «توماس باين» في أبحاثه ومقارناته بين الكتب السماوية ـ وعنده أنها كتب أرضية ـ في التأكيد، في قناعة واقتناع، إن الأديان والأناجيل الكثيرة والكتب الثيولوجية القديمة والجديدة، هي من صنع الإنسان وإلى الإنسان.

هل المسيح هو ابن الإله، أو هو إله في الحلول؟..

لم يكن في استطاعتنا، وقد أخذنا الحياد الإيجابي في البحث، أن نقطع أو أن نحكم بالذي تقدم من آراء ونظريات العلماء المسيحيين وغيرهم، لأننا نعتقد أن لكل امرىءٍ حق التصرف والحرية في مواهبه وفي الذي يعتقد وفي الذي يقول، أو الذي لا يعتقد أن يقول، وخصوصاً إذا كان الموضوع ـ موضوع المسيحية ـ الذي هو كما قال عنه أحد العلماء النصرانيين بحر هائج أو أقيانوس ثيولوجي يغرق به الإنسان إذا هو أكثر من التفكير والاعتقاد، وليس من الضروري أن نأخذ جانب التدليل على الحقيقة أو غير الحقيقة، فالحقائق قد تكون ضاعت في التاريخ، ونجد مع هذا الرأي أن المسيحية قطعت مرحلة في التاريخ والنمو الجيولوجي الاجتماعي، جعلها في حصانة أو مناعة من أن يؤثر عليها أقوال الفلاسفة والكتّاب وأهل الإلحاد، ولقد أصبحت في واقع امتدادها بعد أن تطورت فيها العقائد والتعاليم، بعيدةً نوعاً عن الذي جاء به المسيح أو دعا إليه وهو معروف في التوراة والقرآن.

والذين اتبعوا يسوع الناصري في أيامه، مضوا مع أيامهم وانحلوا إلى تراب أو غبار في التاريخ، وذهب معهم بعض ما تركوا أو كتبوا، فالعهد الجديد، على ما جاء في العقيدة النصرانية، قد حلّ في الاعتبار المسيحي، مكان العهد القديم لأنه قديم، تقادمت عليه الأحقاب، والمسيحية الجديدة وقد انتشرت ونمت وامتدت مع نفوذ واسع قد يكون عالمياً في الشكل، تركت المسيحية القديمة من عهد بولس إلى اللاحقين به ـ كذكرى مقدسة ـ مسجلة على صفحات بعض الكتب، وإلى جانب هذا النمو الحضاري الثيولوجي، نهضت الكاثوليكية بنوعٍ خاصٍ، وتكاثرت واستقلت وقويت حتى صارت شبه دولة أو حكومة، وكلمة كاثوليك أخذت مكان كلمة المسيحية القديمة Christo وهي كلمة إغريقية معناها المعمّد أو الممسوح بالزيت، كما كان يفعل يوحنا المعمدان مع الذين كانوا يعتقدون، والذين كانوا لا يعتقدون، وكان أن تطورت وبرزت مع هذا الترك وهذا الإسقاط العفوي الذي قد يأتي بمعنى آخر غير معنى الإسقاط، أي معنى «الثيوقراطية الحكومية» التي جعلت شعارها التثليث في شخص ابن مريم، وهي

بالنظرِ إلى أحوال المجتمع الإنساني أصبحت منظمة عالمية أو «ديناً عالمياً» إذ أثبتت الكاثوليكية مع هذا التحول أنها قد تصلح لقيادة الإنسان في الظلمات المادية، وهذا ما حقق نبوة رئيس الكهنـوت اليهودي الذي حرّض الحاكم الروماني على محاكمة السيد المسيح وصلبه «ليموت واحد ولا تموت أمة»!.

هل المسيح ابن الإلّه؟

لقد كانت كلمة «ابن اللّه وأبناء اللّه وأبناء إبراهيم وأبناء آدم» معروفة كما تقدم عند الوثنيين القدماء، وبقيت هذه الكلمة المركبة من ابن وإلّه، معمولاً بها كلقب كريم، وتقديس وتشريف في الثيولوجيا أو الأساطير الذاهبة، فالمسيحيون يقولون إن السيد المسيح هو ابن الإلّه وهو الأب والابن والروح القدس ـ إله واحد، وهي على ما نرى كلمة موروثة عمل بها اليهود فقالوا إن «عزرا» أو العزير هو ابن الله قبل النصرانية التي تقوم عقيدتها على التثليث، وعند اليهود أن يسوع الناصري هو ابن داود بالذرية والنسب، وابن يوسف النجار اليهودي بالتربية والتبنّي أو غير ذلك كما زعم أهل الإلحاد، ولا نصدق به، وهو ابن الإنسان، في أن اليهود يقولون ـ كما سبق ـ أن عزرا هو ابن الله، ويتركز هـذا القول على الفـردانية ـ أي إلّه واحد لليهـود ـ وعلى الوحدانية، وحدانية العنصر وهي غير الفردانية بل تجري في معين واحد في الحلول، وعلى الاثنانية، بمعنى أن موسى يأتي ثاني الإلّه، فـالفردانيـة والوحدانية وثاني الإلّه ثلاثة في واحد، والتثليث اليهودي يضارع التثليث المسيحي ويسبقه في مراحل الاعتقاد.

وكلمة المسيح، سبقت ظهوره بأعـوام وأعوام، وهـو الشخص أو المصلح الذي كان ينتظر ظهوره العبرانيون والإسرائيليون بعد وفاة موسى، غير أن المسلمين، يعتقدون وفقاً لما جاء في القرآن أنه نبي واسمه عيسى ابن مريم، أما كلمة «يسوع» Jesus فقد اشتقت من اللغة الإغريقية يوم ترجموا «الإنجيل» إلى هذه اللغة وفي الإنجيل أقوال وأحوال للسيد المسيح حذّر فيها الأتباع من أن يطلقوا عليه كلمة «رب أو إلّه» فقد جاء في إنجيل متى،

الإصحاح التاسع عشر، أن رجلاً تقدم إلى يسوع، وجثا على قدميه وقال له: «أيها المعلم الصالح ماذا أعمل لأرث الحياة الأبدية؟ فأجاب يسوع لماذا تدعوني صالحاً إنه لا صالح إلاَّ الله وحده».

ومن أقواله للتلاميذ: «أما القدرة فهي من مزايا الله دون سواه» وورد عن يوحنا المعمدان أنه روى لأصحابه أن السيد المسيح أو يسوع كان يقصد إلى جبل الزيتون ـ كما ورد في الإنجيل ـ حيث يقضي هزيعاً من الليل في الصلاة، فلمن كان يصلي؟.

وأضاف هذا السيد العظيم: «إن تعليمي ليس هو لي، بل للذي أرسلني» فهو بهذا التصريح والقول الواضح صاحب رسالة وهو نبيّ كبقية الأنبياء أصحاب الرسالات، لا ابن الإلّه ولا هو إلّه... وسأله يوماً أحد الفريسيين: «لمَ تلاميذك لا يجرون على سنة الشيوخ ولكن يأكلون الطَعام بأيدٍ نجسة» فأجاب يسوع: «تركتم وصايا الله وتمسكتم بسنة الناس». (انظر إنجيل متى).

المسيح نبي لا إلّه!.

وفي الأناجيل التي تزيد على السبعين إنجيلاً وكلها تأتي متنوعة في الشرح والنقض والتعارض وذلك في نقل الرواية والحديث عن السيد المسيح، تشير إلى أنه نبي وصاحب رسالة كبقية الأنبياء، وقد جاء لإكمال أعمال الأنبياء والرسل الذين سبقوه من آدم إلى نوح إلى إبراهيم وموسى، وخاصة لإتمام أعمال الأنبياء الأربعة الكبار: أشعيا، وأرميا، وحزقيال، ودانيال، ويلحقهم بحمل الرسالة الأنبياء الصغار وهم اثنا عشر نبياً أو نقيباً.

وجاء في إنجيل لوقا عن ولادة يسوع: «وأنت أيها الصبي فإنك نبي العلي تدعى» والأدلة كثيرة على نبوّته التي كانت مميزة عن النبوات المعروفة عند الإسرائيليين ـ والأنبياء ـ وهم كثيرون، فقد كانوا يطلقون كلمة «نبي» على الذي يقول قولاً أو يرى حدثاً في العقل الباطن، وقد يصدق قوله بالصدفة الطبيعية مع رؤياه وقد لا يصدّق، وتناول مثل هؤلاء «أرميا» في أقواله

ـ الإصحاح الثالث والعشرون: «ففي أنبياء السامرة رأيت حماقة قد تنبأوا بالبعل وأضلّوا شعبي إسرائيل، وفي أنبياء أورشليم رأيت ما يقشعرّ منه الفسق والسلوك في الكذب، لأنه من أنبياء أورشليم خرج الكفر إلى الأرض»..

وعندما كانت مملكة إسرائيل في أوج الحضارة والرقي، كان لمثل هؤلاء وزارة أطلقوا عليها «وزارة الأنبياء» ورفضت دولة إسرائيل القديمة ـ مع وجود هؤلاء الأنبياء ـ الاعتراف في سفر تثنية الاشتراع من أسفار التوراة الذي يشير إلى رفع عقيدة الوطن القومي والسيادة في هيكل أورشليم، بحجة أن العهد القديم، أوضح أكثر من مرة، أن أرض المعاد هي تابعة للشعب الإسرائيلي، وقد أعطاها الرب لهم ولذريتهم من يوم إبراهيم إلى أيام موسى.

ولقد أصدر الكهنوت الإسرائيلي الذي كان ذا سلطة مطلقة فوق الأتباع، قانوناً شدّد فيه على التمسك بذلك الاشتراع، ولليهود جيل في السماء وجيل في الأرض.

ونجد بالعودة إلى أجزاء البحث، وفي الذي ورد عن يوحنا المعمدان في الإنجيل: «إن روح الرب كانت تتحرك فوق الماء» أكثر من تعارض مع الواقع المسيحي، فالإلّه الذي تحركت روحه فوق الماء، هو غير السيد المسيح، والمسيح كما قدّمه لنا تاريخ النصرانية، أنه يهودي الأصل، وهو مختار لتأدية الرسالة في الولادة والنشأة والتربية والتوجيه، وهو نبي في الدعوة إلى دين الله، ويأتي اسمه عند المسلمين في كامل الاحترام والاعتبار والقداسة، إنه نبي وهو واحد من أولي العزم من الأنبياء.

ويظهر أن النصرانية، على ما يظهر من تطورات الأحداث التاريخية، لم تكن مرتبطة بعد الانفصال بيسوع الناصري أو مرتبط بها ولقد قالت اليهود إن ابن مريم ولد يهودياً وعاش يهودياً ومات يهودياً...

ولو أن المسيحيين آمنوا واتقوا بما آمن المسيح بالذي أنزله الله، وعمدوا إلى إسقاط مبدأ التثليث بصرف النظر عن الشك والارتباك الفكري بهذه العقيدة، لكانوا التقوا مع اليهود والمسلمين حول عبادة إلّه واحد هو الله،

ومن المعروف قبل المسيح أن عبادة الأشخاص كانت معروفة في العصور القديمة ومنهم فرعون مصر.

وذكر الإنجيل عن Melchizede أنه كاهن الرب، بل هو الملك السالم الذي بارك إبراهيم على انتصاره على المروديين، وهو بالإضافة إلى ذلك شخص خيالي أو أسطوري على ما جاء في الأبوكرايفية اليهودية، ما له أب، ولا له أم، ولا له ذرية.

المسيح والروح القدس في القرآن:

﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ﴾.

﴿إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ ۖ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ۖ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ ۚ انتَهُوا خَيْرًا لَّكُمْ ۚ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ۖ سُبْحَانَهُ أَن يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ ۘ لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۗ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا (١٧١)﴾.

﴿لَّن يَسْتَنكِفَ الْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ ۚ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا﴾ (سورة النساء/ ١٧١ - ١٧٢).

﴿مَّا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ ۖ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ ۗ انظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الْآيَاتِ ثُمَّ انظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ (سورة المائدة/٧٥).

﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا ۖ وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ ۖ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي ۖ وَتُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ بِإِذْنِي ۖ وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِي ۖ وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَنكَ إِذْ جِئْتَهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي

قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَٱشۡهَدۡ بِأَنَّنَا مُسۡلِمُونَ ﴾ (سورة المائدة/ ١١٠ ـ ١١١).

وفي سفر أشعياء ـ الإصحاح الحادي عشر:

«ويخرج قضيب من جذع ميسيّ، وينبت غصن من أصوله وستحل فيه روح الرب، روح الحكمة والفهم روح المشورة والقوة روح المعرفة ومخافة الرب».

وفي سفر دانيال ـ الإصحاح الخامس من قول الملكة إلى ابن «نبوخذ نصر» الفارسي:

«يوجد في مملكتك رجل فيه روح الآلهة القدوسيين» وتعني بهذا النبي دانيال الذي كانت أيامه قبل أيام المسيح، وأضاف المسلمون إلى ما ورد في القرآن عن ابن مريم أن ولادته لا يمكن تحكيم العقل في فهمها ومعرفتها لأنها معجزة إلّهية، والمعجزات من هذا النوع هي فوق العقل وخصوصاً أنها صادرة عن القدرة العليا، ولعل الله أراد ـ بل أراد ـ أن يؤكد بالتورية في شكل هذه المعجزة أن البعث أو الحشر هو حقيقة واضحة، يوم يُبعث من في القبور، وكانت البيّنة أو الحجة على الناس أو التجربة كما وقعت في الإرادة ولادة يسوع الناصري من غير أب.

ومع أن الحوار والنقاش بين المسلمين والنصارى واليهود الذي دار ويدور حوله ألوهية ابن مريم، لم يؤدِ إلى نتيجة إيجابية لعدم وجود النيّة والعزم في البحث عن واقع هذه النتيجة، فقد بقي المسيحيون على عقيدتهم في التثليث، وذهبوا في هذا البقاء إلى ما وراء المعجزات، وذلك بإلحاق الازدواجية بالثالث أي اللاهوت والناسوت كما جاء في تاريخ العالم، للعلامة «لويس» فالناسوت هو شكل من أشكال الناس كان يأكل وينام ويتصرف تصرف الإنسان بهذا الشكل الغريب عن الإنسان، واللاهوت هو صفة روحية أو طيف إلّهي للمسيح، لا يمكن رؤيته، لأنه يتعالى على شكل وعقل الإنسان.

وتلك القواعد الثيولوجية وفلسفة اللاهوت والناسوت التي نشرتها المسيحية في المؤلفات الكثيرة عن السيد المسيح، كانت تؤخذ على الظاهر من فلسفة اليهود التي ترجع وتؤخذ وترتبط بالتوراة، وإلى كتاب «الكابالا»

Kabalah الذي يشرح التوراة بما يقارب فلسفة اللاهوت المسيحي، ولقد أخذ أتباع السيد المسيح «الكلمة» والمسيح هو كلمة الله عنه المسلمين ألقاها إلى مريم، عن الإغريق الذين كانوا يعتقدون أن عبادة الإله بالكلمة هي عبادة صحيحة لأن الكلمات خالدة ولا تفنى بالاستعمال، ولأن الإله لا يفنى ولا يموت. وهكذا كانت الفكرة المسيحية، وما زالت، في أن اتصال الإله بالأرض، كان عن طريق الكلمة والكلمة هي ابن الإله أو الروح القدس.

وجدير بالبحث أن نرجع إلى موضوع ولادة السيد المسيح عند المسلمين الذين يعتقدون أن هذه الولادة، بالإضافة إلى أنها كانت معجزة بدون أب، هي دليل وتصديق وبيّنة للذي جاء عن الأنبياء من عقيدة البعث والنشور والقيامة والحساب ـ كما سبق ـ بل هي تأكيد على تحقيق وصحة الدعوة الواردة في التوراة والإنجيل والنشأة الآخرة بعد النشأة الأولى، ويؤكد القرآن الكريم أن الصلب لم يقع على يسوع بمعنى الصلب الجسدي كما جاء بهذه الآية:

﴿ وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِن شُبِّهَ لَهُمْ ﴾ (سورة النساء/١٥٧).

والآية الثانية في القرآن:

﴿ إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ ﴾ (سورة آل عمران/٥٥).

ففي الآيات القرآنية التي نزلت بالسيد المسيح ـ وهي كثيرة ـ تشريف وتكريم لهذا السيد، حتى لا يكون اسمه وذكره في موضع التعريض والتحقير والإهانة في وقوع الصلب، وهو نبي ومرسل وجاء إلى هذا الوجود بالإرادة المعجزة، ويقول المفسرون من المسلمين إن كلمة متوفيك، تعني أن الله وفّى له الأجر والثواب في الدنيا والآخرة، وأما الرفع فقد حدث كما حدث البعث في الولادة، والرفع كان بالروح والدرجة والمكانة... وجاء في الأصول الإسلامية «إذا تعرضت الفكرة إلى الاحتمال سقط الاستدلال،

والأمور الاعتقادية تقوم على القطع والأخذ بالنص القائم على غير القطع، وبين ذلك يحدث اليقين أو الإيمان الذاتي المطلق».

وفي الإنجيل: «جاء الملاك وقال لمريم ها أنت تحبلين وتلدين ابناً وتسمينه يسوع إنه يكون عظيماً» كما ظهر الملاك لزكريا «امرأتك ستلد لك ابناً فسميه يوحنا به يكون لك فرح وابتهاج وبمولده يفرح الكثيرون، لأنه سيكون عظيماً أمام الرب، ولا يشرب خمراً ولامسكراً ويمتلىء بالروح القدس وهو بعد في بطن أمه».

تناقض الأقوال والعقائد القديمة:

الختانة: يعتقد اليهود أن الختان كان في أيام إبراهيم الخليل وهي عهد الـرّب المتبادل بينه وبين إسرائيل ـ كما جاء في سفر التكوين: «الختانة هي علامة عهد بين الصبي وبين قومه لكي يكون له الحق في الانتساب إلى شعب الله المختار». والختانة يُعمل بها عند المسلمين لا عملاً عقائدياً، بل هي عندهم وراثة عن إبراهيم وهي ضرورة صحية.

الختانة عندالمسيحيين: أبطل النصارى الختانة كما أبطلوا الاعتقاد في العهد القديم، كما جاء في تعاليم بولس، لأن اليهود كانوا وحتى الآن يحرمون الاختلاط بالغرباء ـ الجانتايل ـ لأن كل غريب هو نجس، ونشأت هذه العقيدة من أيام يوسف بن يعقوب يوم كان وزيراً للمالية في مصر، وكان الاعتقاد المصري القديم يقول بنجاسة العبرانيين. . .

الخمر: جاء في الإنجيل أن يسوع الناصري حوّل الماء إلى خمر في عرس قانا الجليل، مع أن الخمرة محرمة على الأنبياء، والدليل واضح في الإنجيل في قول ملاك الرب ـ كما ورد عن ولادة يوحنا المعمدان: «ولا يشرب خمراً ولا مسكراً».

إبليس ويسوع: ويأتي ذكر يسوع وذكر إبليس في الإنجيل «حينئذٍ أخذه إبليس إلى المدينة المقدسة وأقامه على الهيكل وقال له إن كنت ابن الله فالق بنفسك إلى ما أسفل لأنه مكتوب أن يوصي ملائكته بك فتحملك

على أيديها لئلا تصطدم بحجر رجليك».

وأجاب يسوع: «مكتوب أيضاً لا تجرب الرب إلّهك».

التجسيد والحلول: قال يسوع لأحد الفريسيين ـ كما ورد في الإنجيل ـ «الحق الحق أقول لك إن لم يولد أحد من الماء والروح فلا يقدر أن يدخل ملكوت الله، إن المولود من الجسد إنما هو جسد والمولود من الروح إنما هو روح».

الزنـا: جاء في شريعة موسى أن الزاني والزانية يرجمان، ـ ويعمل بهذا التشريع عند المسلمين[1] ـ وفي قصة مريم المجدلية في الإنجيل قال المسيح: «من كان منكم بلا خطيئة فليبدأ برميها بحجر»..

وقال السيد المسيح «سمعتم أنه قيل لا تزنِ، أما أنا فأقول لكم إن من نظر إلى امرأة ليشتهيها فقد زنى بها في قلبه».

عظة الجبل: وفي عظة الجبل التي وردت في إنجيل متى، نقضٌ وإبطالٌ لبعض ما ورد من شرائع الناموس وشريعة موسى وشريعة حمورابي والشريعة الرومانية...

خبز الحياة: يقول يسوع في الإنجيل: «أنا خبز الحياة آباؤكم أكلوا المن في البرية وماتوا، هذا هو الخبز النازل من السماء ولكي لا يموت كل من يأكل منه أنا الخبز الحي الذي نزل من السماء إن أكل أحد من هذا الخبز يحيا إلى الأبد». «ومن يأكل جسدي ويشرب دمي فله الحياة الأبدية وأنا أقيمه في اليوم الأخير».

وفي سفر التكوين ـ الإصحاح الثامن عشر، عندما جاء الملاكان إلى خيمة إبراهيم الخليل «فأسرع إبراهيم إلى الخباء وإلى سارة وقال هلمّي بثلاثة أصواع من دقيق سميذ فاعجنيها».

ومن عادة اليهود أن يعجنوا هذه الكمية سيراً مع طريقة إبراهيم التي

---

(١) الزاني والزانية المحصنان يرجمان، والجلد يقع على الأعزبين الزانيين.

كانت من مفهوم الضيافة قبل أيام إبراهيم، وهي عندهم ـ أي اليهود ـ خبز الحياة. . .

ابن البشر: قال يسوع: «الحق الحق أقول لكم، إنكم سترون السماء مفتوحة وملائكة يصعدون وينزلون على ابن البشر». وابن البشر كما ورد في الإنجيل هو يوحنا المعمدان أو يحيـى بن زكريا.

الحوار مع المرأة السامرية: قال يسوع: «إن الله روح والذين يعبدونه فبالروح والحق ينبغي أن يعبدوه».

طقوس الكنسية: كان من طقوس وعادات اليهود القدماء، أن يمشي أحد الكهنة ـ كما جاء في العهد القديم ـ القائمين على خدمة الهيكل إلى «بركة سلوام» حاملاً القارورة الذهبية ليملأها ماءً بين هتاف الجماهير، ونفخ الأبواق، وهذه القارورة هي رمز إلى الماء الذي شرب منه الشعب الإسرائيلي في عبور صحراء سيناء والأضواء والشموع ترمز إلى السحابة المضيئة التي رافقت اليهود بتلك الصحراء، والقارورة الذهبية عند المسيحيين هي لإحراق البخور والأضواء والشموع في الدوران حول الهيكل مأخوذة عن التقاليد التي كانت عند اليهود.

نور الحياة: قال يسوع: «أنا نور العالم من يتبعني فلا يمشي في الظلام بل يكون له نور الحياة» وورد عن زكريا في الإنجيل: «ويكون يوم وهو معلوم عند الرب ليس نهار ولا ليل بل يكون وقت المساء نور» وقالت اليهود كما ورد في العهد القديم «إن موسى هو أعظم من المسيح لأن موسى كلمه الله، أما يسوع فلم يكلمه الرب!».

النار على الأرض: قال يسوع في الإنجيل: «إني جئت لألقي ناراً على الأرض، وما أريد إلاَّ إضرامها أتظنون أني جئت لألقي سلاماً؟ أقول لكم بل شقاقاً سيشاق الأب الابن، والابن الأب، والأم البنت، والحماة كنّتها، والكنّة حماتها».

الأكليروس المسيحي: جاء في أحد المزامير أن القضاة قبل المسيح كانوا يُخاطبون بالآلهة لأنهم يستمدون سلطتهم من الرب ليحكموا بالعدل بين الناس. . .

يسوع نبي: في سفر ارميا الإصحاح الأول قال الرب: «قبل أن أصوّرك في البطن عرفتك وقبل أن تخرج من الرحم قدستك وجعلتك نبياً للأمم».

الطلاق: جاء في سفر تثنية الاشتراع الإصحاح الرابع والعشرون أن الشريعة الموسوية تجيز الطلاق لشروط معيّنة: «إذا اتخذ الرجل امرأة وصار لها بعلاً ثم لم تحظ عنده لعيبٍ أنكره عليها فليكتب لها «كتاب طلاق» ويدفعه إلى يدها ويصرفها من بيته».

وقال يسوع: «إن موسى لأجل قساوة قلوبكم أذن لكم أن تطلقوا نساءكم ولم يكن من البدء هكذا وأنا أقول لكم من طلّق امرأته إلّا لعلّة زنى، وأخذ أخرى فقد زنى» إنجيل متى.

مارسيون والمسيحية:

وُلدَ هذا العلامة الثيولوجي المسيحي، في قرية صغيرة قريبة من البحر الأسود في نهاية القرن الأول المسيحي، وهو الذي وضع أو كتب «إنجيل الإلَه» على أنه بالإضافة إلى ذلك كان يعتبر ذاته بالمقارنة بين عصر وعصر، وبين ثقافة وثقافة أنه هو «المسيح الحق» وحاول أن يقنع الرؤساء الثيولوجيين في روما في دعوته إلى المسيحية في تكييف دعواه أنه هو المسيح أو أن المسيح قد حلً فيه، ولقد غضب علماء المسيحية حالما قرأوا إنجيله ووصلت إليهم مزاعمه فلاحقوه وأهانوه واتهموه بالإلحاد وفي أنه يعمل على القضاء على دين يسوع!.

ولقد صرّح أكثر من مرة، أنه يرفض إلَه اليهود وشرائع هذا الإلَه، «العين بالعين والسن بالسن» وأضاف أن إلَه اليهود، هو إلَه الوصايا العشر، كما رفض بشدة قول المسيح في الخضوعية: «إذا ضربك على الخد الأيمن فأدر له الخد الأيسر» صارخاً بصوت ملآن بشعور القوة ولماذا السكوت؟

عندما يقع الاعتداء، إن هذه التعاليم هي تعاليم إلّه حقير ذليل خائف. . .

ومارسيون في بدء دعوته إلى المسيحية الجديدة هو الذي أسس الأرثوذكسية النصرانية، وباشر دعوته في الرد والانتقاد على ما ورد ونقل من تعاليم ابن مريم التي منها أنه جاء لإكمال الناموس - أي التوراة - ومن الواقع، كما قال هذا العلامة، إن المسيح جاء للقضاء على هذا الناموس، ثم تناول الدعوة إلى ملكوت السموات التي دعى إليها يوحنا المعمدان والسيد المسيح، وقال إنها دعوة لتطهير النصرانية من اليهودية. . .

كان مارسيون يعترف بكل احترام بإنجيل لوقا، وفي بعض ما جاء في رسائل بولس، ويحمل على العهد القديم، وحذر من العمل به لأنه عهد قديم زائل.

ولقد قدّر لدعوته وانتقاداته للمسيحية واليهودية، أن تمتد وتنتشر في أوروبا، وخاصة أنه رفض بجرأة وبسالة عبادة إلّه اليهود وإلّه النصارى الذي هو «إلّه شرع مجهول» وعنده أن الاعتراف بإلّه الخير الذي يمكن عبادته، بحيث يجب أن تقوم هذه العبادة على الإيمان الخالص، لا على الفهم الغامض المبهم المختلط.

إنَّ إلّه الإنجيل - كما يعتقد مارسيون - هو إلّه موضوع أو مخلوق في الصورة والتصور، وليست له أي علاقة إلّه الخير، وتساءل أكثر من مرة وربط سؤاله بقاعدة المنطق، من يمثل إذن إلّه الخير؟ والجواب:

- يجب أن نقول إنه لا يمثل أحداً.
- لا علاقة له ولا عناية ولا اهتمام في أي شيء وفي كل شيء على هذه الأرض في المفهوم الروحي أو الصعيد الروحي.
- ما حاول هذا الإلّه أن يحدد الحوادث أو أن يوجد الطبيعة التي تنزل الأضرار بالإنسان. .
- إن هذا الإلّه لم يكن حدثاً لشيء ولا سبباً لأحداث، ومن أجل ذلك، أكّد في عقيدته إبطال مفاهيم الوحي والأنبياء والنبوءات المذكورة في الإنجيل.
- ويعتقد أيضاً أنه لا يمكن لأحد أن يعرف إلّه الخير، ولا أن يدركه، وهو

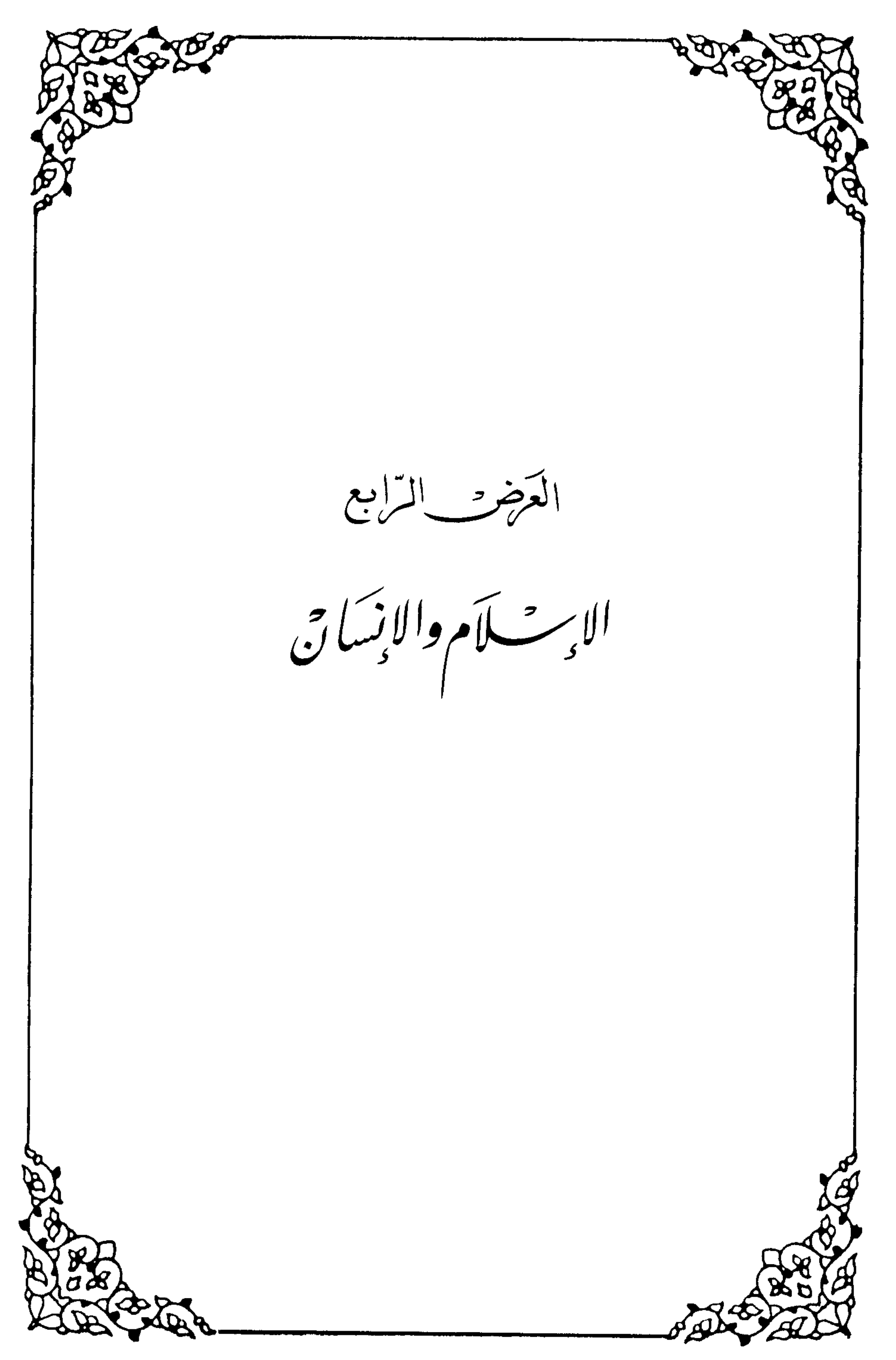
الذي أرسل ابنه يسوع ليخلّصنا من إلّه اليهود والنصارى. وحاول مارسيون في فلسفته الثيولوجية ذات الانتقاد البارع اللاذع - التي قال عنها المتعصبون بعد موته، إنها فلسفة إلحادية - إن الأرض لا قيمة لها عند إلّه الخير، ولليهود والنصارى أن يعتقدوا ما شاء لهم الاعتقاد، فإن الأرض والجسم والحياة الإنسانية عديمة المعنى.

وإذا كانت المسيحية وغير المسيحية، كما يقول مارسيون، تشجع على الالتقاء الجنسي للتكاثر المسيحي أو إنتاج الإنسان النصراني، فمن رأيه أنه لا يرفض ولا يعارض هذه العقيدة في التقاء الذكر والأنثى، بل يرفض ويعترض بشدة على النتيجة في تأثير هذا الالتقاء.

وتلتقي نظريات وآراء مارسيون مع عقيدة المانيين الفرس والقمريين العبرانيين والرهبان المسيحيين القدماء، وتلتقي أيضاً - وبنوع خاص - مع عقائد البوركاتيين الذين كانوا في أيام المسيح وقالوا عنه إنه إنسان أرضي، وهو ابن يوسف النجار وذلك بالالتقاء الجنسي مع مريم، لأن جوهر عقيدتهم يقوم على أن الجسم هو هيكل أو سجن، والإنسان يواجه حسابه وعقابه في تفاعلات هذا الجسم لتخليص الروح من جميع الآثام والخطايا.

وكان هؤلاء لا يؤمنون بالبعث - وهم فرقة من اليهود - إذ كانت عقيدتهم توضح في أنه لا يمكن أن تجبر الروح - أي روح - لتحيا في جسمٍ آخر.





العرض الرابع

الإسلام والإنسان



الإسلام والإنسان

المسؤولية الإسلامية:

يُرجع بعض العلماء ومنهم «توينبي» الإنكليزي Toynbee المسؤولية الإسلامية الأولى وجذور «نبتة» الإسلام إلى القرن العاشر قبل المسيح يوم كان المجتمع السرياني زاهراً ونامياً في عصر الملك سليمان، وكان للوثنية أصول وفروع إلاَّ أن القبائل السريانية والعبرانية التي كانت توالي الملك سليمان كان لها إيمان وعقائد شبيهة في الممارسة والعبادة بالإسلام، ولقد تتابعت الأحقاب وراء الأحقاب وظهر أكثر من مذهب وفلسفة وديانة إلى الوجود، حتى إذا ظهر النبي محمّد، وكان من المنتظر ظهوره بحسب نبوءات الإنجيل، اكتملت المقدمات الإسلامية وبرزت موحدة في دين واحد هو الإسلام.

لم يُقدَّر للإسلام أن يظهر كما ظهر في مرور تلك الأحقاب، لأن الادعاء بالنبوة الكاذبة، والقوى الغيبية كان يومئذٍ يؤدي إلى الشك بكل شيء وعدم اليقين، وكل شيء يُعطى له قياس موضوعي، لا بد له أن يحد من قيمة المعطيات الدينية، وأن يؤخر تحت ضغط العقائد المزورة قدرة الدين في مقدمته الأولى على الظهور، وكانت الخصائص القبائلية والعنصرية والقومية تسير إلى جانب المؤثرات البيولوجية ومؤثرات الجغرافيا وتكثر من تأليف ما قدر لها أن تكثر من الروايات الثيولوجية والأخبار ذات الشكل المتعدد الألوان والأبعاد، من أجل ذلك وقع العقل في حيرة، وشعر القلب

بـالارتـيـاب ، وقد يتضاعف الشك ويذهب الظن مذاهب شتى عندما يحصل تشويش في وظائف العقل، أو اختلال في النظام العقلي من شدة الأنانية الشخصية والفقر والظلم والسلبية الاقطاعية في الوجود.

بقي الإسلام في مقدماته الأولى صامتاً ساكتاً في بعض القلوب لأن العقلية القديمة، لا يمكنها احتمال ظهور الإسلام بدورة واحدة ولأن الإنسان القديم كان لا يعرف نفسه الضائعة، فكيف يمكنه معرفة دين قوي ثري في الشرائع والواجبات والمحرمات والمكروهات والعبادة الصعبة، ولقد أشار الفيلسوف الإغريقي «سقراط» إلى هذا الاحتمال في قوله: «أنا أعرف أنني موجود ولكن لا أعرف شيئاً عن هذا الوجود» وسبقه الفيلسوف الصيني «لوتزو» حيث قال: «أنا لا أعرف أن أحداً يعرف حال الأفضل والأحسن».

وقال الشاعر الإنكليزي نبتون شاعر البلاط في عهد الملكـة فيكتوريا «أنا لا أعرف ولا أفهم ولكنني أحب»، هنا نجد في الاستنتاج والاحتمال أن اللغة القديمة أخذت دورها في المغالطات وتحريف المعاني التي تأثر بها الفكر القديم والعقيدة والشخصية.

كان ذلك كله مع الأشياء التي لا يتسع البحث لمعالجة المشاكل فيها، من الفرضيات الخاطئة على شعور الإنسان، ومن المعروف أن للقول حرية وللفكر حرية وقد تختلف بالإنتاج وقد تؤدي أحياناً إلى تشويه الأدلة، وإن كان باستطاعة العقل أن يحل المشاكل المتعددة إذا لم تكن محاطة بالسياج العقائدي والتحريم الديني الذي يجعل الاستجابة لنداء التفاعلات النفسية مستحيلاً إلّا بالمخالفة.

فالدين يومذاك أو التدين بتعبير أصح، كان وسيلة والوسيلة فيها معنى التوسل، والتوسل فيه معنى العبادة، ولكنها عبادة خاطئة لأن العقل القبائلي والفكر العنصري القديم، ما كان له القدرة أن يعرف وأن يفهم وأن يتصرف وقد وضعوه في سجن العقائد الوثنية وغير الوثنية.

ولقد بلغ «بعقل الشارع» المتعقّد بالعنصرية والقبائلية، الاستياء النفسي والملل، لأنه وقف جامداً وحائراً مذهولاً في الذي أعطي له من وراثات،

والذي فُرض عليه من سيطرة ثيولوجية جعلته ضائعاً وكأنه لا يجد نفسه ولا يعرف من هو، وجعلته حائراً خاضعاً خائفاً في عقائده التي لا يفهمها أو حاول أن يفهمها، وقد سدت عليه هذه العقائد نوافذ الحياة. . .

ولقد بدأ الثيولوجيون القدماء بإعطاء حقن الخوف، التي جمّدت وظائف العقل وسلبته الحرية، حرية الفهم والمقارنة والتحليل، فقالوا الله والشيطان، ولم يقولوا ما معنى الشيطان والإلّه، فعند الفرس أرموزد ـ أي الإلّـه ـ وأهيـرمن، أي الشيـطان. وعنـد اليهـود، يهـوه ـ أي الإلّـه ـ وبيلزابوب ـ أي الشيطان. وعند المسلمين، الله وإبليس. . .

وإذا كانت العقيدة المانية الفارسية تقول إن الإلّه كلمة تدخل في الإنسان في الحلول لكشف الحروف والأصوات في الدواخل ولكنهم مع هذه الفلسفة الضائعة لم يعطوا شرحاً أو تفسيراً لمعنى الكلمة ومعنى الحروف ومعنى الأصوات! . . .

لم تكن المقدمات الثيولوجية الأولى بالتي وقفت أمام ظهور الدين الكامل لأنها لم يكن لها الطاقة أو القدرة للوصول إلى القلوب والعقول، بل إن اختـلاط الأجناس في جغـرافية وحـوض البحـر المتـوسط واختـلاط الحضارات، والغزو والحروب، والسلبيات الشخصية، وخاصة في يوم ظهور المسيح، هي التي كانت سبباً لوضع القواعد الدينية الأصيلة جانباً، بعد أن انتشر الصراع العقائدي والعنصري والحضاري، بل إن الفئات الداخلة على ذلك الحوض وفي نيّتها الاستيلاء والسيطرة والاخضاع، وأكل الإنسان وقتل الإنسان هي التي أوجدت هذا الوقوف بوجه المسيرة الإنسانية. . .

وما استطاع إبراهيم وموسى والمسيح أن يقفوا بوجه تلك التيارات التي تنطوي فيها الإبادة، والفناء، بل استطاع أهل الجشع الفكري والعنصري والمادي أن يجزئوا الإنسان إلى أكثر من واحد، وأن يجزئوا عقيدته إلى أكثر من فتات عقيدة، وأن يشغلوا عقله وقلبه بما لا يصلح للقلب والعقل، وأن يقسموا الأرض إلى أكثر من مقاطعة جغرافية، فضاع الإنسان وضاعت العقيدة الصحيحة بل اختبأت في نفوس أهل الإصلاح للحفاظ على جوهرها حتى

يأتي اليوم الذي يمكن لها أن تظهر على يد نبي أو مرسل، وكان بعد ذلك ظهور الإسلام وظهور الرسول الأعظم محمّد ﷺ .

كان لليهود والنصرانية «دور في الصراع» **واشتراك في** فصل الإنسان عن الإنسـان، إذ أخـذ كلاهما الجانب العنصري وقدَّمـه على الجانب الديني للوصول إلى غاية سلبية ليست هي من مصلحة الإنسان، بل ليست هي من الدين، بل تنطوي فيها «قلة الدين» أحياناً، يدلنا على ذلك ما جاء في إنجيل فيليب «العبراني يولد عبرانياً ويولد فيه عبراني، وهو شخص غير الأشخاص» والجانتايل ـ الغرباء ـ عند اليهود لم يكونوا أحياء ليدركهم الموت إلَّا الذين يهتدون إلى الحقيقة اليهودية يجدون الحياة.

أما الذين قاموا بحركة الانفصال المسيحي عن اليهودية فقالوا:

«عندما كنا عبرانيين كان لنا أم، إلَّا أننا عندما صرنا مسيحيين صار لنا أب وأم، والمسيح هو كل شيء وفيه كل شيء، شخص، ملاك، أسرار، أب وابن وروح قدس وإلّه»...

وإذا كان للدين مسؤولية...

وعلى الإنســان مســؤوليـة...

فما هي المبررات التي يلجأ إليها هؤلاء في الذي وضعوه من الحواجز العقائدية بين الإنسان وأخيه الإنسان، وهو الذي ولد من طينة أو تربة واحدة، وله من المسؤوليات في الحياة ما يجعله في أزمة ضيق مادي، وأزمة أخلاقيه وعقلية، وكان من المفهوم في العرق الثيولوجي أن يكون الدين في خدمة الإنسان، خدمة إنسانية تساعده على الحياة وفي الصعاب التي تتفاعل بها الحياة، وجاء في القرآن الكريم في (سورة الزمر/٦):

﴿ خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ ۚ يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِّن بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ ۚ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ ۖ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ (٦) ﴾.

ويذهب علماء التفسير، تفسير هذه الآية، أن النفس الواحدة هي آدم،

والروح من حواء، والخلق بعد الخلق والنطفة والعلقة والمضغة والظلمات الثلاث هي ظلمة الرحم، وظلمة البطن، وظلمة المشيمة. كما ورد في العرض السابق.

غير أن الإسلام بعد ظهوره حاول أن يعالج المشكلة الإنسانية بالحقيقة الإنسانية، وأراد أن يرجع إلى الإنسان حريته التي فقدها في ظلمات الصراع العقائدي والاجتماعي، ولكن الذين كانوا يعيشون على الدين والدين يعيش عليهم رأوا في ذلك خروجاً عليهم فحاربوا الإسلام وأظهروا له العداء والخصومة، مع أن القرآن الكريم شدد في وجوب التفاهم مع أهل الكتاب وهم اليهود والنصارى ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾ (سورة العنكبوت/٤٦) كما أكّد الرسول محمّد وشجع على احترام حقوق الإنسان ـ أي إنسان ـ مهما كانت عقائده وميوله الشخصية فالإنسان هو واحد خلقه الله من واحد، وهو مسؤول عن أفعاله، إذ جاء في (سورة لقمان الآية: ٢٨):

﴿مَّا خَلۡقُكُمۡ وَلَا بَعۡثُكُمۡ إِلَّا كَنَفۡسٖ وَٰحِدَةٍۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٌ﴾. فأهل الكتاب الثلاثة تقع عليهم مسؤولية الإنسان ومسؤولية الدين، وهم مع ما عندهم من فوارق ثيولوجية واختلاف عنصري يواجهون المادية الإلحادية التي تقوى وتزداد وتمتد كل يوم ترافقها الإباحة الأخلاقية وقلة الدين، فإن بقي أهل الكتاب الثلاثة على ما هم عليه من السلبية العقائدية، بقيت الإلحادية على سيرها في كسب عاطفة القلوب والعقول تحت تأثير الإغراء المادي والشهوات الجنسية.

ولقد تمكنت المادية الإلحادية التي ظهرت في القرن الخامس عشر من تجارب الفلسفة والمنطق والعلوم التجريبية أن تجعل هواية وغواية للأتباع حيث ضلت وضل معها التفكير في الدين أو الرجوع إلى الدين، وتوصلت هذه المادية الإلحادية إلى تحقيق الفشل في الجانب الضعيف من اليهودية والنصرانية والإسلام، وكان لا بد لأهل الكتاب الثلاثة أن يتحدوا ولو اجتماعياً للوقوف بوجه هذا الخطر الإلحادي، ولكنهم سكتوا وطال السكوت.

ولقد ساعدت العقائد السلبية ذات الإفلاس العقلي والأخلاقي عند أهل الكتاب في هذا السكوت، على انتشار أيدلوجية الإلحاد والنظريات المادية، فأصاب المسيحية ضعفاً وأصاب الإسلام ضعفاً، إلَّا اليهودية فقد بقيت عقائدها بعيدة عن الأخذ بظواهر الإلحاد، لأنها كانت قد وضعت فاصلاً في تاريخها بينها وبين الغرباء ـ الجانتايل ـ الذين هم مصدر الفوضى الأخلاقية وخبث الكفر والإلحاد، والغريب بهذا الموضوع أن الذين قادوا الحركة الإلحادية في أوروبا كانوا من أصحاب الفكر اليهودي، ولقد خرج فريق منهم، وهو قليل، عن خط الهجوم على المسيحية، إلى انتقاد أساليب اليهودية التي هي غير إيجابية، ولكن الذي حصل في الثبات هو تمسك اليهود بوحدتهم العنصرية وبالفردانية الإلَهية، وفي أنهم لا يمكن أن يأخذوا ولا يمكن أن يعطوا، بل تركوا الصراع ـ صراع الإيمان ـ بين الإسلام وبين النصرانية.

والذي يبعث على الخوف في أن تسيطر المادية الإلحادية وقد وصلت بالامتداد إلى العقول والنفوس، على كل شيء في الحياة، والظواهر الإيجابية تومىء بالإشارة إلى الزحف الإلحادي، فإن تم ذلك ـ وإنهم يرونه بعيداً ونراه قريباً ـ تتعرض حينئذٍ أماكن العبادة إلى الإقفال، وتقفل أبواب العقول على رفض الدين في عدم القناعة والقبول.

وكما أن نظام النور والضياء له مؤثرات شعورية أو غير شعورية على الجسم والعقل، وقد كان للدين مثل هذا الشعور ولكنه توانى وضعف في السكوت عن المؤثرات الإلحادية، أو أنه فشل في معارضة ما تتركه في حياة الأتباع ولو في التجربة، والإنسان القديم كان يصلح له ما عنده من قديم، والإنسان الجديد يحتاج إلى شيء جديد، واعتقد أن الدين بمعنى الدين الصحيح، فيه طاقات التجديد إذا عرف الثيولوجيّون كيف يمكن استخراجها من الكتب والشرائع.

والفضيلة والأخلاق والأدب والحشمة والاحترام الأخلاقي هي أدوات كلام في المفهوم الإلحادي، وكيف يمكن للمعتقد أن يفهم غير ذلك، وقد

مرّت على هذه الكلمات الأحقاب وهي كما هي، لم نجد لها اتجاهاً وتفسيراً آخر.

والذي حصل في تحرك المشاكل الإلحادية للدين، أن طريقة العرض الفكري المادي كانت ناجحة إلى حد بعيد، فقد قدمت هذه الإلحادية الجمال على الفضيلة، والحرية الجنسية على الأخلاق المقيدة، والحب والهواية والغواية على العبادة والتكليف، ووجد التائهون في خمرة الإلحاد حياة جديدة وحرية جديدة للتمتع والتلذذ بكل الحياة، وتركوا الخوف من النار والخوف من الإلّه، بل تركوا النار لأهل النار والجنة لأهل الجنة.

إن الحياة على الكلمات القديمة والتشريع القديم لم يكن صالحاً في وجود موجة الإلحاد، والكلمات كما هو معروف عند أهل اللغة لها جذور وعروق، وللجذور مقاطع، وللمقاطع حركة، وللحركة صوت، وللصوت معنى، وللمعنى أصداء، وللأصداء أهواء، وللأهواء سراب، فلقد يبست العروق، وانحلت الجذور في المقاطع، وذابت المقاطع في الحركات، وخفت الصوت وبُحت الأصداء في المعاني، ولم يبقَ من الهواء إلاّ السراب.

هذا الواقع في استعمال الكلمات التي يقوم عليها الوعظ والإرشاد العقائدي على أن جذور الكلمات والعروق إذا تواجدت وتجددت في الشرح والتفسير والتحليل كأشياء طبيعية غير معقدة، فإنها تعطي الكلمة والشكل والحرف واللون والمعنى قوة جديدة في التعبير، لأن الكلمة هي فعل وجودي له علاقة وتأثير على النفس والعقل والجسم والروح، وهذه الظواهر إذا أعيدت معانيها بشيء جديد، تكون كافية للحفاظ على الدين والوقوف بوجه الإلحادية المتوثبة.

وإذا كان نظام التشابه في كل شيء ـ حتى في الكلمات ـ هو واحد في الوجود وهو واحد لا يتغير في طبيعة المجتمع كأن تقول إن النفس هواء، وإن القلب حركة وعاطفة وميول، والعاطفة تتحرك طبيعياً بتفاعلات الهواء، فإن واجب الثيولوجيين أن يرجعوا إلى هذا النظام في توحيد مسيرة المجابهة لكي يبقى لهم نفس وقلب وعاطفة.

ومما هو لا شك فيه أن اللّغة والكلمات قد تفقد قوتها وطاقتها في قوة معناها في التكرار والاستعمال على مرور الأيام، كما يفقد العقل والقلب شعوره الطبيعي في سماع ما يسمع مكرراً في الملل والحيرة بما سمع وبما يريد ألّا يسمع.

والوحدات الطبيعية، كالوحدات الإنسانية، التي يتألف منها الوجود، تدور على نفسها في إطار الزمن أو دورة الأحقاب على نفسها، وتدور معها العقائد والأحوال والوراثات، وهذه تتأثر دائماً في تجارب وأبحاث وأفعال المعرفة، كأن تقول إن معرفة الفضيلة كانت من معرفة الدين، ومعرفة الحياة تأتي في معرفة المجتمع، ومعرفة الأخلاق تأتي في معرفة البعد عن الرذيلة، فهذه المعرفة تحتاج إلى معرفة جديدة للتعريف عنها ضمن نطاق الأدب النفسي والأدب الثيولوجي، وهي بحاجة إلى تطور في تقريب الفهم إلى موضوعها لكي لا تبقى قديمة بالفعل والتأثر والطاعة والسماع.

والأيدلوجيات الثلاث، الطبيعية، والمادية، والثيولوجية، هي أضداد في طبيعة، وطبيعة في أضداد، تنمو وتبقى وتعيش على الخصومة والتفرقة في ادعاء أن ما في الوجود هو منها ولها، ولكن الذي حدث في التعارض والصراع الثلاثي أن ظواهر المادية تعلو على مبادىء الثيولوجية في تغيير اتجاه العقل والفكر، وأن الطبيعة تمشي مع القوي في قوة الدفع إلى الأمام لا إلى الوراء.

ونجد في الرجوع إلى مؤثرات كلمات الدين، وخاصة الكلمات التي يتألف أو يتركب منها العهد القديم والجديد والقرآن، أن مفهوم الكتابين الأولين، هو قديم يعيش على قديم، في معانٍ معقدة صعبة، فيها تصديق للذي حدث، وفيها حدوث للذي لا يصدق، وفيها اختلاف واختلاط في المواضيع، وفوارق متعارضة، ما كان لها من الطاقة القوية، لتدخل على كل عقل في إقرار القبول والقناعة، أو على كل قلب بالاطمئنان والإيمان، ولولا بلاغة الكهنوت وثقافتهم في الخطابة وقوة الشرح والتفسير والتحليل، لكان الأتباع تركوا التوراة والإنجيل هملاً في نسيان، ونسيان في إهمال.

أما قرآن المسلمين ـ الذي قالوا إنه معجزة من معجزات محمّد لأنه كلام الله ـ وما كان للرسول من معجزات، وكيف يكون كلام الله معجزة والكلمة منه، بل ما كان القرآن معجزة لأحد، إلاَّ أنه في بلاغته وأسلوبه الرائع القريب من العقل والقلب، وفي تركيز الآيات البيّنات على المصلحة الإنسانية قبل المصلحة الدينية ـ وليس للدين مصلحة سوى خدمة الإنسان ـ جعله يسمو ويعلو فوق حيرة العقل بإعادة الإيمان والطمأنينة والحرية إلى هذا العقل، والإعجاز الذي رافق القرآن جعله في مأمن وحصانة وحفاظ، عن أن تمتد إليه أيدي التلاعب والتبديل والتحريف والإدخال، كما حصل لبقية الكتب المقدسة. فالقرآن كائن ثابت ولا يأتيه الباطل، ولا تستطيع على الإتيان بمثله الأقلام والإنسان. أما النص والعرض في القرآن، فقد بلغ سمواً في الأسلوب البليغ والمتانة اللغوية والتشريع، كأن يستحيل على الأشخاص ـ ويستحيل ـ من ذوي الثقافة الناقصة أن يدركوا معنى العرض والنص في القرآن، إلاَّ أن يكونوا من الراسخين في العلم، وأين الرسوخ في العلم؟ والسابقين في علم الكلام أي علوم القرآن، وتفسير القرآن المتداول بين المسلمين، تفسير ضعيف ناقص لا يتوافق أحياناً مع نص القرآن ومع الذي أوجده القرآن للنص ففي قصة الخلق أشار القرآن إلى الكيفية في التطور في ظلمات ثلاث، وزاد على ذلك في سورة نوح ﴿ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴾ ﴿ وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا ﴾ وعندما يأتي القرآن على ذكر أهل الكتاب ـ أهل التوراة والإنجيل ـ يوصي بهم خيراً ويرغب لهم هداية إلى حقيقة ما نزل على موسى وعيسى ـ المسيح، فلا يجوز في الأدب والواجب القرآني أن نتهمهم بالكفر، وأن يتهموا المسلمين بمثله ، وأن نطلق عليهم ألقاب الشرك والإلحاد كما يطلقون بمثل هذه الألقاب على المسلمين، حتى إذا كان الظاهر من ملتهم أو ديانتهم لا يتفق مع بعض الحالات العقائدية في الإسلام، فهم مسلمون بحكم المقدمات، والمسلمون أسلموا للدين الكامل وهو الإسلام.

وذهب القرآن إلى التقيّد والإلتزام في الوصاية، والإعتراف الجزئي بأهل الكتاب بصورة أنه حمل على صفحاته أكثر من آية وآية، تختص بهم

وبأحوالهم القديمة ففي سورة العنكبوت (الآية ٤٦) ﴿ وَلَا تُجَادِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡۖ وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَأُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمۡ وَٰحِدٞ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ﴿٤٦﴾ ﴾.

وفي القرآن عناية خاصة بأحوال الناس ومعاملاته وتعامله مع الآخرين، تفوق عناية الكتاب المقدس في أن الإسلام أعطى الحرية لكل فرد لكي يعرف ذاته ومتى عرف ذاته عرف الله، وقد أوجد لهذه الحياة «ضوابط وروادع» تأتي في نظام الأخلاق والتربية الشخصية، والتعامل الإيجابي في المجتمع وحسن السيرة والسلوك، التي يجعل من الفرد أو من المعتقد والممارس ذا شخصية نادرة نزيهة شريفة ومستقيمة، ومن هذه الشخصية الإنسانية تنشأ الطاقة الاجتماعية الذي تعاونه على اقتحام الصعاب الطبيعية والتغلب عليها بما عنده من قوة إيمان وقوة أخلاق. وتناول القرآن جميع الأحوال الطبيعية للإنسان ووضع لها تشريعاً هيناً للحفاظ على حريته وكرامته، ويتلاءم مع الطاقة الجسمية وطاقة العقل ومقدور الروح، وما من شيء، أو من واجب أو محرم أو حلال إلاَّ وفيه فائدة ومصلحة وحماية، وعندما يكون الجسم والعقل غير قادر لمرض أو عاهة على القيام بالواجب الديني تأتي عندئذٍ الضرورة في تقرير الإسقاط، غير أن الذي أوجد الصعوبات في التأييد لشمولية الأعمال والواجبات الدينية، هو ما ينتج عن الخطأ في الاجتهاد، وهو الاختلاف بين المذاهب والطريقة والشعوذة والتقديس الشخصي للأصحاب والمهاجرين والأنصار والخلفاء وأتباع الخلفاء الذين ماتوا ومات معهم كل تقدير وتقديس.

ومع أن القرآن اعترف بالذي هو صالح للإنسان في أناجيل اليهود والنصارى، فقد ظل ما عندهم معرضاً للانتقاد التشريعي، وبقي مشرع الأبواب لدخول الأيديولوجية الإلحادية التي استطاعت مع نمو الأشياء المادية، أن توجد كل شك وكل تساؤل في نفوس الأتباع، وما زالت المآخذ العلمية تضع أهل الكتاب في مواقف حرجة لا تستطيع معها أن تنكر أو أن ترفض ما جاء في العلم من حقائق لها علاقة صحيحة في حياة الإنسان وحياة الوجود، مما حدا باليهود وهم أصحاب حضارة وثقافة قديمة وجديدة أن

ينتبهوا إلى هذه الظاهرة الخطيرة بعد أن حصل الانفصال المسيحي، فلجأوا إلى تفسير التوراة ـ أي شرائع موسى التي قال المؤرخون إنها أخذت عن المصريين والبابليين، وجعلوها في وضع عقائدي ثابت متين.

ومنذ ظهور الحبرين الكبيرين «هليل وشماي» في وضع قواعد التفسير والفقه اليهودي والحديث، وقامت مدرسة الفريسيين بوضع كتاب التلمود، تمكنت اليهودية من الثبات الراسخ أمام التيارات المسيحية الثيولوجية ـ بعد الانفصال وما لحق من ذيول الانفصال ـ التي حاولت ـ أي المسيحية ـ في اعتمادها على الفلسفة والمنطق والحوار والجدل السلبي والإيجابي، أن تحيط التوراة في حزام من النقض والإسقاط، بحجة أن العهد القديم هو قديم لا يصلح بعضه أو كله للهداية والإيمان والاستعمال.

ولقد امتد النشاط اليهودي إلى ما وراء حدود فلسطين. بعد أن رفض الحبر الأعظم رئيس السهندريم، أن يرسل أحباراً إلى الخارج للتبشير ـ كما تفعل المسيحية ـ وربط الفئات اليهودية المنتشرة في أوروبا والشرق، في وحدة عقائدية قوية، تقوم قواعدها على مفهوم الدين، لا على مفهوم الجنس أو المقاطعة واللون... وعقيدة المحافظة على الوراثات والتقاليد التي صارت شريعة ـ أي الوراثة والتقليد ـ بعد مرور الأيام، وعلى المحظورات والمحرمات اليهودية، وخاصة محرمات يوم السبت التي بلغت تسعة وثلاثين محرماً.

وأراد المتجددون أن يسقطوا الأعياد والأضواء ـ أضواء الشموع ـ خصوصاً أن المسيحية أخذت منها وعنها أكثر العقائد الثيولوجية، ولكن الأحبار أو الكهنوت اليهودي أصرّ وشدد على التمسك بتلك الوراثات التي لا صلة لها بالتوراة بل لها صلة روحية دائمة مع الأمة اليهودية، ويوجد عند المسلمين كثير من هذه المحظورات اليهودية كدفن الأموات في يوم واحد قبل غروب الشمس، وتحريم لحم الخنزير المباح عند النصارى، والطيور الجارحة والحيوانات ذات الأظلاف، والختانة والجنابة والنفاس إلى آخر ما هو أكثر وأكثر.

غير أن المسيحية وجدت أن الجمود والانقباض والالتجاء إلى الخوف في محظورات الدين، قد يُضعف قوة المسيرة المسيحية، فانطلقت في التبشير العالمي، بعد أن كانت المسيحية القديمة منقبضة على ذاتها كاليهودية القديمة، فقامت في إنشاء مراتب ثيولوجية تحولت بالتطور إلى مؤسسة أو منظمة فيها معنى الدولة أو الحكومة في النفوذ والسيطرة والقوة والأمر والنهي اللاهوتي، وكان من نتيجة ذلك أن البعثات اللاهوتية التي قامت الحكومات الأوروبية برعايتها وتشجيعها في البدء، انتشرت بسرعة في العالم المتخلف، وقُدِّر لها أن تربح الجولة الأولى على اليهود والمسلمين، في تحقيق المنافع الاقتصادية والإسقاط المادي، وتنظيم مراتب اللاهوت ـ الذي لم يُعرف في أيام السيد المسيح ـ وفي إنشاء المدارس الثيولوجية والمستشفيات، وفي الاشتراك في العمل السياسي والاجتماعي في أية دولة أو مقاطعة.

وما كان بإمكان اليهود ـ وهم أبعد ثقافة وحضارة ـ أن يقوموا بمثل هذه البعثات لأنهم لا يطلبون الزيادة في عدد اليهود من الغرباء ـ الجانتايل ـ وقد اعتمدوا على ما جاء عندهم في التوراة من تشريع قد يكون بمكانة الكفاية للمعتقد اليهودي وهو تشريع فيه صفاء وارتواء ولا يوجد مثله عند النصارى، وكان في مقدورهم، أن يعتمدوا على فلسفة الحكمة الإغريقية التي اعتنى بها سليمان بن داود عناية خاصة وأسماها «الحكمة العبرانية» أن تأخذ مكان المسيحية القديمة والجديدة، لأن هذه الحكمة كافية، كما هو المعتقد ـ لتنظيم المجتمعات الإنسانية، وهي:

ـ مخافة الله هي بدء الحكمة.

ـ الاعتدال في المأكل والمشرب.

ـ العفة.

ـ ضبط النفس والصدق والوفاء والسلوك وحماية الأخلاق...

على أن اليهود لم يلتفتوا ـ ولا التفت المسلمون ـ إلى ما يدور حولهم من تفاقم الدعوة إلى المسيحية في إسقاط وإهمال الديانات الأخرى، لأنهم لا يرضيهم أن يعودوا إلى الملاحقة والظلم والتشريد في العصر البابلي، ولا أن يعود إلى مخيلتهم ما حصل لهم في أوروبا من الضغط المسيحي، وما قد

وقع عليهم قبل هذا الحصول في أيام بولس «اليهودي المتنصر» الذي بدأ حركته وحملته على اليهود في الدعوة إلى إبطال العهد القديم لأنه قديم، وفي وضع العهد الجديد الذي هو عهد السيد المسيح، وهو الذي قال إن عيد الفصح عند اليهود وخبز الحياة الذي فيه ثخنة واختمار، هو رموز وراثية لا قيمة لها، والمسيح كما قال، هو عيد الفصح لنا لأنه ضحَّى بنفسه حتى نصبح خبزاً بلا خميرة، والخميرة معناها الشر.

وتبعه فالنتونيوس في انتقاد ما جاء في إنجيل متى كما ورد في العرض السابـق:

«من يلعن أمه وأباه يجب أن يحكم عليه بالموت» إذ قال بولس إن مثل هذه الأحكام لا تتفق مع حقيقة الدين، لأن الطيف الروحي الذي هو فوق الوجود المادي والذي له صلة بالختانة ومحظورات السبت والصيام وعيد الفصح عند اليهود، والخبز الذي فيه اختمار، هي عادات يهودية كان لها معنى في البدء من معاني الروح، إلَّا أنها تبدلت في الاتجاه والقصد إلى معنى غير روحي . . .

ومنذ أن زال حكم البابليين مع ذهاب الذين زالوا معهم أو ذابوا في التاريخ، ظهرت الملاحقة لليهود من جديد في أوروبا، لأنهم أصرّوا على أن الذي عندهم هو لهم لا لغيرهم، وكان البعد عن الغرباء، ومنهم المسيحية، من حتميات الحماية والحفاظ على المواريث والتقاليد.

ويوم دخل العرب المسلمون إلى أسبانيا، كان لليهود دورٌ في إدارة الدولة الأموية، ورجع إليهم الأمان والاطمئنان، في ظل الإسـلام وظل العرب.

هل الله موجود؟

ليس في العهد القديم والجديد ـ التوراة والإنجيل ـ أي دليل على وجود الإلّه بالمعنى العلمي الثابت، أو بالشاهد الطبيعي المقنع، وكل ما نجد في الكتاب المقدس هو انشغال الرب بالناس، وانشغال الناس بالرب، ولم

يعطِ هذا الكتاب ما هو هذا الإلّه، وما الذي يلحقه من النفع والاطمئنان من العبادة، وما هي الضرورة التي دفعت بالإلّه أن يضع قواعد المحرمات والمحظورات في حين أنه لا يناله شيء منها، ولا هي بالتي تؤثر على قوة الإلّه وإرادته.

وإذا كان الثيولوجيون يقررون أنه لا يمكن أن يكون الدين والإلّه موضوع بحث العقل لأنه فوق العقل، وبذلك تمكنوا ومنعوا أن يؤخذ وجود الله على الظاهر، مع أنهم من جانب آخر أكّدوا أن معرفة الحدود لا تدرك بما هو غير محدود، وأن النهائي وهو كلمة، لا يعرف ما وراء البداية والنهاية، وخاصة أن الكلمة المركبة من حرف، والحرف المركب من الصوت أو الصدى، أو النغمة، وليس للصدى الذي يظهر المعنى أي إدراك أو طاقة، أو قوة كافية، ليعرف ما الذي كان قبل الكلمة وفوق الكلمة، ومن هو الدافع - فوق ما هو فوق - في حركة الوجود وتحرك النسمة في الجسم الكوني، بل لا يعرف وظائف التفاعلات العقلية التي تفهم الوجود بالحروف والمعاني والكلمة.

ولا بد أن يكون هناك أدلة طبيعية وعلمية على وجود الإلّه، فالقرآن الكريم وهو كتاب منزل كالتوراة والإنجيل، قرب فهم وجود الله إلى العقل بالبحث والشك الذي يؤدي إلى اليقين، وأعطى الحرية الإيجابية لهذا العقل أن ينظر إلى الوجود نظرة علم في بحث، وألّا يأخذ بأي موضوع من مواضيع الدين قد يتعارض مع القول والقناعة العقلية البديهية القاطعة.

ووضع الإسلام قاعدة مثالية لهذه الحرية ﴿ لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ﴾ كما جاء في القرآن (سورة البقرة/٢٥٦) وأن يكون الاختيار والقول هو أساس من أساس الحرية العقلية في كل شيء ضمن نطاق عوامل الخير والصلاح والإصلاح ﴿ لَهُمۡ قُلُوبٞ يَعۡقِلُونَ بِهَآ ﴾[1] فللعقل قيمته الإنسانية وللقلب قيمته الروحية في القرآن وللقلب وللعقل حريتان تلتقيان في خدمة الإنسان. . .

---

(١) الآية: ٤٦ من سورة الحج: ﴿أفلم يسيروا في الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها أو آذان يسمعون بها فإنها لا تعمي الأبصار ولكن تعمي القلوب التي في الصدور﴾.

وتناول القرآن موضوع الشك، فأقام أدلة اليقين على الشك الذي يؤدي دائماً إلى اليقين، وأعطى للفرد الحرية الشخصية في أن لا يؤمن إلّا بعد أن يشك، وإن كانت العوامل النفسية تدور حول ثبوت اليقين في القرآن والإسلام، في اعتبار أن تفاعلات العقل الكيماوية والنفسية التي تتألف منها الأفعال والتصورات والخوف والإيمان والعقيدة والقبول وعدم القبول والقناعة والأخذ والرفض، والحب والحسد والغيرة وما إلى ذلك من تفاعلات الدواخل، لا يمكنها أن تدرك وجود الله أو عدم وجوده، والعقل في وجود حرية الشك والمعرفة، وفي وجود إدراك الذات للذات، لا يمكنه أن يعرف أو أن يدرك ما هو الذي فوق الذات، أو خالق الذات والعقل وإن كانت مهمته أو وظيفته وعمله وشغله يقوم على إدارة وتنظيم الوجود الذاتي للإنسان وفي الإنسان، فإن هذا الإنسان ـ مع وجود عقله ـ الذي تتفاعل فيه الأجهزة والمركبات الغريبة، غير قادر على وجود نفسه بنفسه، فكيف يمكنه إدراك من أوجد الوجود وأوجد العقول وهو فوق العقول والوجود.

والذي يؤخذ على المعتقدات الموضوعية، أن فقدان قدرة أو طاقة البيّنة والبرهان ـ في الكتاب المقدس ـ فتحت باب الحوار والنقاش والشك بين الطبقة العليا من المثقفين من أصحاب الرأي العلمي والفلسفي، وقد توصلوا بهذا الحوار، وبما عندهم من معلومات تجريبية أن الذي جاء في الكتاب المقدس لا يكفي للاقتناع بوجود الإلّه، ولقد أخذوا على ظاهر ما ورد في التوراة والإنجيل، فكرة أن الإلّه غير موجود، لأن النصرانية تدعي أن لها إلّهاً غير إلّه اليهود، وأن اليهود يدعون أن لهم إلهاً غير إلّه النصارى ـ إلّه إسرائيل وألوهية يسوع الناصري ـ وأن هذه العقيدة المتعارضة المتضاربة في الكتاب المقدس، هي صورة لخيال مجهول صنعه الإنسان من الخيال.

وليس في الوجود، أو فوق الوجود، أو ما وراء الوجود، شيء أو كائن يقال له «الرب» لأنه غير موجود، بل إن الإنسان هو كون في ذاته، وهو إلّه في كونه، يتحرك بجواهر طبيعية ومادية وروحية.

والذي حصل مع هؤلاء العلماء الذين ظهروا في القرن الرابع عشر في

أوروبا، أنهم أعرضوا عن قبول الإنجيل، لأنه لا يوجد فيه أي رأي أو نظرية أو عقيدة، أو أيدلوجية ثابتة قد تتوافق أو تكون في مستوى ما عندهم من علمٍ وتفكير، ومن الطبيعي أن يكون الإنجيل عندهم غير ثابت المصدر، ولا يقوم على العلم بل هو على ما يظهر من وضع العامة وإلى العامة، ولقد رفضوا بناء على هذه الأسباب وجود الله ووجود الإنجيل. . .

وعندما ظهرت حركة الأيدلوجية الإلحادية في أوروبا، وامتدت إلى المدارس والجامعات، وأخذت محطات الإعلام في التعليق والمقارنة، على عدم وجود الإلّه أو موته، أفاق الكهنوت المسيحي على مشكلة معقدة من مشاكل المجتمع المسيحي، لأن الأيديولوجية الإلحادية في اعتمادها على البحث والتحليل العلمي والمقارنة والجيولوجية والجغرافية، ومِقارنة الحوادث والظواهر، أكّدت أن السيد المسيح هو إنسان كأي إنسان، وقد يكون نبياً كالأنبياء الذين ظهروا في أيام بني إسرائيل وهم كثيرون، وتناولوا موضوع ولادة المسيح من الأم ـ العذراء مريم ـ فقالوا إن هذه الظاهرة مستحيلة لأنها بعيدة عن النظام الطبيعي في الزواج والتناسل، وإن كان أصحاب الكتب المقدسة الثلاثة ـ اليهود والنصارى والمسلمون ـ يقولون إنها كانت معجزة إلهية لا يدركها العقل، وذهبوا في الرفض والإنكار أنهم أسقطوا السيد المسيح من مكان الألوهية إلى منزلة الإنسان والنبوة، واتهموا السيدة مريم العذراء كما اتهمها قومها يوم جاءت تحمل الطفل يسوع، تهمة الاستنكار والتحدي والافتراء والإهانة، ولكن القرآن الكريم كرّم العذراء بالبراءة الإلّهية، وأوضح في كل بيّنة وبيان ما حصل لها في حلول روح القدس، ومن الروح القدس كانت المعجزة وكان السيد المسيح.

ووصلت أصداء وأخبار هذه الظاهرة الإلحادية، إلى اليهود والنصارى والمسلمين، فلم يهتموا بها وخاصة اليهود الذين كان لهم نظرة في الإلحاد غير النظرة المسيحية والإسلامية، لأن أكثر العلماء الذين صدرت عنهم فكرة الإلحاد وعدم وجود الإلّه، كانوا من الطبقة المثقفة من اليهود، ولهم اختصاص في علوم الأديان، ومن المظنون أن المحاولة في نشر عقيدة الإلحاد كانت تهدف إلى الوصول إلى المسيحية، في إضافة بعض الأبحاث

التي تتناول اليهودية في ظاهر ما يعتقد به أبناء إسرائيل..

ولقد أخاف هذا الإلحاد الخطير اليهود والنصارى، فقاموا بعقد المؤتمرات لصد هجمات الإلحادية القاسية، وفي المؤتمر اليهودي الذي عُقد في الولايات المتحدة ـ وقد كانت ظاهرة الإلحاد أخذت بعقل الشارع ـ ووافق ظهورها ظهور الشيوعية والراديكالية، فأبرق المؤتمر إلى العلامة أينشتين وقد كان يومئذٍ في ألمانيا يسألونه إذا كان يؤمن بوجود الإلّه؟ فأجاب: «إنني أؤمن بإلّه الفيلسوف سبينوزا Spinoza ».

إلّه سبينوزا Spinoza :

من هو إلّه سبينوزا الذي أشار إليه العلامة أينشتين؟؟.

لم تعرف عقيدة هذا الفيلسوف الذي عاش في القرن السادس عشر بعد أن تعمق في دراسة العلوم ومنها العلوم الثيولوجية، لأنه كان يهودياً في المولد والنشأة، إلّا أن اليهودية وما عندها من تمسك في الوراثات التي فيها الدين لم يؤثر على عقله وفكره. وخصوصاً بعد أن أقام فلسفته على الحقيقة المجردة من النظريات الخاطئة، وقد كثرت في أيامه في أوروبا، ولم تخل فلسفته من الرفض العلمي لعقيدة الدين، لأنه كان يعتقد أن الدين هو من الإنسان وإلى الإنسان، في تركيز الآراء والبحث على التعارض الإيجابي للوصول إلى الحقيقة الثابتة وفي أن الأشياء يجب أن تترك كما هي الأشياء، ويُترك للإنسان للاعتقاد أو الشعور الطبيعي في الحياة، لئلا يشغله أهل الدين، بهم وبالدين.

وكانت من عقيدة سبينوزا أن يدافع عن الحريات الطبيعية والفكر والإيمان بالعمل المجدي المفيد، ويجد أن الاعتقادات المنبثقة من الدين والقائمة عليها، هي اعتقادات سلبية ووهمية لا تصلح للإنسان وإن كانت جاءت عن الإنسان.

ولقد حمل عليه النصارى واليهود من أجل هذه الآراء الجريئة، ونعتوه بالفيلسوف الملحد، غير أنه لم يلتفت إلى هذا النعت وهذه المحاولة التي

ترمي لتشويه السمعة والوقوف بوجه فلسفته التي أخذت منزلة اعتقادية مع الشك في نفوس بعض اليهود والنصارى ومنهم العلامة أينشتين.

والمحاولات الصادقة التي قام الثيولوجيون الذين خافوا على المسيحية واليهودية من اكتشافاته الفلسفية، لم تمنع هذا الفيلسوف المتحرر أن يثبت بالمقارنة، في محاضراته وأبحاثه، أن الإنجيل ـ القديم والجديد ـ ليس من كلام الإلّه، ولا هو كلمات تنزيل روحي أو مكالمة أرضية مع الرب، بل هو «دراما تمثيلية» من كلام الإنسان وتمثيل وإخراج الإنسان.

ولم ينكر هذا الفيلسوف مع هذه الحقائق المتحدية، وجود الإلّه ـ الإلّه الذي يفهمه أو يعرفه ـ بل كانت عقيدته ـ وإن كانت هذه العقيدة تتعارض مع عقائد أهل الكتاب ـ أن اليقين في وجود الإلّه يبتدىء من الفلسفة وفي الفلسفة، والإلّه لا يتعالى ولا يجلس على عرشه بعيداً عن الوجود لأنه هو الوجود، والوجود هو الإلّه، والطبيعة على ما فيها من ظواهر وبوادر، هي جزء أو ناحية خاصة من نواحي الحياة أوجدها الإله لمصالح الإنسان.

أما عقل الإنسان الذي أوجد الإنجيل في تأليف الإنجيل هو ناحية من نواحي التفكير أو الأفكار التي يفكر بها هذا الإله، والذات الخاصة في وجود الأشياء النهائية وهي ليست جواهر متحركة، بل هي كيفية من كيفيات الواحد، أي أنها جوهر إلّهي، والإلّه هو كل في كل، وعندما تُعرض عقيدته القديمة، أي سبينوزا على شاشة التفاعلات في النفس يقول إن إله إبراهيم وإسحاق ويعقوب أو إلّه الإنجيل لم يخلق كوناً أو ذباباً، لأنه لم يكن بذي تكوين أو وجود أو طيف أو خيال، وهو مع هذا الرفض لإلّه اليهود وإلّه النصارى كان يؤمن بوجود إلّه غير هذين الإلّهين، وهو إلّه فوق إلّه إبراهيم وإسحق ويعقوب والمسيح، يتعالى ويسمو فوق الوجود المادي أو يتجاوز وجود الأنبياء التي تحمل في تركيبها احتمال التعريض للموت أو الفناء.

أما قضية الوجود في وجود الإنسان، ووجود الإنسان في وجود الإلّه، فقد وردت في القرآن في هذه الآية:

﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣

﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴿٤﴾﴾.

وهي قضية ذات اشتغال بالعقل، فلا يمكن في الواقع الفعلي أن يتعرض أي إلّه، إلى الاستحالة والتجسيد، وحلول الروح، والصراع مع يعقوب ـ إسرائيل، وحب الفتنة وإنزال النكبة، وإراقة الدماء، وإبادة الأولاد والنساء ـ أوصاف الإلّه التي جاءت في الكتاب المقدس ـ ويمكن أن يبنى عليه الاعتقاد في الألوهية، بل إن الإلّه الواحد الأحد الفرد الصمد بعيد عن هذه الصفات التي هي من طبيعة الإنسان، لا من طبيعة الإله.

وقد أشار العلامة بلاك، في رأيه أن المسيح في حلول مبدأ التثليث ـ الأب في الابن، والابن في الأب، ثم الروح القدس ـ الذي حلَّ نهائياً في هذه الأقانيم الثلاثة، هو إلّه مركب من طين وماء وهواء، لأن عنصر المسيح أو جسده كان مركباً بالنشأة الطبيعية من هذه العناصر الثلاثة.

ولكي يثبت صحة هذا الرأي أخذ العهد القديم والجديد شاهداً ومرجعاً:

ـ **الإلّه الحائر**: إلّه إبراهيم الذي أمره بذبح ابنه، ثم تراءى له الخطأ في حيرته، فأمره ثانياً برفع السكين عن رقبة الغلام في آخر لحظة كاد أن يُذبح بها هذا الطفل البريء.

ـ **الإلّه الذي يهوى الصراع**: هاجم يعقوب في الليل ليجرب قوته، وتصارع معه حتى طلوع الفجر، ثم تركه عند الصباح جريحاً أو كسيحاً مكسور الوريك.

ـ **الإلّه الذي تستهويه إراقة الدماء**: يظهر الإلّه في سفر الخروج أنه إلّه ناقم، غاضب، مهلك، كأنه شيطان يتعطش للدماء والخراب والدمار، ولقد هاجم موسى ـ كما جاء في العهد القديم ـ للقضاء عليه إلَّا أنه غيّر رأيه بدافع الحيرة بالذي يجب أن يفعل وبالذي يفعل، وساءه ـ وهو الإلّه ـ أن يرى ـ الرقصة الغنائية ـ حول العجل الذهبي الذي كان معبود الطائفة من قوم موسى، وكان من نتيجة هذا الاستياء أن أمر موسى أن يفتن بين قومه، فوقعت الفتنة، ووقع قضاء القتل على أكثر من ثلاثة آلاف شخص من الأبرياء.

ـ **الصفات والتمايز العنصري في طبيعة الإلّه**: في كلمات الوعيد والتهديد، ونشر الذعر والخوف الذي يملأ صفحات الكتاب المقدس، كانت بعض هذه الكلمات تنزل على فريق باللعنة، وتنزل على فريق آخر بالرحمة والعاطفة والبركة.

ـ **الإلّه الأحمق الغاضب**: كان هذا الإلّه يُنزل النكبات والشدائد والمصاعب والقحط والجوع لأقل مخالفة مقصودة أو غير مقصودة، وكأن الرحمة والمغفرة والسماحة والعدالة زالت من صفاته ووجوده.

ـ **الإلّه المتخلف الذي يهوىٰ القتل في التضحية**: في أيام القضاة لم يصدر من الكهنوت اليهودي أي اعتراض على «جوفتين» يوم أقدم على ذبح ابنه كضحية أو تقدمة للرب، إلى يهوذا الإلّه.

ـ **الإلّه المتفرج**: في القرن التاسع على قتل أكثر من أربعمئة نبي من أنبياء بني إسرائيل باسم الإله، أُسقطت باسمه مملكة العموريين في ثورة دامية قام بها أليسع «Elija» بأمر من الإلّه.

الإلّـه يسـوع:

قال الكاتب الروسي دستوفسكي في كتابه «الأحمق» إنه عندما كان ينظر إلى صورة السيد المسيح مصلوباً على أعواد الصليب كانت تؤلمه بل يتضايق من العقيدة المسيحية التي تقول بألوهية المسيح، وكان يختلج في نفسه، تذمُّر واشمئزاز في أن منظراً كهذا يمكن أن يُفقِد الفرد إيمانه بالله وبالمسيح، وإذا كان الإلّه وهو الأب، فإنه قد مات في حلول التثليث والتجسيد، فالمسيح على ما يؤخذ من ظاهر هذه العقيدة قد مات لاحقاً بأبيه، لأن وجود المركبات المادية والطبيعية في الاستحالة والحلول والانتقال بين أب وابن وروح قدس، يثبت أن ما من شيء يلحقه هذا التركيب الطبيعي إلّا وكان في طبيعته الموت والفناء.

يدلنا على ذلك ما قال بولس وبطرس وجايمس في تثبيت الإيمان المسيحي «إن يسوع عاش في الإلّه ومع الإلّه، وإنه كان قد عاش في الإلّه

ومع الإِلَه، فهو حي وباقٍ إلى الأبد» أما في قضية الرفع والصعود فقالوا إن المسيح لم يرجع إلى الحياة في وجود حتمية القضاء والقدر، وإن الموت حدث فعلاً وذلك بمعنى التسلط على الموت.

ولقد رفض هذا الاعتقاد العلامة أرنس بلاك الذي يضع المسيح وهو إنسان فوق عرش الإِلَه وأخذ مكان الإِلَه الذي مات وهلك في تأثير الحلول والإستحالة، وعنده أن كلمة أبناء الله أو كلمة ابن الله، كانت معروفة عند اليهود قبل ظهور يسوع الناصري، بمئات السنين وكانت هذه الكلمة تطلق على الملوك في انتخابهم لأن يكونوا ملوكاً، وأعطوا بل حمّلوا السيد المسيح هذا اللقب ـ كما حمّلوه الصليب ـ ابن الله، والمسيح له نسب وقد تحدر من العائلة المالكة من ذرية داود، ـ فهو على حال هذا الافتراض ـ ابن الله في الانتقال الوراثي لا بمعنى الإِلَه، بل بمعنى الملك والعرش والعائلة.

وأكّد العلامة (Hellerist Stephen) أن المسيح عندما رُفع على أعواد الصليب تكلم بكلمات، فيها «اللعنة المقدسة» على الأرض وعلى النظام الكهنوتي والشريعة وموسى ورب موسى!!. على أن البحث في هذا الموضوع لا يجدي نفعاً ولا يوصل إلى فائدة فمن هو الله؟ ومن هو إِلَه إسرائيل؟ ومن هو المسيح؟ ذلك سؤال ينطوي على تساؤل طويل لا يؤدي إلى أي جواب أو خطاب.

الأيدلوجية الإلحادية في أوروبا:

يؤخذ من محتويات الأساطير والحكايات الثيولوجية التي جاءت في الكتاب المقدس أو دخلت عليه بحكم الخلافات العنصرية والمذهبية بين طائفة وطائفة وقبيلة وقبيلة، وخاصة عندما وقع الانفصال المسيحي عن اليهودية، وحاول أصحاب ثورة الانفصال أن يقضوا على التوراة في وجود العهد الجديد، وكان من نتيجة هذه المحاولة أن العهدين ـ القديم والجديد ـ تعرضا إلى حدوث التحريف والإدخال تحت مؤثرات الدوافع العنصرية والتعصب الوثني.

وهذه الأساطير وما يلحقها من كتب العقائد تركت المجتمع المسيحي في حيرة وقلق يضاف إلى ذلك ظواهر الشك في نفوس الأتباع، وخاصة بين أهل العلم والفلسفة، وكانت النتيجة من تطور هذا الشك أن ظهرت الأيديولوجية الإلحادية في أوروبا، وبدأ الفلاسفة من ذوي اليقظة والوعي الثقافي في دراسة وتحليل مواد الإنجيل تحليلاً خالصاً، وقد أوصلهم هذا التحليل إلى نهاية رفضوا معها المسيح ودين المسيح، منهم:

- **باسكال**: الاعتقاد بوجود الذات على أنها ذات في الوجود الطبيعي، هو إلّه وإنسان وعوارض وظواهر وجواهر، ولا غير ذلك ويعني في ذلك الذات الإنسانية.

- **كانت الألماني**: رفض حق الحرية الشخصية والتصرف تحت ضغط تناقضات الدين لأنها ما كانت ولن تكون في مصلحة الإنسان.

- **هيجل**: أنكر وجود الإلّه وقال أعطني ماء وتراباً وهواء أخلق لك إنساناً.

- **نيتشه الألماني وخورباك وفرويد وكارل ماركس** قالوا: «الدين أفيون الشعوب» ومبدأ الاعتقاد في الإلّه والدين، ينتج عن تأثير الوضع الاقتصادي والعوامل الاجتماعية والسياسية التي تضغط على عقل الفرد وعلى حريته الطبيعية، وتدفعه إلى الالتجاء إلى شيء يجد فيه راحةً واطمئناناً، وهذا الشيء صادف أن يكون معنى الإلّـه ومعنى الدين، وتلتقي الكاثوليكية والشيوعية - على غير قصد في الالتقاء - في المبدأ الأيديولوجي القائل في أن الوجود شر، وهو بحاجة إلى مخلّص، والمخلص عند المسيحيين هو «يسوع» والمخلّص عند الشيوعية هو العامل الاقتصادي وعامل الاشتغال والإنتاج.

وقال: «ماركس» من عالم الإنسان ومن الحكومة والمجتمع، وتجاذب السلبية والإيجاب ضمن نطاق المجتمع والحكومة إلى جانب الحاجة والفقر والاقطاعية، ظهر مبدأ الدين، وتشابه البروليتارية الشيوعية في الاعتقاد في البرومانية الثيولوجية عند المسيحيين يعطي ضوءا على ما انطوى في الخفاء وعلى ما أخذ في الاعتقاد بحكم العضوية والفطرة والتسلط والخضوع، فهناك

الكتاب المقدس لحركة البولتروبو Poltrubo، للمنظمات الشيوعية والكتاب المقدس ثيولوجياً، وقداسة مركز البابا في روما عند النصارى والأتباع».

والديالكتية اللاهوتية، هي كالمادية الجدلية في عقيدة الماركسيين التي تقول إن المجتمع يتطور مع سلسلة متتابعة من المتناقضات في الطبيعة، ويحدث من ذلك زيادة ونقص في الاتجاهات الاجتماعية التي قد تتجمد للعوارض، وقد تتحرك مع تحرك الزمن، وكذلك الدين والمجتمع الرأسمالي يتعرض أيضاً إلى التناقض والاختلاف والمشاكل تحت تأثير دوافع النقص والزيادة في الأهداف الاجتماعية والسياسية التي تحمل معها الالزامية والإكراه على قبول ما هو غير مقبول للعقل والمصلحة العامة، ومن أجل ذلك فإن وظيفة «البروليتاريا» هي أن تعمل على إلغاء نظام الرأسمالية الانتهازية الاستقلالية مع مفاعيلها في المجتمع لكي يكون هناك تفكير جديد في الحرية، وحرية التفكير عند الإنسان التي يمكن معها إيجاد ضمانة طبقية واقتصادية من المخاوف المفتعلة التي تسيطر على البيئة، بعوامل الفقر وعدم العدالة...

وذهب «فورباك» في التعليل أن الإنسان هو الذي اخترع العقيدة الثيولوجية بالإله تحت ضغط وتأثير ظروف وعوامل صعبة، وتفاعلات نفسية ممزوجة بالخوف، ومختلطة بالأمل والرجاء واليأس والفرح إلى آخر التمنيات في الوجود الإنساني.

المتناقضات أو الحقيقة المجزأة...

لم تكن الأيديولوجية الإلحادية، ذات قوة وقدرة ـ كما تدعي ـ لإنقاذ الإنسان من هوة الفقر ومخاوف السلطة والدين والاقطاعية لأن هذه الأيديولوجية هي عبارة عن كلمات ذات ألوان أو ذات سراب مائع، تتركب من التناقض والتعارض وفراغ في العقيدة أو المبدأ، والكلمة التي استعملتها الأيديولوجية الإلحادية هي غير الكلمة التي يستعملها الدين وأهل السلطة والاقطاع، وهي كما تدل النتائج المنطقية مجموعة حروف ونقاط، وللحروف أصداء وللنقاط نغمة يولد فيها الخيال الجاذب والإغراء.

وهذا الخيال هو خيال يكون في واقعه كالخوف لا يمت إلى الحقيقة بصلة بل هو بعيد عنها كل البعد، وهو في تطوره في الفكر الإلحادي لا يقل ضرراً عن الآراء التي ذهبت في قبول الإنجيل ووجود الإله، المشبوه بوجوده، إلَّا أن التطور والتجديد في شكل الكلمات ساعد الإلحادية على إقناع الفئات الضائعة في المجتمع ـ مادياً وعقائدياً ـ وقد فرغت فيهم النفوس وأفلست، أن يسمعوا وأن يصغوا للذي جاء عن فكر الإلحاد،لأنهم وجدوا فيه أملاً ورجاءً، غير أن الرجاء والأمل انقلب بمرور الزمن إلى سراب وتراب.

وإذا كانت الوراثات القديمة، من دين وعقائد ومذاهب وفلسفة غير كافية لمعالجة الأمراض الاجتماعية في المجتمع التي تأتي وتذهب مع مراحل التطور ودورة الزمن، فإن الإلحاد على ما فيه من كلمات جذابة مغرية، هو غير قادر على تخليص هذا المجتمع وعلى شفاء ومعالجة ما فيه من أمراض اجتماعية، ونعترف بصراحة البحث أن في الكتب المقدسة بعض كلمات أصبحت مبهمة قديمة من كثرة الاستعمال وقد كانت ولدت كما ولدت كلمات الفكر الإلحادي لزمن مضى ولماضي في زمن، ولحق البعض الآخر ضعف وتخاذل في التطبيق على مصلحة المجتمع، أو على الذي يدور ويتطور مع المتناقضات وعدم الاستقرار في كيفيات الحياة.

فالمادية ـ على أنها مادية ـ التي دعا إليها العالم الإنكليزي روبرت بويل Robert Boyle مؤسس علم الكيمياء الجديد ـ بعد حيان بن جابر ـ أراد هذا العلامة أن يحوّلها بالنظريات إلى مجرى آخر من مجاري الواقع في الحياة، وحاول في البدء أن يقضي على نظرية أرسطوطاليس في أنها في تحليله نظرية باطلة قديمة تلك التي تناولت موضوع العناصر الأربعة الماء والنار والهواء والتراب، والثابت عنده أن هذه العناصر هي مادية وطبيعية، ومن الواجب في عرفه أن ينمو هذا الرأي ويتطور ويمتدُّ ضمن احترام الديانة المسيحية. . .

والمادية الإلحادية التي قال بها العلامة الفرنسي الدكتور جوليان دو لامارتي هي عقيدة مادية طبيعية تقوم على مبدأ الرفض القاطع لعقيدة

التثليث ـ الأب والابن والروح القدس ـ وقال عن هذه العقيدة إنها مركب فلسفي لا يرتكز على حقيقة العلم، ولا على واقع الحقيقة.

وزاد على ذلك أنه يرفض عقيدة إلّه الكون وإلّه الوجود، وهو مؤلف كتاب، «الإنسان كالإلّه» والفكر الإنساني في رأيه هو هذه التفاعلات العقلية والنفسية التي تعتمد في وظائفها على أعمال الجسم في الداخل، حيث يقوم جهاز الأعصاب بتحليلها وإظهارها بطريقة ميكانيكية متجانسة، أما العقل المتطور والشعور الداخلي في وجوده الذي يدور على وجوده في عالم الجسم المطلق أو هو الذي يكون غير نهائي، هو الذي يعمل في النفس وفي داخل النفس، ومن ذلك ينتج مثلاً الحقيقة الأخلاقية التي لها وجود غير وجود الجسم في ممارسة اللذات وأطايب الحياة.

أما الدين، فقد أخذ جانب الظواهر الصحية والروحية المجهولة، وبنى عليها أهرام الاعتقادات لبقاء أو ضمانة بقاء الدين، غير أن هذا الدين في وصوله إلى نهايته المحتومة برهن في الذي عنده من مركبات ثيولوجية أنه لا يصلح للبقاء ولا للوجود، وخصوصاً أنه يشتغل لوجود غير موجود، ولكنه مع طلائع الإفلاس يبقى مصراً على عقائده لكي يبقى احترامه ومهابته نافذة وشائعة، وأحياناً يحمل مطرقة الخوف التي يرفعها دائماً فوق رؤوس الأتباع لتجميد الفكر والعقل والقلب..

المادية واللاهوت عند أهل الكتاب الثلاثة...

يؤكد نقاد الإنجيل أن اللاهوت اليهودي والمسيحي، بدأ يتأثر ـ وقد تأثر من قبل ـ بالمادية وبالظواهر التي هي غير دينية، منذ أن حدث الانفصال العقائدي بين اليهود والنصارى، حيث ظهرت بعد هذا الانفصال ـ وبوقت ليس بالطويل ـ بوادر الثروة والجاه والبذخ والسلطة والفخامة بين الأحبار وبين رجال الأكليروس، مع أن السيد المسيح وموسى بن عمران كانا يدعوان إلى التصوف والزهد لرجال الكهنوت والعزوف عن الدنيا، في الدعوة إلى ملكوت السموات.

على أن الانفصال والخصومات القديمة بين النصارى واليهود، جعلت النصارى يقفون موقف الحفاظ على المسيحية وإنمائها وامتدادها لكي تأخذ مكان الشريعة الموسوية أو العهد القديم، وكان التنظيم الثيولوجي لشكل الكنيسة التي قامت به الفئات المحافظة على المسيحية، من أكبر الضرورات التي دفعت بأعضاء الكنيس والكنيسة، أن يقوموا برفع الضائقة عن الرؤساء الروحيين وأن يتعهدوا بالتموين والتحويل لكي يستمروا في الخدمة ـ خدمة الكنيسة ـ حتى كادت هذه الخدمة أن تكون وظيفة في عمل، وعمل في وظيفة، ونتج عن ذلك أن المادية التي تنطوي على حب المال، دخلت إلى نفوس الكهنوت، وأن الروحية الثيولوجية بدأ يظهر عليها الارتياح للمادة، في أنها عامل ضروري للحياة في الناحيتين ـ الدينية والطبيعية ـ.

كانت هذه المادية الثيولوجية التي أصبحت جزءاً من حياة رؤساء الدين، تنمو وتعيش على خبز الفقراء مع أنها كانت تتلقى إعانات سرّية من الأثرياء الذين كان لهم أكثر من حاجة ومطمح لاستعمال نفوذ الكنيسة لمصلحة خاصة.

ولا شك أن هذه الروحية المادية قد تبدلت بحكم التطور، أو كانت تعرضت ليقظة الأتباع في أنهم رأوا ما رأوه من عوامل الفقر وقد أحاطت بهم، ورأوا مع ما رأوه من عظمة وجلال الكهنوت بين الثراء والولاء الذين كانوا يعيشون في أحلام تشبه أحلام الأنبياء، على أن البعض منهم كان يشعر أنه من الأنبياء، وكانوا يرتاحون إلى هذا الفردوس الأرضي، والفقراء يلاحقون خيال الرغيف وإلى هذا النعيم الذي ما عرفه آدم، ولا عرفه موسى، ولا عرفه السيد المسيح.

وعندما ظهر الإسلام، ورأى ما رأى من تصرف الروحيين القدماء، كان أن بدأ دعوته بين الفقراء، وهرع هؤلاء بكل لهفة لقبول هذا الدين، ليس لأنهم كانوا بحاجة إلى دين فقط ومنهم من كان لا يعرف الدين، بل اندفعوا بهذا القبول لأنهم وجدوا فيه سلاماً وقناعة ومساواة، ووجدوا أن الإسلام

أرجع إليهم «الرغيف المفقود» في تقرير الزكاة والخمس[1] كما فعل موسى في تقرير العشر، بل جعل لهم حصة في أموال الأغنياء.

وتمكن الشرع الإسلامي في ظهوره وتركيزه على احترام الحقوق الإنسانية أن يحدّ من نفوذ السلطة الثيولوجية ذات النفع الخاص، وحرّم على «خدمة الدين» وفي الإسلام خادم دين لا رئيس الدين - أن يتقاضوا أجراً في فتوى أو خدمة أو عقد زواج وإجراء طلاق[2] أو في موت يتبعه فراق، بل جعل الخدمة الدينية خدمة خالصة لوجه الله وفي سبيل الله، في رغبة التقرب إلى الله للوصول إلى الاطمئنان النفسي في الأجر والثواب.

وفي الإسلام لا يوجد «روحانية كهنوت» أو رهبانية أو مراتب ثيولوجية يعلو بعضها على بعض كأنها مراتب عسكرية فقد حرّم القرآن الرهبنة، واعتبرها بدعة لا صلة لها بالدين ولا علاقة لها بالفرائض، بل هي اختيار - كما نرى - لم يكن له ضرورة، ولا كتبه عليهم أحد، وهم الذين يكتبون على أنفسهم ما يكتبون، كان الكهنوت اليهودي والمسيحي، قبل حدوث مراكز الإكليروس والأحبار التي تحولت إلى «حكومة ثيولوجية» ذات نفوذ وسلطة وقوة جاه، يعمل لخدمة الإلّه خدمة تجرد عن المادية والوجاهة أو الفخامة الاجتماعية.

والذي نجده في تطور حياة الرؤساء الروحيين، أنه كان من واجب هؤلاء وقد اختاروا الخدمة الدينية أن يقتدوا بموسى - إذا كانوا من اليهود - وأن يقتدوا بالسيد المسيح إذا كانوا من النصارى، وأن يقتدوا بالرسول محمّد إذا كانوا من المسلمين..

وقد يقول قائل إن هذا الاقتداء هو اقتداء بالصوفية - فالنبي هو غير الفرد - والواقع أن التصوف الإسلامي، يرجع إلى طريقة الأنبياء في الظاهر،

(١) الخمس أوجده يوسف يوم كان عزيزاً في مصر، إذ جاء في سفر التكوين الإصحاح الحادي والأربعون «ليفعل فرعون فيوكل نظاراً على الأرض ويأخذ خمس غلة أرض مصر في سبع سني الشبع».

(٢) وفي قول آخر يمكن تقاضي الأجر على عقد الزواج وإجراء الطلاق.

ويتأثر بالفلسفة الهندية والمذهب الهندوسي أو البوذي القائل بالامتناع عن إيذاء أي كائن حي، وفي أنه لا شيء موجود إلَّا بوجود الذات، وإذا كانت الذات هي في الوجود فلماذا الخوف؟ والخوف يأتي من عوامل ثانية، والثنائية أو الازدواجية غير موجودة في الطبيعة، بل هي كل في واحد وواحد في كل، فالخوف إذن غير موجود.

وطريقة الصوفية الإسلامية كانت معروفة عند اليهود والنصارى القدماء الأتقياء، وعقيدتهم كانت أن المعرفة المتصلة بمعرفة الخالق والحقيقة الروحية، يمكن أن تُعرف وأن تُدرك بالتأمل والرؤيا أو النور الباطني، وليس من المستطاع أن تُعرف بالإدراك الحسي الطبيعي، أو في منطق التفكير الاصطناعي.

والصوفية كما تفهمها البوذية هي خضوع واستسلام لنظام الاهتزازات العقلية الذي ينتج عن نشوة غير منظورة، وعندما يحدث فعل النشوة في أجواء العقل والقلب يمكن عندئذٍ التعرف على الذات، أو الوصول إليها بالإدراك الحسي، والصوفية بمعناها الروحي هي غير النشوة التي تولد طبيعياً في النفوس على أثر تفاعلات كيماوية، أو اصطناعية، بل هي أبعد منها عمقاً في معرفة الحياة.

ونظام الاهتزاز العقلي يحتاج إلى ممارسة وتعويد، حتى يصبح إدماناً وشوقاً، ضمن تيارات موجة أو ذبذبة شبيهة بموجة الكهرباء، التي قد يحدث عنها هذا الاهتزاز، فالأبعاد والكمية يظهران في لون واحد من الألوان السبعة والطيف والصورة يتكيف إظهارها على هذه الألوان.

وقال شاعر من أهل الصين بالإشارة إلى ممارسته الصوفية: «إنني أغسل جميع أوضار الحياة عن ثقوب جسدي».

والفعل في حدوث الاهتزاز العقلي، هو عالم آخر داخلي، تحركه ذبذبات واهتزازات ذات ميزة خاصة، تتصل في جميع أعضاء الجسم وخلاياه، وينكر البوذيون والهندوس عقيدة القضاء والقدر ـ والناس عندهم هم ضحايا القدر والقضاء ـ ففي الوجود الواقعي لا يوجد «قضاء وقدر» بل يوجد

إغراء في الذات من الذات، عندما تلجأ أتوماتيكياً إلى التصور بالخوف والحذر من معاني القضاء والقدر.

وعندما تقوم الذات بالتجرد من الخوف، وبالابتعاد عن كل شيء يكون الحذر - وذلك بإسقاط عقيدة القضاء والقدر - عندئذٍ يتفاعل خيال التصورات الحسيّة في دفع الذات للوصول إلى الحرية النفسية وسلامة التفكير، وفي أنها تعلو عن الذات الطبيعية إلى الذات السوبرمانية، ثم تنشأ عن ذلك قاعدة القبول المجرد، إن رفض الألم هو الألم، ولا بد للحاضر والمستقبل في سمو هذه السوبرمانية، أن يصبح كأحوال عادية لها اتصال بالماضي الذي ينتقل في جذور الوراثة، ويرجع الطيف أو طائف العقل إلى الذي حدث بما قد حدث.

والفيلسوف الإغريقي «هواقيلوس» قال: إن كل شيء يجري أو يسير، وإنك لا تستطيع أن تقف مرتين ضد هذا المجرى، وكل ذات عادية تذوب في الطبيعة الإنسانية إلى نهاية مجهولة. أما الذات التي ترتفع فوق الوجود المادي والطبيعي، فإنها لا تفنى أبداً، بل إنها خالدة إلى الأبد..

والأسماء والألوان والتصورات والعقائد المنبثقة من مفاعيل الأنانية هي «مرآة خادعة» والذي يحدث في ظهور الأشباح التي تتراقص فوق وجه الزجاج - زجاج المرآة - هو أن تحولاً جذرياً يطرأ على طيف التفكير، ويدفع به بالاتجاه عن الذي يكون صحيحاً إلى الذي قد يكون غير صحيح.

ولقد تأثرت مفاهيم التنظيم في الرتب الثيولوجية في الإسلام، بالذي هو عند الكهنوت المسيحي من الجاه والجلال، ومن الإغراق المثالي في حب السلطة والتسلط فوق نفوس الأتباع، ومن ضخامة الإطلاقات والتسميات الثيولوجية، كصاحب القداسة لخليفة المسيح على الأرض - البابا - في روما، وصاحب النيافة أو الفخامة لمن يأتي بعده في المنزلة بعد الخلافة، وصاحب السيادة للمنزلة الثالثة...

والتأثر بالتنظيم المسيحي الديني من المسلمين هو تقليد لا صلة له بالتنظيم، نشأ يوم كانت الدولة العثمانية بعد أن كان في دور الخلفاء

الراشدين غيره اليوم، فمن شيخ الإسلام ـ إلى شيخ الأزهر ـ ومن شيخ الأزهر، إلى دار الافتاء. ومن آية الله إلى روح الله، والسيد الأعلى والحجة وصاحب الفضيلة والسماحة والسيادة إلى آخر ما عند المسلمين من ألقاب تشريعية أو تكريمية، مع أن الإسلام حذر من نشوة الألقاب، ومنع العلماء أن يقفوا على أبواب الزعماء...

ومن الطبيعي أن يكون لكل رتبة وظيفة، ولكل وظيفة سلطة، ولكل سلطة قوة ونفوذ، وفي سلسلة هذه الإغراءات مخالفة لقواعد الإسلام الأصيلة الذي يدعو إلى الإخاء والمساواة في كل شيء ـ بصرف النظر عن التقوى والعلم ـ ومتى تقررت المساواة زالت معاني الرتب والتعالي والشعور بالعظمة المزيفة، وحتى لا يكون دولة أو حكومة بين الفقهاء في إسقاط الإسلام لدولة الأغنياء ـ لأن الرسول ـ وهو القدوة المثلى للمسلمين ـ ما ادعى في أيامه وفي رسالته السلطة والتسلط، وما أمر بالرتب والألقاب بل كان كما جاء في القرآن الكريم:

﴿ إِنَّمَآ أَنَاْ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ ﴾ (سورة الكهف/١١٠) فالتمييز أو التمايز ليس من طبيعة الإسلام، ولقد ولد الرسول يحمل اسم محمّد بدون لقب اجتماعي، ـ بصرف النظر عن النبوة ـ ومات وهو يحمل اسم محمّد، لأن الألقاب الدينية أو الألقاب الاجتماعية بتعبير واضح، ليست هي صالحة في التطبيق على الذي في أن يكون له رتبة وألقاب، بل هي من مخترعات الإطلاق على الزعامة الاقطاعية والسياسية.

الإنسان المسلم والإسلام..

من الصعوبة في كل بحث ـ وخاصة في البحث عن الإنسان المسلم ـ أن نجد المصادر التي يمكن الاعتماد عليها في الرجوع إلى التاريخ، فالإسلام ضائع في التاريخ والإنسان المسلم ضائع أيضاً في التاريخ، ونجد مع هذه الصعوبة من الضرورة أن نرجع إلى الجذور أو التربة الطبيعية، أو شكل العقائد، وأن نأخذ بنظام التشابه أو المقارنة، لكي نصل إلى الحقيقة لا

إلى الصورة عن الإسلام التي تكون قريبة إلى الفهم بغير مواربة أو التواء، أو تكون بعيدة عن الانحياز العنصري الذي شغل الإسلام والإسلام مشغول به.

والإسلام كما نراه، هو نبتة طيبة، كالوردة الخالدة، يبتدىء تفتّحها في ربيع الحياة، وكأنها بذرة إلّهية تعطي الحياة في وجود وكون، وتتدرج في النمو الطبيعي إلى أغصان وأوراق، حتى إذا بلغت مرحلة البلوغ البيولوجي بدأت تكسوها الحياة بأغصان وأوراق ندية خضراء، وبدأت البراعم الفتية بالظهور مع أحلام الفيء والضوء والإنداء، لكي تبدو الألوان بالزينة فوق العروق، وتفوح روائح الأطياب فوق الأرض في الارتفاع إلى الفضاء...

والذي حصل في ظهور الإسلام ـ وأي شيء لم يحصل ـ وفي مراحل التحول السياسي والعنصري، ووجهة مسيرة الإسلام، هو أن بعض القائمين عليه سخروه للمطامع الشخصية، واستعملوه للتقريب والتبعيد، وكان من المنتظر أن يكون الإسلام جاء لخدمة الإنسان ـ أي إنسان ـ في وجوده وحياته، وجاء لخدمة الوجود في وجود الإنسان، إلاَّ أن الأتوقراطية الثيولوجية العربية التي نشأت إلى جانب عرش الخلافة بعد وفاة الرسول حوّلت الاتجاه الإسلامي من أن يكون كدين عالمي إنساني، إلى أن يكون هذا الاتجاه والمجرى والانصباب، يتجه في البدء إلى خدمة رفاق الرسول والأصحاب والخلفاء والقضاة والأمراء، وفي أن تحصر الخدمة الإنسانية في القومية أو العنصرية العربية التي كانت عقيدة وراثة في شكل نظرية، غير أنها تحولت من عقيدة إلى مذهب، ومن مذهب إلى تشريع وتكريم وتقديس تقليداً للإكليروس المسيحي والعنصرية اليهودية.

وكانت أولى طلائع أو ظاهرة هذا التحول، أن بدأت بالنشأة في اليوم الأول الذي بدأ الخليفة الأول أبو بكر عمله الخلافي، إذ تقدم عمر بن الخطاب ـ أبو حفص ـ في عرض هام إلى الخليفة الجديد وذلك بطلب صعب التنفيذ، أن يُقام الحد الشرعي والإسلامي، على خالد بن الوليد الذي قتل ابن النويرة، ودخل على زوجه في يوم ومساء واحد، إلاَّ أن الخليفة مع الذين كانوا حوله من الأتباع والقضاة والمستشارين، قرر عدم إقامة الحد على

خالد، وجاءت هذه التبرئة في تركيزها على قاعدة الأتوقراطية العربية الثيولوجية، وفي أن خالداً، كان قد اجتهد في الرأي وأخطأ، والاجتهاد مع الخطأ هو حال لا يجب معها القصاص لأن التهمة ترافق نية الاجتهاد، ولا تدخل نية الشهوة والأنانية الاقطاعية أو القصد في هذا الموضوع.

وعندما صار عمر بن الخطاب خليفة، وقد بقيت في نفسه «فعلة خالد»، حكم على خالد في قاعدة الاجتهاد وفي الرأي، في إسقاطه من رئاسة الجيش الإسلامي، وبذلك عزله أو جرده من الحقوق المدنية وبعض الحقوق الإسلامية، وكان من رأي الخليفة عمر أن يشهره في تجاوز حدود الشرع، لا أن يقيم عليه الحد، وذلك احتراماً لرأي الخليفة الأول، وكان في نفسه مع هذا الاحترام شك وردة فعل قد يؤثر على خلافته إذا هو خرج على حكم الخليفة أبي بكر.

من هنا نشأت الأتوقراطية في تناقض الحكم بين هذين الخليفتين، وتمكنت أن تتخذ لنفسها اتجاهاً جديداً في تسخير الإسلام للمصلحة العربية العامة، وما كان الإسلام بالذي يدعو إلى العنصرية واللون والقبيلة والمقاطعة الجغرافية، بل إن الإسلام جاء لخدمة الإنسان ـ أي إنسان ـ.

ومن الطبيعي في هذه المحاولات العنصرية ، لجعل الإسلام موقوفاً على خدمة العرب في التشريع والتنفيذ والأصول والفروع، أن المسيرة الإسلامية قد تجمدت، وأصبح هذا الدين وكأنه شكل من الأشكال العنصرية أو القومية وفي هذا الشكل تنطوي الأهواء والميول الشخصية الانتهازية، وأن يولد مع هذه الميول «الإجماع» الذي أخذ مكان الكتاب والسنة في بعض الأحكام والقضايا وأن يكون الدليل في القضايا الشرعية الفرعية هو المعمول به وأحياناً لا يعمل به.

أما الشيعة من المسلمين فقد اعترضوا على تقرير شكل «الإجماع» المعروف عند السنة «أنه يؤدي إلى إثبات الشيء بنفسه وهو تبرير باطل، وعالجوا قضية العصمة في أنها قاعدة من قواعد الحكم الإسلامي، وأن الأمة ولو أجمعت فهي معصومة من الخطأ بل من الممكن النظر إلى اتفاق الأمة أنه

يؤدي إلى إظهار رأي يمكن أن يكون معصوماً، فالعصمة في المنكشف لا في الكاشف».

القيــاس:

والقياس في الإسلام، يسير مع الإجماع وعدم الإجماع في التشريع الإسلامي، وما كان هذا القياس ذا قيمة واعتبار شرعي، في عهد الخلفاء، لأن البعض منهم على ما يظهر بدأ في الاجتهاد في الرأي، وانتهى الرأي إلى مصلحة الاجتهاد، وهذا الاجتهاد ـ باعتراف الفقهاء ـ يتعرض للخطأ كما دلت نتائج القضايا التشريعية والقضائية إلى ترافق حكم الخلفاء، وحكم البعض الآخر، وهذا الحكم كان في البدء يرجع إلى الكتاب والسنة. وإلى الاجتهاد الذي يتوافق مع نص الكتاب والسنة، إلَّا أن الاعتماد على الاجتهاد في الرجوع إلى السنة والكتاب، كان صعب التنفيذ والعمل لعدم موافقته مع ما في الكتاب والسنة من تشريع صامت أو مغلـق أو معطّـل يتناوله الفقهاء أحياناً بالتحليل الضمني على مفـاهيم العقل، والعقـل ـ وخاصـة العقل الإسلامي العربي ـ بما فيه من اختلافات عاطفية ومن مؤثرات كيماوية، قد تعطي النتيجة في الحكم الصالح للاجتهاد، وقد تعطي سراب الكلام، الذي يحسبه المجتهد في الرأي في تسخير العقل أنه حقيقة ثابتة، وهي قد تكون في واقع الحقيقة ملأى بما يتركه السراب من هواء ورطوبة وحرارة وغبار.

ظل القياس معلقاً بين أن يعمل به أو لا يعمل، بعد ذهاب الخلفاء حتى إذا كانت أيام المذهب الحنفي، توسع الإمام أبو حنيفة ـ إمام هذا المذهب ـ في القرن الثاني الهجري بالقياس، وجعله في حال واعتبار، يتجاوز حدود الشرع والأحكام المبنية على الكتاب والسنة أحياناً أو يخرج عليها، في حين أن فريقاً آخر كان يرجع إلى القياس في تجاوز الإجماع، وفريق ثالث أرجع الحديث إلى القياس، وقام بشرح الآيات القرآنية على هذا الأساس. أما المسلمون من الشيعة، فإنهم أسقطوا اعتبار القياس في أن يكون وسيلة لصدور الحكم الشرعي، ووافقهم على هذا الإسقاط الحنابلة أتباع الإمام أحمد بن حنبل، ويلحقهم في ذلك الظاهريون أصحاب داود بن خلف، إمام أهل الظاهر..

وتعتمد الشيعة في هذا الإسقاط على الذي ورد عن أئمتهم في القول: «إن دين الله لا يصاب بالعقول، وإن السنة إذا قيست محق الدين».

السنـــة...

والسنة تُعرف في المنطق التشريعي عند المسلمين في أنها: «قول النبي أو فعله أو تقريره» رجوعاً واعتماداً على ما جاء في سورة (الأحزاب/٢١) ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾﴾.

واختلف الفقهاء في تفسير هذه الآية وفي تقرير وجوب الاقتداء، أو عدم الاقتداء، فقالوا بالاقتداء على قاعدة الاستحسان والاستحباب، إذ يأتي الاقتداء بهذه القاعدة في نطاق عدم الوجوب .

ونعتقد في الرأي الصريح، أن قول النبي وفعله وتقريره، يبعد في الواقع عن هذا التفسير الاجتهادي، فحياة الرسول كانت حياة إنسان وحياة نبي، وما ندري إذا كان القول والفعل والتقرير يأتي مع حياة الرسول الإنسانية أو مع حياته في النبوة، تلك الحياة الأولى والثانية التي يجب أن تكون مكيفة بالتطبيق الإيجابي على حياة المسلم الذي يتألف منه المجتمع، ومن المجتمع تنشأ الأمة ـ وأن يكون الرسول المثل الأعلى في الأخلاق والتصرف والمسلك الاجتماعي والديني، وليس المهم في السنة أن يكون فيها وجوب أو عدم وجوب، بل المهم تنظيم أحوال الشخص في تنظيم شخصية العائلة والمجتمع والأمة بما يوافق قول الرسول وفعله وتقريره.

وقد لخّص العلامة الملي النجفي موضوع الاقتداء بقوله:

«إن الاسوة عبارة عن الإتيان بفعل الغير لأنه فعله على الوجه الذي فعله، فإن كان واجباً تعبدنا بإيقاعه واجباً، وإن كان مندوباً، تعبدنا بإيقاعه مندوباً، وإن كان مباحاً تعبدنا في اعتقاد إباحته».

والفلسفات الفقهية التي استعملت لشرح الآيات القرآنية في إخراج

الحكم، هي غير كافية للقبول والاقناع، لأنه ينطوي فيها الميل العاطفي مع العنصرية والمذهبية، من ذلك أن الفقهاء فسروا الآية القرآنية التي جاءت في (سورة الحشر): ﴿ فَٱعۡتَبِرُواْ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَبۡصَٰرِ ﴾ ففسروا الاعتبار بالعبور والتجاوز، والقياس عند أهل السنة هو عبور وتجاوز من الأصل والفرع، والواقع الذي يأتي في كشف وتركيب كلمة الاعتبار، هو الإيقاظ أو العبرة في أمثال ما يحدث، ويؤكد الفريق الثاني - الشيعة - أن القياس باطل اعتماداً على ما ورد في البحث «إن دين الله لا يصاب بالعقول وإن السنة إذا قيست محق الدين» . . .

ومن الممكن في ضياع هذه الآية ومعناها في متاهات الانطلاق التشريعي أن بقية الآيات في القرآن قد تجمدت، وأقفلت عليها أبواب الشرح الأصيل لعدم وجود الكفاءة والقدرة العلمية عند بعض الفقهاء الذين حصروا التفسير - وهو القرآن الثاني - في الإعراب واللغة وتمجيد الأتباع والأصحاب.

أما الإجماع - بالعودة إلى الإجماع - الذي سبق مشكلة الاجتهاد في الرأي، والذي هو الركن التشريعي في أصول الفقه بين المسلمين، فتفسيره - أي الاجماع - عند أهل السنة «هو أحد الأدلة الأربعة، أو الثلاثة في التكييف الشرعي بما يقابل الكتاب والسنة».

وعند المسلمين من الشيعة «إن الإجماع هو أحد الأدلة على الحكم الشرعي، وهذا الدليل يكون ذا شكل واسم لا غير، ولا يمكن اعتباره دليلاً مستقلاً، في مقابل الكتاب والسنة».

الإجماع والخلافة:

كانت البيعة - بيعة الخلافة - موضوعاً للخلاف بين المسلمين، وسبباً إلى الانقسام إلى سنة وشيعة، مع أن الإسلام هو الإسلام لا سنة ولا شيعة فيه، ويؤكد فريق من المسلمين أن هذه البيعة لم تكن قائمة على النص في القرآن ولا على السنة سنة الرسول، واختلط الرأي يوم اختلطت مشكلة الخلافة بالخلاف، وظهرت أقوال وأقوال في أن الرسول أوصى بالخلافة،

وفي أنه لم يوص، حتى انقلبت الخلافة من أن تكون «اخلافاً» للنبي في الدعوة والإسلام، إلى بيع ومزايدة في الاختلاف وبعدت بعداً عميقاً عن المعنى الثيولوجي الذي بدأ في آدم يوم أبلغ الله الملائكة أنه سيجعل خليفة في الأرض، وكان آدم هو أول واخر خليفة بالمعنى الديني.

إن بيعة الخلافة ـ وكان يجب أن يقال انتخاب الخلافة ـ لأن كلمة بيع ومبايعة هي من خصوصيات التجارة والمقايضة، تركزت على الإجماع في الرجوع إلى الإجماع، وكان من نتيجة هذا الاعتماد أن قام الحكم فيها على الاجتهاد في الرأي ويتلخص:

- اجتماع أهل الحل والربط وأتباعهم من المسلمين في المدينة على البيعة، فهي بناء على هذا الإجماع الذي هو إجماع بيعة شرعية.
- الإمامة التي كان يجب أن تتولى الأمور، أمور المسلمين، بعد النبوة هي من الفروع ولا صلة لها بالأصول.
- الإجماع هو حجة في مقابل الكتاب والسنة، أو دليل ثالث لا حاجة بوجوده إلى الرجوع إلى القرآن والسنة...

ويستدل من شكل هذا الحكم الذي أخذ ناحية العصبية العربية، أن هواية خاصة في عدم الالتفات والتقيد بالنص والكتاب والسنة، يعطي الرأي أن الخلافة كان متفقاً على مصيرها بين الأتباع قبل وفاة الرسول، ولا حاجة إلى إثبات ذلك بالرأي القاطع، بل إن الظروف والأحوال التي رافقت الخلافة، كانت ظروفاً صعبة، أو كانت التجربة الأولى لإيمان المعتقدين، ولا نقطع على أي فريق تقع المسؤولية، فاختلاط العنصرية وآثار الوثنية في الصدور، والخصومات القبائلية والايغار الشخصي في الصدور، يجعل الخلافة، مع الخلافات المذهبية والعصبيات القبائلية التي كانت تلازمها، كأنها لم تكن خلافة إسلامية، بل هي خلافة عربية تحمل في معناها متروكات القديم الذي فيه شيء من الوثنية العنيفة.

والإسلام بناءً على ما حصل من تأثير هذه النتائج المؤسفة التي جزأت معنى الإسلام ووقفت في وجه المسيرة العالمية، ووضعت التشريع في فوضى

التشريع تحول إلى معتقدات شعبية عربية لها طاقة قوية لخلق الأساطير والخرافات التي جاء الإسلام ليدفنها في صدور أهل الاعتقاد في الخرافة والشعوذة وعبادة أسماء الأشخاص.

ويتحدثون عن الشريعة وعن الكتاب والسنة والإجماع والعقل والقياس والاجتهاد، وكأنهم بذلك أرادوا أن يخدموا الإسلام وما خدموه بهذه المغالطات والمتناقضات بين تعابير اللغة والأسماء التي أرادوا أن يخضع لها الكتاب والسنة والإجماع والقياس والاجتهاد على ما نراه في صدور الأحكام الشرعية، التي تكون غالباً لا تتصل ولا تتفق مع الذي ورد في الكتاب والسنة.

وتكاد المغالطات والمتناقضات في هذه «الأدوات اللغوية» تخلق رغبات جسدية للقوى الروحية، قالوا عنها إنها قوى روحية إسلامية وهي في الواقع تدعيم للقوى العربية، وتجريد للدوافع الإسلامية في أهدافها إلى العالمية أو الشمولية.

ويذكرنا هذا الالتجاء إلى المقاييس أو القياس وغيره ما قاله أحد الفلاسفة: «إن تعريف الحضارة المادية يعني الفناء» وإن تعريف الكتاب والسنة بالقياس والإجماع والاجتهاد إذا ظل الشكل الإسلامي يخضع لسلطة وتأثير الخلافات، يعني الفناء والإعراض والالتحاق بالإلحادية المادية.

إن المشكلة الإسلامية لا تنتهي إلَّا بإلغاء عقيدة الخلافة، وإلغاء المذاهب الخمسة، وإعادة النظر في «الأدوات اللغوية» التي مرَّ ذكرها، بحيث ينشأ مع هذا الإلغاء الرجوع إلى الكتاب والسنة وأن يكون للمسلمين إله واحد وقرآن واحد ونبي واحد وقانون إسلامي واحد أو شريعة واحدة.

والمصادفات في حل المشكلة أو القضية أو الحكم التي تأتي عن طريق القياس والإجماع والاجتهاد في الرأي، هي مغالطات أو تناقضات تؤدي إلى الفوضى في الاعتقاد، وإذا لم يكن الكتاب والسنة غير كافيين لمعالجة المشاكل الإسلامية، فكيف يمكن للقياس والإجماع والاجتهاد في الرأي الذي هو بحاجة إلى المعالجة والمراجعة وإعادة النظر، وأن يكون له

فعالية وقوة ثيولوجية أو دينية تقوم بحل مشكلة الشارع الإسلامي والعقل الإسلامي الذي يتعرض لمؤثرات الحضارة المادية الإلحادية.

ولقد خسر الإسلام بالخلاف على الخلافة، وبالذي حدث من مشاكل القياس والإجماع والاجتهاد في الرأي وبالذي وزّع القوة الإسلامية على مذاهب خمسة، والإسلام دين قوي وثري لا يحتاج إلى مذاهب، الاتجاه العالمي والانتشار والامتداد إلى المقاطعات الجغرافية التي تضمر العداء والخصومة للإسلام.

القرآن والتفسير والرسول:

لقد وضع الفقهاء من المسلمين ـ القرآن والإسلام والرسول، تحت إجبارية خضوع للاعتقاد الثلاثي ـ السنة والإجماع والعقل، وتحت الإلحاق أو الالتحاق العقائدي في ملابسات القياس والاجتهاد والاستنباط الذي سبقهم إليه اليهود في التشريع والأحكام، ومن الغريب أن الإطلاق والإشاعة والفوضى في العقائدية، يرجعونه بالإسناد إلى القرآن «أحكاماً قطعية وغير قطعية» «لوجود المتشابه والمحكم، والمحكم منه نص، أي قطعي بالأدلة، ومنه ظاهر، والظاهر يتوقف على إثبات حجة الظاهر».

وقالوا: «إن الظواهر هي حجة في القرآن، في الناسخ والمنسوخ، العام والخاص، المطلق والمقيد، المجمل والمبين»، ثم ينتقلون بهذه السلسلة الأصولية إلى الآراء المجهولة في أن هذه التفاصيل الشرعية لا تجعل القرآن قطعي الدلالة في كثير من الآيات.

وإذا كان هذا التدليل الذي هو فلسفة في المثالية كالفلسفة الهندية والفلسفة الإغريقية وشرع اليهود، يدور حول الرجوع أو الالتجاء إلى الدليل القطعي في حكم نسخ الآيات القرآنية وفي السنة والإجماع، فلماذا يكون في القرآن «ناسخ ومنسوخ» إذا كان يخضع للدليل القطعي، وما هو هذا الدليل؟ ومن أي مصدر يأتي، وإلى أية نتيجة شرعية أو غير شرعية يؤدي، وهل يكون هذا الدليل في مصلحة الإنسان، أو يكون لغير هذه المصلحة إذا واجه في شكله موضوع الثبوت وعدم الثبوت.

وعند الأصوليين ـ أصحاب علم الأصول ـ «أن الحروف ليست بذات معانٍ، والمعنى الاسمي والحرفي متحدان بالذات، مختلفات بـالألفاظ» وهكذا نشأت عقيدة التثليث في النصرانية، بل من ذلك نشأت الـدلالة المنبثقة من الإرادة، وهي تكون تصورية أو تصديقية أو أقاموا بعد ذلك الأحكـام على الحـرف واللفظ والمعـاني والـظواهـر والـذات والتـرادف والاشتراك، ولعلهم في هذا التعارض وهذا التعقيد في فهم الشرع في صدور الحكم، أقاموا فلسفتهم هذه على قول الإمام علي بن أبي طالب في تقسيم الكلمة:

«الاسم ما أنبأ عن المسمى، والفعل ما أنبأ عن حركة المسمى، والحرف ما أوجد معنى في غيره».

وتعريف «الموجود» عند الأصـوليين مأخـوذ عن الفلسفة الإغـريقية والهندية، إذ أشاروا إليه بتعريف ذي أربعة وجـوه:

- موجود في نفسه ولنفسه بنفسه، وهو واجب الوجود.
- موجود في نفسه لنفسه بغيره وهو الجوهر كالجسم والنفس.
- موجود في نفسه لغيره بغيره وهو العرض.
- موجود في غيره وهو المعنى الحرفي ويقال له الرابط...

والذي يدعو إلى الاستغراب، ـ استغراب في الظن والشك بوجود ثيولوجية وثنية ـ بهذه الفلسفة، وفي الذي يعتقد به المسلمون بما ورد عن الفخر الراضي، أن الله تعالى طلب رضاء الرسول في ثلاث حالات من آيات القرآن الكريم:

١ ـ ﴿ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا ﴾.
٢ ـ ﴿ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ ﴾.
٣ ـ ﴿ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ ﴾.

إن هذه العقيدة التحليلية للآيات بعيدة عن الرضا بمعنى الرضا، ففي حالة الرضا الطبيعية يجب أن يكون هناك سابقة لعدم الرضا، وإذا لم يكن

ذلك واقعاً، فقد يكون حدث بطريقة استجداء، كما هو استجداء العبادة في العهد القديم من الإلّه ـ ينطوي فيها الذل والخيبة والتزلف، والرضا في الآيات لم يكن للنبي، أو محصوراً في رضاه، بل هو رضى المسلمين ـ قبلة المسلمين ـ ورضا المسلمين أي قناعتهم التعبدية في الإعطاء والتوجيه والقبول، ويكون الرضا بالنسبة إلى الرسول داعيةً للشكر المنطوي على عاطفة الرجاء في الإعطاء الذي يرضي النفس، أي أن يحل فيها الفرح والابتهاج، يضاف إلى ذلك أن الرضا، على افتراض ما يتصوره الأصوليون وأهل التفسير، الرضا المتبادل بين الله والرسول، هو قبول وقناعة وفرحة عند الرسول وهو شكر وحمد من الرسول لله على عنايته ورعايته للمسلمين في إعطائهم القبلة في التوجه بالعبادة .

وأضاف القرآن إلى الرضا في «القبلة» في إيضاح الأمر والنهي (البقرة/١٤٩) ﴿فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ﴾ (البقرة/١١٥).

وهنا يتدخل الأصوليون بحل المشكلة التي هي ليست من المشاكل المعقدة، فقالوا إن الآية الثانية نسخت الآية الأولى، ثم قالوا إنه يوجد هناك «ناسخ ومنسوخ» وخاص وعام، ونعتقد أن هذه الآية نزلت ـ للذين يعرفون ولا يعرفون ـ كيف يكون تعيين «القبلة» للعبادة أو الصلاة.

ومن يطلع على الأبواب والقواعد المتبعة في علم الأصول، يجد كثيراً من التناقض والتعارض، في:

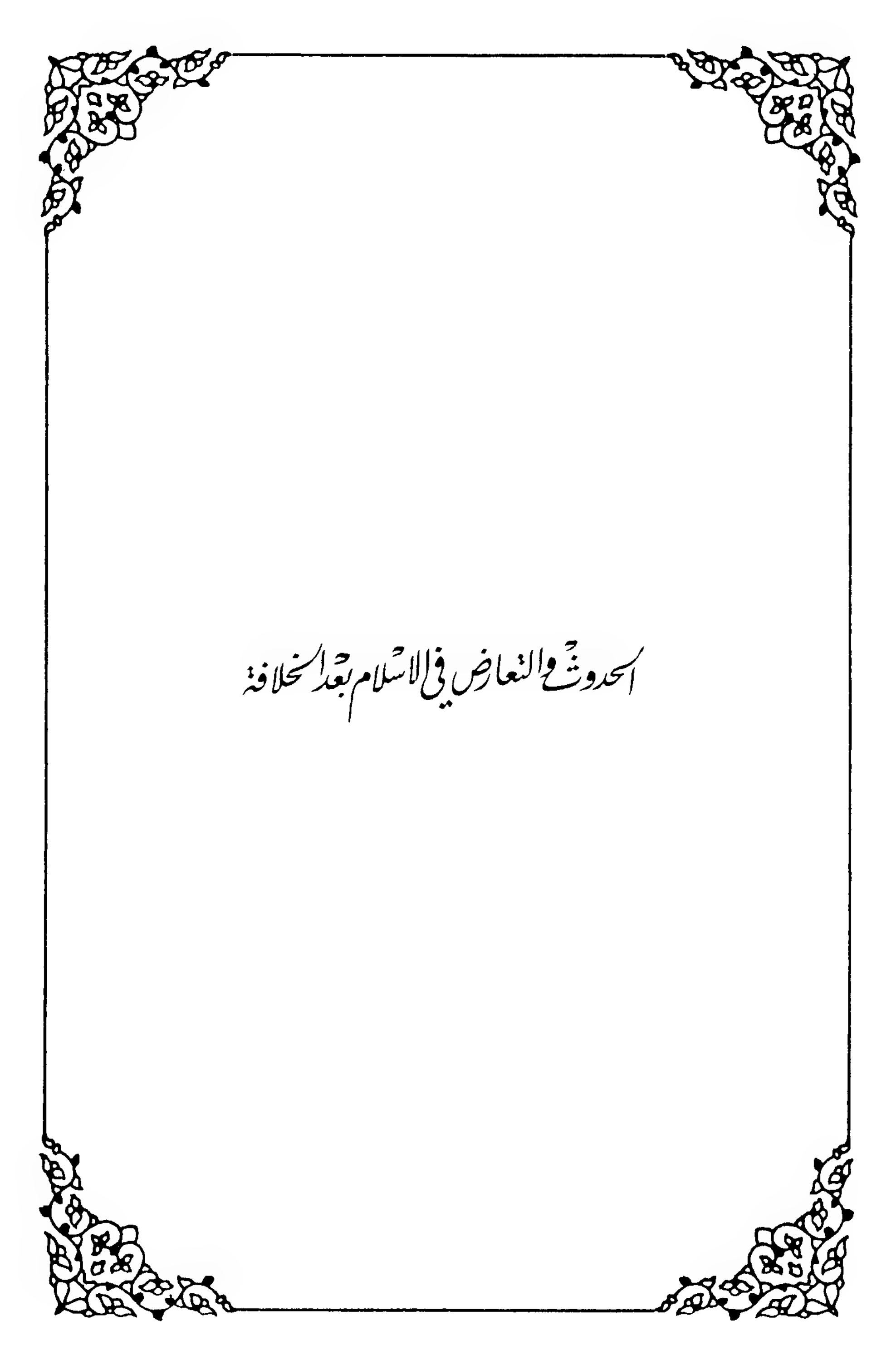
- الإجماع يقع على التصحيح لا على الصحة، وأحياناً على الصحة لا على التصحيح.
- خبر الواحد لا يوجب علماً ولا عملاً، حتى ولو كان ذا ثقة أو صدق أو يقين، وهذا تعارض مع الخبر المصدق والثقة.
- القياس لا يعمل به في الشرع لأنه لا يؤدي إلى العلم، وكذلك أخبار الآحاد لأنه قد يختبىء في القياس ظن وشك ينطوي على ما وراء القصد والنيّة، والعمل بالظن غير العمل بالعلم، إذ لا يجوز العمل بالظن أو إثبات

الواقع، أو إثبات الذي لم يقع، في أنه واقع بالظن، واستدلوا على ذلك بما جاء في القرآن: ﴿وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا﴾، ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾.

- الحوادث لا نهاية لها، وهذا تعارض ظاهر كمن يقول لكل حادث سبب ولكل سبب حادث.

وفي الإسلام آراء ونظريات تكاد تكون نظريات وثنية، وعلم أصول الفقه وعلم الكلام وعلم الحديث والمنطق، لم يملأ الفراغ الثيولوجي الذي يتعرض له الإسلام، وماذا يفهم المسلم المتعبد أو المكلف الذي زرعوا في نفسه ألغام الخوف والرعب والذعر من الله، والله حليم غفور، أو يهمّه أن يفهم قيام الحكم على المنطق والقياس والإجماع والاجتهاد في الرأي، أو أن يقول علماء الكلام: «إن أول واجب هو الشك ولا طريقة للمعرفة إلاّ في البرهان، وهو نوع من أنواع القياس الذي يقررون معه أن تكون مقدماته قطعية حيّة أو منتهية إلى الحس أو مدركة بالبداهة، أو معتمدة على التجربة الكاملة، أو الاستقراء التام كما هو حال الشك في علم المنطق».

وذهب فريق من المنطقيين ومنهم أبو حامد الغزالي إلى أن تجريد النفس من العقائد الموروثة هو ضرورة ترافق الشك للوصول إلى اليقين في النظر والبحث والتجربة والاستقراء، فمن هذا الرأي المنطقي والأصولي، تحل الفلسفة مكان العقل وإن كانت صادرة عنه، وتحدّ من طاقته وامتداده ووظيفته في الأخذ في هذا التحليل العقائدي، فليس للمسلم في حياته ولحياته غير العقل الذي هو الطاقة الطبيعية التي يعتمد عليها في الإدراك والتصرف ومجابهة المشاكل الاجتماعية أو الطبيعية، فعقل المسلم بناء على اعتبارات تلك العلوم الملأى بالتعقيد والتصعيب والتضييق، محاط بالجبرية والإكراه، معطل في التفكير، مشلول في الإرادة، وقد جاء في القرآن الكريم: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَـٰتِنَا فِى ٱلْـَٔافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾، ﴿أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾ (فصلت/٥٣).



الحدوث والتعارض في الاسلام بعد الخلافة



لم يكن في المستطاع ـ بعد الذي تقدم في التحفظ بموضوع البحث في الإسلام ـ أن يكون الباحث أو المؤرخ، ذا حرية مطلقة حتى في محاولة كشف الحق والحقيقة، وذا رأي صريح في عرض المشكلة الإسلامية التي تدور في فلك العصبية العقائدية والعنصرية، وقد ربطت هذه العقائد أو وضعت عصاباً على «عين القلم» ينطوي بل يطلق الأضواء الحمراء على لافتات الخطر والخوف والحذر، تلك المشكلة المعقدة التي لم يجد لها المسلمون حلاً نهائياً يرخي الأطرف بعد الذي جرى في أيام الخلافة، مصدر التفكك الإسلامي ـ وبعد الخلافة، لأنهم تحت دوافع الاعتقاد المذهبي والعنصري، لا يرون، ولم يحاولوا بإخلاص أن يجدوا هذا الحل الذي، قد يُرجع الإسلام إلى سيرته الأولى المرافقة لسيرة النبي والقرآن الكريم.

فالإسلام في وضعه الحاضر ـ وضع الأزمات الاجتماعية والفقر والصعاب ـ التي نتجت عن وجود الفوارق والعداء التقليدي المضمر بين الفرق الإسلامية والمذاهب الكثيرة، هو قضية اجتماعية صعبة، ودين يواجه تلك الصعوبات، والقضية لها أحوال وأهوال، والدين له أحوال وآمال، فما ترك الخلاف أو الاختلاف في الإسلام، للمكلف المسلم أن يفهم الإسلام ـ تحت ضغط العقائد ـ بالذي يجب أن يفهمه في واجب حقيقة الفهم، وما تركت النموذجية العربية ذات الأهداف والنظريات البعيدة الناشئة عن فيض الدهر العتيق ذي المؤثرات والعادات والوراثات الوثنية والجاهلية، للمعتقد المسلم أن يرى الإسلام بما يجب أن يراه في الشكل واللون الروحي الذي تركه الرسول محمّد للمسلمين، والناس كافة...

ولقد أوجدت الموضوعات العربية النموذجية والشعوبية ذات الميول والأهداف المتناقضة، صعوبة في التفكير الإسلامي، بل إفلاساً في الجدل والحوار، وأوجدت إقطاعية بورجوازية في إدارة حكومة الإسلام الأولى، مع ثيولوجية أو نظرة فلسفية متنوعة في فهم الوجود الديني، ومعرفة الفهم في وجود الإلّه، كانت قد نشأت عن طريق التأمل النفسي العميق، المأخوذ عن الحكمة الإغريقية القديمة، وكان أن ظهرت من تفاعل تلك الموضوعات، المبادىء الأرستقراطية المتطرفة، التي دخلت على الإسلام، مع خطأ الاعتقاد ـ عبادة الأشخاص ـ كعبادة القدماء من القديسين عن المسيحية القديمة، وذلك في المبالغة والغلو، والتبرك والتقرب، والتوسل والرجاء الذي يتعالى في الانحراف العقائدي فوق ذكر الله. . .

وما ترك نداء أو استصراخ الإباحة الوثنية القديمة الصامت مع تحرك الوراثة الناطقة، القائم على الجهل والفوضى وانفلات الزمام في النظام القبائلي، للمكلف المسلم أن يرجع إلى تطهير نفسه وقلبه، ومعرفة هذه النفس بمعرفة التوحيد أو معرفة الله تعالى، بل أخذ بعفوية ومؤثرات الوراثة التي تتفاعل أحياناً بالخيال الفكري التصوري، فتعطي انطلاقاً طبيعياً بدافع حب الذات، أو انفلاتاً من واجب الإحاطة وإلزام ـ لا إكراه ـ العقيدة الدينية، وذلك بالرجوع ـ مع الاختيار ـ إلى العادات والوراثات التي خلطوها بتأثير العواطف العنصرية، بالدين، وخلطوا الدين بالوراثة والعادة. . .

وما من شك أن الاقطاعية أو البورجوازية العربية الإسلامية، النامية على تربة النموذجية العربية، أوجدت مجابهة في تقرير المبدأ، أو مبدأ المجابهة في الحوار والنقاش والجدل والمآخذ التشريعية أو الفقهية، بل أنشأت اختلافاً على «المبدأ الجذري» الإسلامي، واصطداماً رمزياً بين مبدأ السنة ونص القرآن. . .

ولقد قام بهذا العرض أو هذا التعارض، نفر من الشيعة المسلمين ـ وقد كانوا قلة في بدء أيامهم ـ أصحاب الإمام علي بن أبي طالب، الذين دفعهم للدفاع والسلب والإيجاب، مبدأ التمسك أو الاستمساك بالمنقول عن

تعاليم النبي وأحاديثه، وبالمعقول الواصل إليهم بانتقال مجرى الزمن، عن أهل البيت، أن يأخذوا نهج الإمامة في الفقه والشرع، لا نهج السنة أو بالكامل من فقه السنة، فاختل بهذا العرض أو هذا الدفاع، التوازن الإسلامي بالقياس والاستنباط والنص والرأي والاجتهاد، وتطور هذا الاختلال ـ بعد ذلك ـ في أنه أصبح عرضة وهدفاً لاجتهادات وملابسات شعوبية خارجية، كاد معها أن يفقد الفكر الإسلامي المحلل الناقد اعتباره وقيمته وتأثيره، وامحى أو ذاب خيال الإسلام في ظاهرة عربية إسلامية جديدة، كما تذوب أشباح التصور في الفكر والتأمل ومؤثرات العقيدة...

وجاء زمن قبل زمن، وزمن بين زمن، وزمن بعد زمن، أدّى إلى ولادة العقيدة الكاملة عقيدة الإمامة عند الشيعة المتمسكة بالأصول وبالمنقول والمعقول الوارد عن أهل البيت، وإلى ولادة الكلاسيكية العربية، أو الإسلام العربي، التي تشبه أو تماثل الكلاسيكية الإغريقية، وهي تتلخص في أن الدين هو عبارة عن تناسب وتجاذب في الحياة، وهو بساطة وتخفيف وتسامح وتغاضي من الشرع، وإلى الشرع، يراعى معه جانب رفع الضغط في شدة المراقبة، والإلزام في الواجب الديني الذي وضعه الإسلام على العواطف وجماح الملذات وعلى الانحراف الخلقي بنوع خاص، هذا الواجب الذي خضع له المعتقد، ولكن تحت تأثير الرفض الداخلي، وعدم القبول المتفاعل والمتضارب في أعماق النفس...

وترى الكلاسيكية العربية الإسلامية، أو الانعزالية عن الدين، ضرورة تجميد الدين في بقائه ضمن دائرة انعزال تدور على الخلاف والالتباس، دون أن يكون لهذا الدين سلطة في تقرير الحكم التشريعي في أحوال التطور والعوامل الحضارية والاجتماعية والحكومية الجديدة، ومن هنا بدأ تأثير الإسلام يضعف في النفوس، ويضعف حتى كاد أن يوهنه الضعف لولا ظهور الثورة الإسلامية في إيران التي لها ما قلّ وكثر من الأخطاء التشريعية، ولكنها لم تخطىء في تجديد الدعوة إلى الإسلام الأول، بل أيقظت الروح الإسلامية من سبات عميق وعلى خطر بعيد، غير أن هذا الإيقاظ لم يدم طويلاً حتى حوّل الثورة إلى دولة، دولة الفقهاء، وولاية الفقهاء.

وكـان من نتائج هذا التحول المفاجىء في يقظة الإسلام، أن ظهرت «المشكلة الإسلامية» بين المسلمين في وجه جديد حمل معه عوامل الظن العقلي في التقدم الحضاري، وتكوّن في أعقاب هذا الظهور ارتياب في النفوس في أن الدين يجب أن يتغير في التشريع وأن يتبدل من قديم إلى جديد وفقاً لضرورات وقواعد وعوامل الزمن المتبدلة المتطورة، كما تتغير النظريات والمبادىء الاجتماعية في مضمون الزمن وزمن المضمون، ومن وراء هذا الظن ظهرت عقيدة الإسلام العربي في أن الديـن يجب أن يخضع لنظام الحياة الذي ينطوي في فطرة وطبيعة النمو والتولد Prapagation، على أن هذه الطبيعة المولدة، المتولدة مجهزة بحتمية القضاء والقدر والانحلال والاستدلال، في حين أن بواطن الفكر الإسلامي العربي، كانت منذ أن تأثرت بالفكر الأوروبي، تدفع بالشك الحائر وبالسؤال الخجول الذي لم يجدوا له جواباً، هل أن الدين جاء بالوحي، مع وضع القرآن جانباً، أو جاء بالتصور والخيال؟ أو أنه وضع من موضوع الإنسان في مجيء زمن يرتبط بذهاب زمن؟؟.

فإن كان الدين بواقع هذا الافتراض هو من وضع الإنسان، جاز حينئذٍ تطبيق نظام الحياة الطبيعي على الدين، وإن كان الدين بحكم الواقع والتاريخ الثيولوجي هو من وضع الإله، أعطي للناس في فترات الوحي والنبوة، فمن الصعب على المعتقدين الانحيازيين الذين تأثروا بالثقافة الأوروبيـة، أن يطبقوا نظام الحياة على الدين، بل من الهيّن تطبيق التشريع أو الدين على نظام الحياة في الحياة. . . .

والتقليد الاجتماعي المستورد من الخارج والخوارج الذي يؤخذ به بغير دراسة لكشف الأضرار، دخل إلى المجتمع الإسلامي وتحول إلى تأثر عميق في الظاهر من مباهج الإغراء وسراب الاستفزاز، إلى انكماش وانقباض وتعقد سيكولوجي، مع بعض الندامة والخيبة، أدى إلى ضياع ثقة المسلم بنفسه وبدينه في شيء من الشك، وفي أكثر من الشك، وإلى ترك الواجب والفرائض وعدم الالتزام بالعبادة وأحكام التشريع.

وكان قد حدث هذا الكفر «بالتعاليم الدينية» على أعقاب تحول المجتمع العربي بالنظر والنظرية وبفعل الاستجابة للمنكر، إلى ما جرى في أوروبا يوم حاول العلماء أن يُجزئوا الدين في اعتباره جزءاً من الحضارة، وفي اعتبار الحضارة أنها جزء من الدين، وأرادوا بعد ذلك أن يخلطوا الحضارة بما فيها من فن وتاريخ وفلسفة وعلوم تجريبية أدّت إلى الحضارة المادية، بالدين الذي هو مجموعة عقائد وطقوس وتشريع وعبادة.

كان هدفهم من هذا المزج أو هذا الخلط ـ الدين بالحضارة والحضارة بالدين ـ أن يهيئوا الأسباب المقنعة والنظريات الإلحادية التي قد تدخل إلى بواطن العقل والفكر ـ وقد دخلت في بادىء الأمر إلى أكثر العقول ـ فتحدث انقلاباً وعكساً عقائدياً وثورة ناقمة في النفس وفي الداخل إلى النفس والخارج منها، على الوضع الديني الذي عرّفوه وقدموه إلى المجتمع الجديد بالتفسير الخاطىء في أنه وضع قديم متحجر جامد، غير أن هؤلاء العلماء في نشأتهم وثقافتهم، عرفوا الدين ورأوه في مرآة مسيحية ويهودية، ولم يروه بما رأوه على مرآة أخرى، فاعتقدوا بما اعتقدوا وثار في قلوبهم شك في الاعتقاد، وذهبوا بعد ذلك في تطوير شخصية الفرد المسيحي واليهودي بأسلوب التاريخ الفلسفي ورؤيا الوراثة في الانتقال والاكتشاف العلمي المادي، وفي وضع عقيدته وإيمانه بالدين والأشياء تحت ضغط الحاجة المادية وهي حاجة لا تعرف ديناً ولا شرعاً ولا رحمة ولا عبادة، على أن هذه الحاجة مع ما يرافقها من عوامل الاغراق والزينة، بلغت حداً في قبول التطور والعرض والطلب، أعجز الإنسان، بل أقعده عن القبول بالحاجة الطبيعية، وقد جعلوا ثمن الحياة في الحياة باهظاً في سيطرة المادة والآلة على العائلة والفرد والمجتمع، ونتج عن ذلك أن دوافع الثقة بالنفس تحولت إلى لا شيء في الكبح والهم، وبقيت تغرق تدريجياً في لجة الطلب وفي حكم هذه الظاهرة التي فرضت على الفرد في أن يكون لا شيء..

ولقد نجحوا ـ بوجه الإجمال ـ في العرض وفشلوا في النتيجة، فالمجتمع في الخارج «مجتمع مريض» مرضت فيه الأخلاق تحت ضغط الإفساد والإباحة في المادة وغيرها، وكان لا بد للذين أصيبوا بالوباء

الاجتماعي أن يرجع البعض منهم إلى الدين، فالدين وهو النظام المعنوي للإنسان المركز على قوى روحية أهمها القناعة ـ خذ ما تيسّر وابقِ ما تعسّر ـ وهي الاقتصار والقبول الطبيعي على ما كان لا على ما قد يكون، وهي تحديد الطلب في الحاجة، ولا مزيد في حاجة غير مطلوبة، وهي الانتصار على سيطرة المادة في عدم الإسراف والإفراط، وهي الرجوع إلى صواب الأمور عند خيبة الأمل في الإكثار من الطلب المادي، وعند ظهور الحيرة والضياع في فقد الأمل... وكما أن العلوم التجريبية التي هي مصدر النظريات الالحادية المتطرفة، لها علاقة مادية بالفن والعلوم الآخرة، فالديالكتية الدينية ذات الحوار والجدل في مصلحة الإنسان، لها علاقة روحية بأحوال المجتمع والإنسان...

ولقد تأثر المجتمع العربي بالذي أحدثه علماء أوروبا في مجتمعهم من انفلات وإباحة وإلحاد، فظهرت فيه الخوارج من النظريات، وكان من أبرز هذه النظريات «النموذجية العربية» التي حاولت كما حاول علماء أوروبا أن تجعل كل شيء يرجع ويقوم على العنصرية العربية، كالقومية العربية والإسلام العربي، والحضارة العربية...

على أن النموذجية العربية لم تقف عند رغبة عزل الدين عن طبيعة المعتقدين في أخذها ناحية الانتقاد والافتراء السلبي المأخوذ عنالأيديولوجية الأجنبية المليئة بالمشاكل الأخلاقية والاجتماعية والحضارية، التي نشأت عنها فكرة الرأسمالية والمادية الإلحادية، بل إنها تمادت في وضع حواجز الفكر بينها وبين الإسلام، وفي إظهار أو عودة إلى وراثات وعقائد مريضة عديمة الفائدة والمعنى، انتقلت أو نقلت إليها من الفطرية أو جاهلية الأجانب، إلى القديم المهجور في القرون الوسطى، إلى العصرانية الجديدة التي أطفأت مصابيح الدين في شوارع القلوب، وأشعلت ناراً في المحرّم والمحظور، وشغلت ـ بعد ذلك ـ بل أثقلت الفكر الإسلامي في نتاج مادي غريب، قد تتعرض معه أية عقيدة وأي مذهب أو شرع إلى الإهمال والترك والضياع.

ولقد ساهمت النموذجية العربية في نشر المادية الإلحادية التي ترافق

المادية الآلية، مع أن الأيديولوجية الأجنبية كانت وما زالت تعمل على الوقوف بوجه الإسلام كنظام أو شرع، وتهدف بل تعمل على نشر الفساد الأخلاقي في المجتمع الإسلامي - قريبه وبعيده - وهجر دور العبادة أو المساجد والمقدسات، بحجة أن الإسلام هو قديم وشرائعه أقدم من قديم!!.

ومن هذه التفاعلات الطبيعية والتجاوب بين المادية الإلحادية والنموذجية العربية، ظهرت في المجتمع الإسلامي المتخلف، راديكالية عربية جديدة متطرفة، تسير مع العوامل السيكولوجية والاجتماعية والحضارية المعقدة، في تقرير أن الإسلام هو إسلام عربي، وأن الحضارة، وإن كانت في ظاهر الأمر صعبة معقدة، تعتمد على القديم دون الاعتماد على الجديد، هي الإسلام، ومن الإسلام، والإسلام من العرب وإلى العرب...

ولقد سبق هذه الدعوة العنصرية، الأحبار اليهود الذين حوّلوا إسلام إبراهيم وموسى إلى اليهودية في الإسلام، وإلى الإسلام في اليهودية، بعد الأسر البابلي، وتبع هؤلاء النصارى بعد ظهور السيد المسيح، أو عيسى ابن مريم، إسلام في النصرانية ونصرانية في الإسلام.

وجاء في القرآن الكريم ما يشير إلى هذا التحول في تاريخ الدين

﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِيٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ۖ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ۚ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ۚ ٱللَّهُ يَجْتَبِيٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِيٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴾ (سورة الشورى/١٣)

(وفي سورة الروم/٣١ - ٣٢):

﴿ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَٱتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٣١﴾ مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا ۖ كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾...

وعندما اشتدت وقويت ونمت حركة الراديكالية العربية في الإسلام الذي أعطى الحرية للعقل والفكر، وعلّم الإنسان ما يجب أن يعلم في حياته ولحياته، وفي أنه جعله مهذب الشخصية، شريف الأخلاق، نقي الذمة، وأوجب عليه معرفة نفسه من نفسه قبل معرفة أي شيء آخر، حتى يصل بعد ذلك إلى معرفة الله، ومعرفة الإحاطة الطبيعية والوراثات الانتقالية والعادة

والتقليد، لكي يكون على حذر وبيّنة على ما يظهر من الأحداث الطبيعية والاجتماعية في بيئته التي هي كونٌ في وجوده، وهو وجود في هذا الكون، ومقارنتها أو عرضها على المبادىء الإسلامية الصالحة، إذ يرى بعد ذلك وفي ذلك، هداية ونوراً وظلاً ونعيماً وسلاماً. . .

على أن الذي حصل بعد امتداد سيطرة الراديكالية العربية على الإسلام، أن ظهرت في أيام الإمام محمد عبده في مصر، عقيدة الرجوع إلى «السلف الصالح» دون الاعتماد على التأثيرات المادية والإلحادية والوراثة الجاهلية، لأن الوراثة الانتقالية ـ وراثة الدم ـ تموت كما تموت الأجسام، وهناك وراثة صالحة تبقى ولا تموت، بل تتجدد في الحياة مع الحياة في الإسلام، ولاحظ الداعون إلى الصالح السالف، والمراقبون لتطويرات المجتمع الإسلامي في الخلاف والجدل والحوار والأخذ والرد، والتأليف والهجوم المعاكس، والملابسات والرفض الذي يظهر في كتب المذاهب الخمسة وغيرها، أن القرآن يُقرأ ولا يُطبّق، وأن السنة يؤخذ بها في تشريع البعض ولا يؤخذ بها في بعض التشريع، وأن الذين يقرأون القرآن لا يفهمون ما يعني القرآن[1] وما هو القرآن، كما أن الذين يرجعون بالاعتماد على حديث أو أحاديث الرسول محمّد، انقلب الحديث في عقائدهم إلى حدوث وتعارض ومغالطات في التفسير والتحليل والإظهار والانحراف، حال بينهم وبين الرجوع إلى «السلف الصالح» مثلاً، أو إلى الأصل في الصحيح والتصحيح في الأصل.

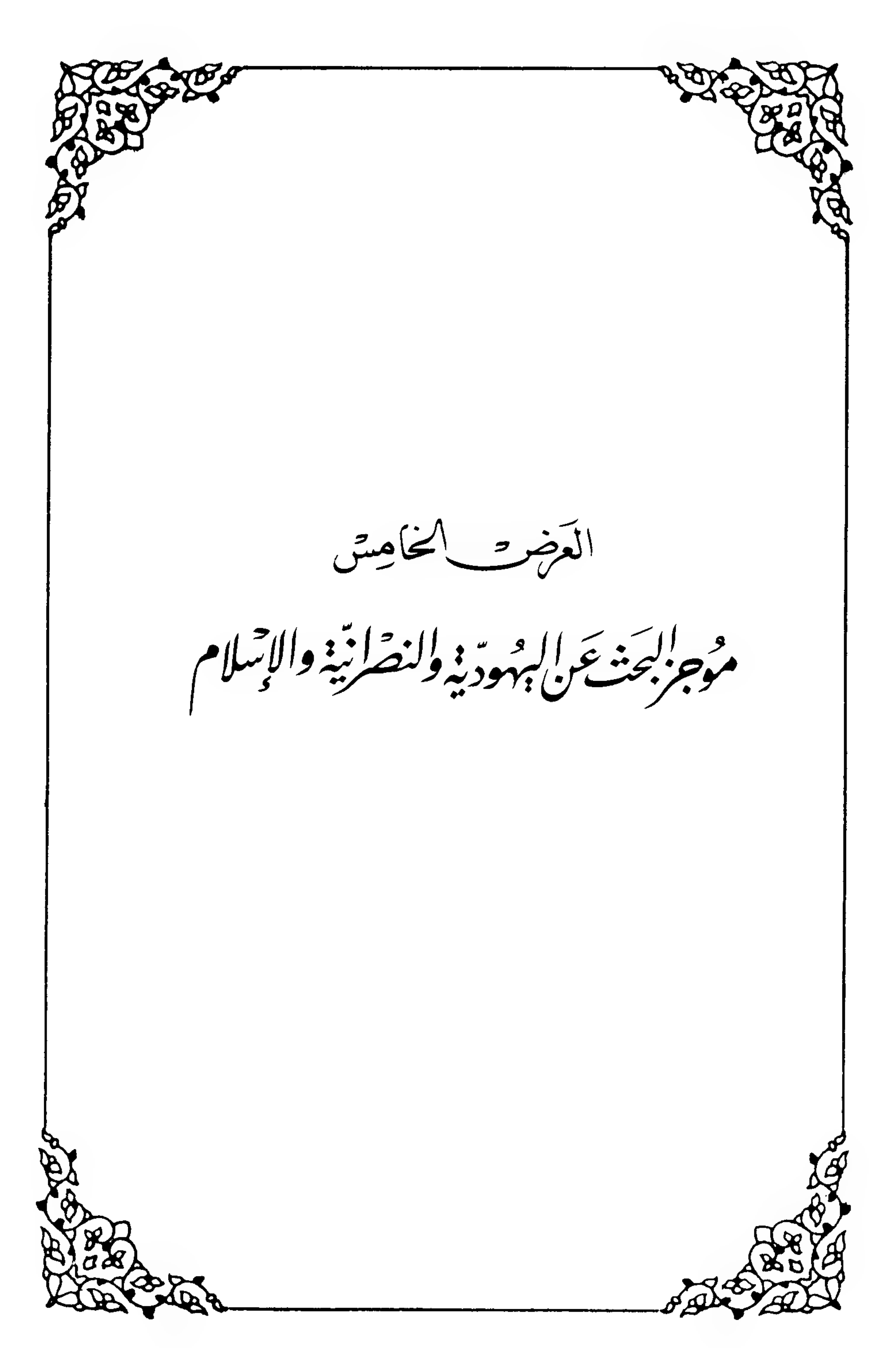
ولقد أورد المتكلمون من أصحاب العقائد ما قاله السيد الرسول محمّد: «إن القرآن لم ينزل ليكذّب بعضه بعضاً، فما عرفتم منه فاعملوا به، وما تشابه منه فآمنوا به» وهو قول يشك في نسبته في الرواية عن الرسول، لأن جملة «ليكذب بعضه بعضاً» لا تنطبق في البيان والسلاسة والحكمة النبوية على الذي ثبت في الحديث عن أقوال النبي، وخاصة أن الآية الكريمة التي نزلت في سورة آل عمران ﴿ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ مِنۡهُ ءَايَٰتٞ مُّحۡكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ

---

(١) للقرآن تأويل وتفسير هو من اختصاص أهل العلم المسلمين.

﴿ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ ﴾ إلى آخر الآية، تنفي أن يكون هناك « كاذب ومكذب» بل إن الذي ثبت في التفسير، أن «أم الكتاب» هي أصول يعتمد عليها في الأحكام، وأن «المتشابه» هو الذي لم تعرف معانيه حتى الآن، ويأتي بعد ذلك أو قبل ذلك الناسخ والمنسوخ فلا يمكن مع وجود هذه البيّنات الظاهرة في القرآن التصديق بما ورد عن الرسول، فرسالة الأنبياء بعيدة عن كل كلمة تحمل معنى الكذب في الانطواء.

وليس من الضروري أن يكون القرآن وقفاً في التفسير والتحليل على أحاديث بعيدة عن النبي والقرآن، وإن كان يصعب على بعض المعتقدين فهم المتشابه والتشبيه والناسخ والمنسوخ، إذ نجد تشبيهاً واضحاً في الآية التى نزلت في سورة آل عمران: ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ ويأتي هذا العرض من باب تشبيه الغريب بالأغرب . . .



العَرَض الخامِس

مُوجز البحث عن اليهوديّة والنصرانيّة والإسلام

موجز البحث عن اليهودية والنصرانية والاسلام

قد يجد من يقرأ هذا الكتاب أن بعض الآراء والنظريات الواردة في العرض التاريخي والثيولوجي، تكاد تكون، في التعليق على المصدر، وفي بعضها، مركزة على طريقة الغربيين. والواقع أنها لم تكن بهذا الشكل بل هي كما هي طريقة المتجددين، والتجديد في الموضوع الإسلامي وغيره ضرورة يحتاجها الفكر في فهم الإحاطة والمكيّفات الآلية، ويحتاج إلى اطلاع أوسع على ما عند اليهود والنصارى من الشرائع اللاهوتية التي كانت عادة فصارت شرعاً وليس لهذا الشرع علاقة في الدين، ولا الدين له رابطة بالذي دخل على كتب هؤلاء ما دخل على مر الأحقاب.

ومع أني في الواقع لم أضع هذا الكتاب للإسلام وحده، ولا للنصرانية أو اليهودية وحدها، بل إن الموضوع ـ موضوع التاريخ والنظريات والآراء ـ هو موضوع دين جزأته المسميات، وفي الدين شمولية أو إحاطة أو قل إذا شئت موضوع الوصول إلى الإسلام، لأنه ورد في القرآن الذي هو دستور الإنسان أن الدين عند الله الإسلام. وأعتقد في موجز البحث أن في اليهودية والنصرانية إسلاماً، وفي الإسلام بقية مما ترك نوح من الوصايا، وإبراهيم من الصحف، وداود من الزبور، وموسى من التوراة، وعيسى ابن مريم أو المسيح من الإنجيل، ويمكنني في إلحاق الموضوع في الموضوع أن أضيف أن الدين في كليته هو نور، والنور إذا أضاء القلوب والعقول يراه القريب والبعيد، ويراه المعتقد أو غير المعتقد وإن أقصته كلمة الكفر التي يتذرع بها الثيولوجيون

والعنصريون لحماية عقائدهم وإن كانت تتخبط بغير الحق، وتشير الآية القرآنية إلى ذلك بصراحة:

﴿ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ قَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمۡ كَثِيرٗا مِّمَّا كُنتُمۡ تُخۡفُونَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖۚ قَدۡ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٞ وَكِتَٰبٞ مُّبِينٞ ﴾ (المائدة/١٥).

وفي اية ثانية في سورة النور (الآية: ٣٥): ﴿ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشۡكَوٰةٖ فِيهَا مِصۡبَاحٌۖ ٱلۡمِصۡبَاحُ فِي زُجَاجَةٍۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوۡكَبٞ دُرِّيّٞ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٖ مُّبَٰرَكَةٖ زَيۡتُونَةٖ لَّا شَرۡقِيَّةٖ وَلَا غَرۡبِيَّةٖ يَكَادُ زَيۡتُهَا يُضِيٓءُ وَلَوۡ لَمۡ تَمۡسَسۡهُ نَارٞۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٖۚ يَهۡدِي ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَيَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡأَمۡثَٰلَ لِلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ﴾..

لقد كان هدفي في تأليف هذا الكتاب ـ قبل كل شيء ـ أن أعطي الجيل الجديد[١]، كما أعطي الجيل الذي هو وراء هذا الجيل، تعريفاً تاريخياً صادقاً عن نشأة وتطور اليهودية والنصرانية والإسلام، على أن الإسلام والنصرانية واليهودية القديمة الحقيقية، نوراً أشرق من الشرق في أيام موسى وأيام السيد المسيح كما جاء في المثل اللاتيني «النور جاء من الشرق» لكن الذي حصل في مرور زمن وراء زمن أن هذا النور ـ نور الشرق ـ تدنّى في الغرب وخفت حتى صار ومضة من ضوء ذرّاح هائم في ليل...

وحاولت بهذا الأخذ والإعطاء، أن يكون التعريف ضمن حدود التجدد في الفكر والعقل، إذ تأتي الموافقة مع الاطلاع والقبول، غير معرضة أو متأثرة بمتروكات وإغراء الأيدلوجية الإلحادية، أو بالنفور العقائدي من كل قديم يتصل بقديم، على أني ـ مع حرية البحث ـ تركت الموضوع الثيولوجي مكشوفاً لهذا الجيل الذي لا يعرف اليهودية أو النصرانية أو الإسلام، وكأني أقول له مع هذه الحرية وأقول لأهل الكتاب كما قال السيد المسيح من ذي قبل «تعال وانظر» وله ولهم بعد هذا أن يحكموا أو لا يحكموا وله ولهم أن

---

(١) سيترجم هذا الكتاب إلى اللغة الإنكليزية.

يعتقدوا أو لا يعتقدوا فالمهم في العرض الديني أن يعرف النشء الجديد من اليهود والنصارى والمسلمين، ما كان يجهله في البعد الثيولوجي والفاصل العنصري، وأن يقف وأن ينظر وأن يفكّر. . .

اليهوديــة. . .

لم تكن قبائل إسرائيل ـ بعد أن قضى موسى الأجل في نهاية عمره، بالتي يسود بينها الوفاق، أو بالتي قد تجد وفاقاً يؤلف بينها وبين الذين كانوا يعارضون موسى في أيامه وقد رجعوا إلى الوثنية وصعب عليهم أن يؤمنوا بما جاء في التوراة الأولى من محرمات ومحظورات لم توافق غاياتهم وشهواتهم، بل تركوا ما ترك لهم موسى من التعاليم الإلّهية التي فيها التوحيد والشرائع ودخلوا ـ في هذه الرجعة ـ في كفرٍ جديد مع الكنعانيين الوثنيين الذين كانوا يتزوجون من بنات إسرائيل، والإسرائيليون المرتدون، يتزوجون من بنات كنعان. .

ولقد اتسعت ـ من أجل ذلك ـ أبعاد الانقسام ومسافات الانفصال القَبَلي، وظهر في المجتمع الإسرائيلي والكنعاني مخالفون ومتخلفون أرادوا أن يغيروا ما في التوراة من محرمات، وأن يجعلوا من الوصايا العشر، عشراً وعشراً في شذوذ الأخلاق، وأن يبدلوا في الكلمات والحروف والنصوص لتأتي معانيها في خدمة المصالح الإسرائيلية المرتدة التي تخلو من ذمة الدين، وضمير الإنسان المؤمن.

ظلت التفرقة والخصومة بين قبائل إسرائيل على أشدها، حتى اشتد ساعد اليهود واخضرّ عودهم في إنشاء مملكة يهوذا، ففرح اليهود وتعافوا في ظل هذه الدولة التي كانت تخضع للأحبار والربانيين وفيها قامت وزارة الأنبياء ـ أنبياء بني إسرائيل ـ إلَّا أن اليهود مع الذي حملوه معهم من خصومة القبائل وعداء العشيرة إلى مجتمع دولة يهوذا، لم تكن هذه الدولة بالتي ترضي مطامعهم أو أهدافهم المادية، أو تكن دولة يهوذا راضية عن تلك المطامع والأهداف التي فيها الاعتداء على حقوق الآخرين، من كنعانيين وغير كنعانيين، والاستيلاء بالقوة على الأرض، ومنها إباحة بعض الذي حرّمه موسى وما ترك موسى.

بـابل واليهوديـة. . .

وإذا كان من الممكن الأخذ بقواعد علم الكرونولوجيا الذي يُعنى في تقسيم الزمن وتعيين الأحداث في سلسلة متمـاسكة من التـاريخ ـ وهـو ممكن ـ، فإن اليهودية القديمة لا يذكرها هذا التاريخ بالأفعال والأعمال، التي وصلت إلينا عن طريق اللاهوت اليهودي والأحبار الذين عاشوا في الأسر البابلي، فقد كانت تلك الأحداث وما يتبعها من مصاعب الإلحاق والإثبات عبارة عن فترة ممتدة من انقضاء الأسر في بابل عام ٥٣٨ ق. م. إلى السنة الأولى من الميلاد المسيحي أو ما يسمى بالفترة الباستاكليكية (Postexillic). وقُدر لجماعات الأحبار والعلماء اليهود، أن ينظروا إلى الوضع اليهودي بعد غياب وجه موسى عن بني إسرائيل، وأن يفكروا، بما لحق بهم من تشريد وتعذيب قبل الأسر في بابل وبعد الأسر، فأجمع رأيهم أن يلجأوا إلى «مبدأ العنصرية» لتكون موافقة للعقيدة الثيولوجية، وترتبط فيها ارتبـاط المبدأ في المبدأ، ورأوا بعد أن أجمع رأيهم على ما أجمعوا، أن يبدأوا في التوراة فأدخلوا عليها ما أدخلوا من دوافع تجميد العنصرية اليهودية، ورووا ما رووا عن الأنبياء ـ أنبياء بني إسرائيل ـ من قصص وحكايات شبيهة بملاهي الأطفال تدعيماً وتعظيماً للعقيدة العنصرية الجديدة.

ولقد تمكن هؤلاء أن يقطعوا الصلات الثيولوجية التي كانت تربطهم بتاريخ ما ترك موسى، وما ترك موسى لم يكن يرضيهم فبدأوا في التأليف ووضع الشروح والتفاسير الملائمة لروح العنصرية، وجردوا مع ذلك، الخبرة الذاتية في موضوع العقائد من أنها لا تصلح للبقاء العنصري، وعادوا بعد ذلك إلى مناقشة التوراة ومناقشة ما ترك موسى من أعمال العبادة والمحرمات، فأخذوا بالتحريف ما يمكن أخذه ليكون انطلاقاً في خدمة العنصرية، وتركوا ما تركوا وكأنهم لا يعرفون شيئاً عن موسى ولا عن توراة موسى أو العهد القديم.

وأشارت الآية القرآنية إلى ذلك في سورة الأنعام (الآية ٩١) ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِذْ قَالُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ ۗ قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ

بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوٓا۟ أَنتُمْ وَلَآ ءَابَآؤُكُمْ قُلِ ٱللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِى خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩١﴾ ﴾ .

فالجيل اللاحق في مرور فترة الأسر البابلي ما عرف عن اليهودية والإسرائيلية شيئاً صحيحاً، وما عرف عن التوراة، وما هي التوراة الأصيلة، وأين التوراة!!.

ولا شك بالذي جاء بأكثر من تاريخ، تاريخ الشعب اليهودي وشعوب الجانتايل، أن اليهودية القديمة ومجالس الشيوخ، ووزارة الأنبياء ذهبت بما فيها كما ذهب موسى نفسه. ولقد أخذت اليهودية الجديدة مكاناً جديداً في نفوس الأتباع، وهي بالمقارنة التاريخية وفي حقائق الفترة الباستاكليكية بعيدة كل البعد عن حقيقة اليهودية القديمة، والتوراة المتعارفة بين الجديد والمتجدد بين اليهود، هي توراة اشتغل بها الأحبار والربانيون في بابل، وهي توراة بابل لا توراة موسى. فاليهودية في الذي ركزه الأحبار في عقيدة اليهودية الجديدة، هي موضوع طبقي عنصري، لا موضوع ديني أو ثيولوجي، إذ جعلوا الخصائص في الإنسان اليهودي، وظائف دورية يمكن معها للفرد اليهودي أن يعتقد بما يعتقد في الأيام الماضيات، وله ألاَّ يعتقد في الذي قضى في ماضي الأيام.

ويستدل في الاستقصاء والبحث عن اليهودية أن الآلهة ثلاثة عند اليهود، إلّه اليهود او إلّه إسرائيل، إلّه النصارى، وإلّه الجانتايل ومات هذا الإلّه مع إلّه النصارى، وبقي النور في الشرق يلمع في سماء إلّه اليهود ـ إلّه العنصرية..

ويأتي ـ بعد ذلك ـ مبدأ التربيع، أو الأحرف الأربعة لاسم الإلّه (ي هـ و ه) تحمل أسرار العنصرية والألوهية واللاهوت وكل حرف من هذا الاسم ينطوي على نور لا يمكن أن تدركه أبصار الجانتايل، لأن الشعاع الثيولوجي الذي وضعه إلّه إسرائيل في معاني هذه الحروف، تجعل العقل الجانتايلي في حيرة وتيه في إبعاد الشك، وهذا العقل هو دون العقل اليهودي

لأنه مخلوق من الأدنى ضمن حدود الأدنى، وقد خلقه الإلّه على هذه الحال ليبقى كما هو ميتاً في حياة.

فاليهودية الجديدة، هي غير اليهودية القديمة، هي كما يظهر من تصرفاتها الثيولوجية والاجتماعية منظمة اجتماعية سياسية عنصرية وثيولوجية ذات قوة منظورة في العلم والتشريع وفي السيطرة على عقل شعوب الجانتايل ولقد دخل مبدأ العنصرية بين جماعات اليهود في الشرق والغرب كما تدخل العبادة في القلوب، إذ يرى اليهود المتجددون أن الحماية والحفاظ على مصالح اليهود وأمة اليهود، لا يمكن الوصول إليها، على كثرة عدد شعوب الجانتايل، إلاَّ بهذه الطريقة التي أفادت الأمة اليهودية ورفعت مكانتها، ومن يرجع في النهاية إلى العهد القديم أو التوراة الجديدة يجد أن العنصرية لها جذور عميقة في التاريخ كما يظهر في الإصحاح السادس عشر، سفر التكوين، في قصة هاجر المصرية خادمة وزوجة إبراهيم الخليل:

«وقال لها ملاك الرب ها أنت حبلى فتلدين ابناً وتدعين اسمه إسماعيل لأن الرب قد سمع لمذلتكِ، وأنه سيكون إنساناً وحشياً يده على كل واحد ويد كل واحد عليه، وأمام جميع إخوته يسكن».

النصرانية...

ظل الحوار والنقاش البابلي على أشده وقسوته بين فريق اليهود الذي أراد البقاء على القديم، وهم الأرثوذكس، وربط كل حاضر بماضي التاريخ اليهودي، وبين الفريق المتجدد الذي استطاع قطع العلاقات القديمة، واستقل بذاته من ذاته، وقال المؤرخون إنه وضع التوراة الجديدة لحياة جديدة.

وقد أشار بولس في رسالة إلى أهل رومة، إلى هؤلاء:

«لأن ليس جميع الذين من إسرائيل هم إسرائيليون، ولا لأنه من نسل إبراهيم، هم جميعاً أولاد» وقدّر للجماعات اليهودية التي لا ترضى بما حدث ويحدث في المجتمع اليهودي أن تلتحق بالسيد المسيح يوم ظهر المسيح،

لأنه اعترف بتوراة موسى وأراد إكمال ما نقص من الناموس، أي التوراة، وخاف المعارضون أو المتجددون أصحاب التوراة الجديدة على جهودهم في عهد بابل، فقاموا بثورة فكرية وخطابية وسياسية ضد القادم الجديد «يسوع» وكان الانفصال وكان الاتصال بالعقيدة من اليهودية إلى المسيحية.

وبولس مؤسس المسيحية أشار في رسائله إلى هذا التحول الثيولوجي وإلى الذين سبقوا السيد المسيح من المتجددين اليهود والذين لحقوهم من ذريتهم أو الذين خرجوا على يسوع بقوله: «لأنكم تألمتم أنتم أيضاً من أهل عشيرتكم تلك الآلام عينها كما تألموا هم من اليهود الذين قتلوا الرب يسوع وأنبياءهم».

ومهما كانت عوامل الانفصال عن اليهودية من الذين أصابهم ظلم أو عسف غير معروفة في التاريخ، فإن النصرانية أصابها من القتل والتشريد والتعذيب والإبعاد من الرومان أكثر مما أصاب اليهود قبل أيام بابل وبعدها، والمنازعات التي قامت حول ولادة السيد المسيح وأنه ابن الله وأنه هو الإله في اعتبار مبدأ التثليث أعطت لليهودية سهماً جارحاً للعداوة، وأعطت للنصرانية سهماً آخر للخصومة وكانت النتيجة أن الانفصال كان من التحولات الجديدة في اتجاه الدين فقال المنفصلون بإله جديد للنصارى هو يسوع الناصري، ومن هنا بدأ التفكك بين المنفصلين والخارجين، وقد كان بولس أول تابع للسيد المسيح قد التفت إلى هذه الناحية بجهد وجد، وعابه أن يسكت عن الذي يعرف عن اليهود المتجددين والذي يعرفه عن التوراة الجديدة وهو اليهودي المثقف والعضو الممتاز في المجلس الأعلى لليهود، فاعتنق النصرانية في إعلانه ألوهية المسيح وفي رؤياه ليسوع، فعمد قبل كل شيء للقضاء على العهد القديم وهو جديد في وضعه، حالما ظهرت بوادر العهد الجديد ـ الإنجيل.

وما كان لمبدأ التثليث والدعوة إلى أن السيد المسيح هو ابن الله، والناس كلها أبناء الله بالمعنى المجازي أي مخلوقاته، أن يبقى طويلاً بعد ذهاب ابن مريم، لو لم يتداركه بولس الطرطوسي بالدعوة الثيولوجية القائمة

على الفلسفة الكلاسيكية العميقة التي عُرف بها بولس، وعُرف بقدرته الخطابية وقوة المنطق، وخاصة أن اليهود في مراحل هذا النزاع تركوا إلّه إبراهيم وإسحق وقالوا بإلّه إسرائيل الجديد ، والنصارى أو المنفصلون من اليهود عن اليهودية، تركوا ما عند اليهود، وتركوا معبودهم في العهد القديم في إعلان أن الإلّه للنصارى هو إلّه جديد لإنجيل جديد. .

الديالكتية المسيحية:

وكان الفيلسوف الفرنسي الذي عاش في القرن السادس عشر «رينيه سقراط» وجّه انتقاداً حاداً حمل فيه على العقائد المسيحية التي لا تتوافق مع توجيه طاقة العقل، من ذلك أن البحث في الموضوع الثيولوجي يجب أن يكون قائماً على هذا التوجيه، إذ يمكن الوصول إلى حكم عقلي قاطع وثابت، لأنه كان يعتقد أن الكاثوليكية المسيحية وضعت قاعدة للعقائد العامة لا يقبلها العقل، وهي أنه من الواجب معرفة الإلّه قبل أن نعتقد بوجوده أو إثبات هذا الوجود، ثم تعارضت هذه القاعدة، اعتراض في موافقة وموافقة في اعتراض، مع مبادىء الراديكالية الكاثوليكية الجديدة التي تقول إنه من الممكن إثبات وجود الإلّه بدون الاستعانة بالعقل، إلاَّ أن جماعة البروتستانت توضح أنه يجب أن يكون الاعتقاد قبل إثبات وجود الإلّه، والكاثوليكية التي عادت إلى الكنسية الرومانية تعتقد بعصمة البابا وأنه خليفة المسيح في الأرض، ولكن البروتستانية تنفي وترفض هذه العصمة وتلك الخلافة والسلطة.

على أن الكنسية الرومانية كانت وما زالت تخضع لقرارات المجلس الأول للفاتيكان الذي بدأ أعماله في القرن الثامن عشر، وهذا المجلس مع سعة صلاحياته في التوجيه المسيحي، يتبع طريقة اللاهوت السكولاستي وهي عبارة عن فلسفة نصرانية كانت في القرون الوسطى، تهدف إلى إخضاع الفلسفة والعقل لسلطة اللاهوت، يضاف إلى ذلك عقيدة غريبة الأطوار، هي عقيدة تكييف الإلّه على الإنسان، والإنسان على الإلّه، الطبيعة على الفضلية، الإيمان على العقل.

وعلى وجه الإجمـال أنه إذا كانت المسيحية ديناً أو شريعةً أو ملةً في أيام المسيح، فالتطورات الثيولوجية والزمنية جعلتها منظمة اجتماعية سياسية ثيولوجية، كما هي حال اليهود والمنظمة تحولت إلى دولة والدولة إلى قوة، قوة ثيولوجية تسيطر على الأتباع.

ويظهر من ظواهر هذا التطور أن المسيحية كادت أن تصل إلى نهايتها لولا وجود أصحاب المنابر الذهبية الذين تداركوا المسيحية وحولوها إلى دولة ثيولوجية كما سبق، وحوّلوا الدولة إلى قوة، وهم الذين جاء ذكرهم في رؤيا يوحنا اللاهوتي، العهد الجديد الإصحاح الأول:

«يسوع المسيح الذي أحبنا وقد غسّلنا من خطايانا بدمه وجعلنا ملوكاً وكهنة».

والتغيرات الجذرية في شرائع وشكل المسيحية أدّت إلى فشل القانون الكنائسي في التطبيق، وتبين لأهل الفكر المسيحي أنها لا تصلح للإنسان الواعي المثقف المتجدد، فقالوا إن المثل الأخلاقية مثلاً يمكن الوصول إليها دون أن يرجع المكلف إلى الإلّه والتوراة والإنجيل، ويأتي رأيهم ضمن نطاق التأكيد أن الإنسان المعاصر الذي درس العلوم التجريبية والقانونية يستطيع بقوته الثقافية والحضارية والفكرية أن يأتي بتوراة أفضل من التوراة التي هي عند اليهود، وأن يأتي بإنجيل أرقى وأهم من إنجيل النصرانية.

على أن مبدأ التثليث الذي تتمسك فيه الكنسية وتعتمد عليه في إثبات ألوهية المسيح، حاول الفكر المسيحي المحايد أن يفهمه وأن يناقشه، وكانت النتيجة أن يرفض الجيل المسيحي الواعي المتجدد عقيدة التثليث واحد في ثلاثة وثلاثة في واحد، ـ الأب والابن والروح القدس ـ ففي القرن السادس عشر رفع الكاهن النصراني الإيطالي (Matteo Ricci) وهو من الجزويت وقد كان يرئس البعثة المسيحية للصين تقريراً إلى البابا في روما أنه في اطلاعه على الفلسفة الكنفوشيوسية اهتدى إلى قاعدة فردانية تـأخذ مكـان عقيدة التثليث، فأصحاب كنفوشيوس يقولون بالإلّه الأعلى في السماء إلّه العائلة المالكة في الصين Shang، وعلى هذا الرأي يمكن للمسيحية أن تعتقد بالإلّه

الأعلى في السماء إلّه المسيحيين... «كتاب هل الإلّه موجود ص ٥٨٧».

القرآن وعقيدة الله:

- ﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ ﴾ (سورة آل عمران/٦٤).

- ﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ ۚ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ ۖ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ۖ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ ۚ انتَهُوا خَيْرًا لَّكُمْ ۚ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ۖ سُبْحَانَهُ أَن يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ ﴾ (سورة النساء/١٧١).

- ﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَدًا لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا وَمَا يَنبَغِي لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴾ (سورة مريم/٨٨، ٩٣).

الإسلام والقرآن:

ما كانت اليهودية في أيامها القديمة أو في الأيام التي ظهر بها الرسول محمّد، كما هي اليوم، وما كانت النصرانية بمثل ما هي عليه في المراحل الأخيرة، أو في الوقت الذي حاول هذا النبي العظيم، أن يقنع أهل الكتاب ـ يومذاك ـ أن يرجعوا إلى الدين الذي جاء به إبراهيم وموسى وابن مريم والنبيون السابقون، ولكنهم أعرضوا ونأوا، لأن القرآن الكريم أوضح لهم في بيّنة صريحة وحجة لا ترد أن ما عندهم من توراة جديدة وإنجيل جديد وإلّهين جديدين ـ إلّه إسرائيل وإلّه النصرانية ـ لا علاقة له ثيولوجياً في إبراهيم وموسى والمسيح، فما عرف موسى عن هذه التوراة شيئاً، ولا عرف السيد المسيح هذا الإنجيل، ولا عرف الذين كتبوه أو ألّفوه.

وكان الرسول كلما دعاهم إلى الله والقرآن، وضعوا أصابعهم في

آذانهم، وأتوا بالقرائن والقراءات التي لم تأتِ من موسى أو ابن مريم، أو كلما ظهر لهم السلم والسلام في الإسلام، أوقدوا نار الحرب ونفخوا أبواق الأقـاويل عن محمّد ودين محمّد، ومحمّد (ص) لم يأتِ بدين يكون خاصاً به، أو يأتي بإله غير الإله، كماورد في القرآن: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَـٰمُ﴾ وكان كلما دعاهم إلى الأخوة الإسلامية والإنسانية والمساواة، دعوا إلى التفرقة العنصرية والانقسام الثيولوجي، وبذلك جزّأوا الحقيقة فجعلوا منها ما لا يوافق الحق، وجزّأوا الدين، وجعلوا منه أكثر من ثلاثة، وجزّأوا الإله وجعلوه إلهاً عنصرياً وإلهاً أصله من تراب..

وأضاف الرسول محمّد حقيقة القرآن إلى حقيقة الإسلام، والقرآن هو خلاصة الشرائع التي جاء بها النبيون من قبل، وهو محكم الوضع، بليغ الكلمة، كلمة الله، متين العبارة، قوي المنطق والحجة، جاء من الحق إلى الحق، ونزل بالوحي والتلقين في القلب فليس من الممكن لأي إنسان أن يبدل حرفاً بحرف، أو يغيّر كلمة بكلمة، وأثبت القرآن هذه الحقائق بالآية التي نزلت في سورة الإسراء:

﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾...

ولـو أن أهل الكتاب أرادوا ـ بعد غياب طويل في التاريخ ـ أن يرجعوا إلى ما أنزل الله على موسى، وما أنزل الله على السيد المسيح ابن مريم، لوجدوا ذلك وأكثر من ذلك في القرآن الكريم، والإسلام هو دينهم ودين الناس جميعاً، والقرآن هو دستور الإنسان في ماضي الزمن وبعد الزمن وما يأتي من زمن.

ومن يقرأ القرآن، يجد التجربة الإنسانية الخالصة في إظهار العوامل الطبيعية التي لها علاقة في الحياة، ويجد ما في الباطن في الحاضر، وما في الظاهر من باطن، مع أدراك وإمكانية الحلول في مصدر الحركة، المادة، الروح، القضاء والقدر والحرية الثيولوجية التي يمكن فهمها لتكون مقدمة من مقدمات فهم العقل على ضوء الحقائق التي تظهر في سورة وسورة في القرآن

لحل المشاكل الاجتماعية والدينية مع كيفية التعامل في وجود الإصلاح، الذنوب، السيئات، التوبة والمغفرة... وورد عن الرسول: «الدين المعاملة».

وأوضح القرآن الكريم بأكثر من آية، الإيمان بالغيب الذي يعطي الإدراك العقلي والشواعر والمضمرات، قوة وراحة واطمئناناً لفهم ما يمكن فهمه في الحياة وترك ما لا يُفهم، والعقول شتى في القدرة والوظائف، منها ما قد يكون « كالزمان لا تنفع الإنسان إذا تركت هذه العقول إلى عناد وإصرار العواطف والشهوات »...

وفي القرآن الواجب والمستحب، المكروه والمباح، والمحرم والمحظور، ومن المحرم المحرمات الأبدية التي تأخذ عناية خاصة في تشريع القرآن، وهي ما تعرف في الإسلام (بالكبائر المحرمة) كالزنا والخمر والميسر ، وهي أمراض اجتماعية عضال تقضي على شخصية الفرد والعائلة والمجتمع. وفيه القيادة الحرّة ـ بلا قيد أو شرط ـ القائمة على حرية الاختيار اختيار العقل والزمن.

والتكليف في القرآن جاء بمقدار فهم المكلف والطاقة والقناعة، على أن يكون هذا الفهم مربوطاً بالتقليد الذي هو من خصائص أهل الدين:

﴿ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا ﴾ (سورة طه/١١٢).

﴿ مَّنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ ۖ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ۗ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٤٦﴾ ﴾ (سورة فصلت/٤٦).

وقد أشار القرآن الكريم إلى الوحدة الإنسانية ووحدة الدين إذ جاء في سورة لقمان (الآية: ٢٨) ﴿ مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ ۗ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴿٢٨﴾ ﴾.

﴿ أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾ ﴾ (سورة آل عمران/٨٣).

وجاءت آية في سورة الزمر عن المغفرة والتوبة: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ (الزمر/٣٥).

وفي سورة فاطر (الآية: ٤٥): ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَابَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾.

لماذا القرآن؟...

ما استطاع التاريخ الثيولوجي أن يخفي بين المحابر والكتب، ما حصل للأنبياء الذين أنزل عليهم الوحي بمقدار وموافقة الطاقة العقلية وقابلية المجتمع، فقد كان الوحي يأتي في رؤيا تنبعث من بصائر العقل الداخل، وكان يأتي كالأطياف في ليلٍ طويل وأفق بعيد، أو كان يأتي بتفكير عميق واتصال ذاتي بالكون وخالق الكون، ونتج عن ذلك أن هؤلاء الأنبياء كانوا يقرأون ويكتبون لغة القوم الذين بعثهم الله إليهم، وكانت أفكار الوحي تكتب بأقلامهم، وتسجل أو تحفظ تحت رعايتهم، وقد أطلق على التوراة اسم الكتاب، وعلى الإنجيل اسم كتاب لأنها كتبت بأقلام الأنبياء وغير الأنبياء..

غير أن القرآن كان غير الإنجيل والتوراة التي لحقها ولحق الإنجيل الاستبدال بالظن عندما ضاعت القراطيس في عبور الزمن، وأن محمّداً الرسول كان في وضع غير وضع هؤلاء الأنبياء فهو أمي لم يعرف الحرف، ولا عرف الكلمة إلّا بالسماع، وهو يتيم فقير فقد أباه في طفولةٍ صعبة وعمر لم يتجاوز السادسة، وكانت الصحراء له دُنْيا وفضاء ـ فلم يرَ فيها إلّا الرمال والنعاج والحر وعاصفات الرياح...

وقد سُمّي قرآناً لأن الوحي كان ينزل على قلب النبي ومن قلبه إلى لسانه في حال يضم فيها الكلمات ضماً للنطق ـ نزله الروح الأمين على قلبك كما ورد في القرآن ـ فكان التلقين بالوحي إلى القلب وكانت التلاوة باللسان...

ومن هذا الوضع الذي يمكن أن يكون طبيعياً أو إلّهياً، أُطلق على

القرآن ما أطلقه الله في القرآن، أما الكتاب فهو الذي يكتب بالقلم ويرسم على لوح كما حصل في كتابه التوراة والإنجيل، والكتابة قد تكون فيها ضعف الطاقة في الإنشاء والتعبير، وقد يكون في الضعف لجوء إلى الاستحفاظ والنقل والاستظهار الذي قد يضع فيه المعاني لعلة في اللسان التي تؤدي إلى سقوط الأغلاط في الكتابة وقد أشار القرآن إلى هذا الاستحفاظ في سورة المائدة: ﴿وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ بِمَا ٱسْتُحْفِظُوا۟ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾...

لم يكن القرآن بالذي جاءت آياته في رؤيا أو طيف أو قيام ولا بالذي جاء كما جاءت الكتب القديمة، من فكر وتفكير عميق أو هو كتاب من فكر أو فكر في كتاب، وإنما هو منزل من الله بالوحي: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٩﴾ ﴾ (سورة الحجر).

وما كتب الرسول هذا القرآن بيمينه أو شماله وهو الأمي الذي لا يقرأ ولا يكتب، بل نزل بالوحي كما سبق على قلبه بتلقين الروح الأمين: ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُوا۟ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴾ (سورة العنكبوت/٤٨).

فالقرآن هو دستور الإنسان، والإسلام هو دين الإنسان، والكتب التي سبقت محمّداً وقرآن محمّد، تقادمت فيها الكلمات، وتعبت فيها المعاني، وهرمت مفاعيل وأحكام الشرع القديم، وقد قال الرسول عن القرآن: «فيه نبأ ما قبلكم، وخبر ما بعدكم، وحكم ما بينكم» رواه الترمذي.

الخوف من الإسلام...

بدأ الخوف من الإسلام ـ والإسلام يدعو إلى الأمن والعافية ـ يوم بدأ الرسول محمّد في إذاعة ما يوحى إليه، وفي نشر ما يمكن نشره في الرواية من نصائح نبوية ترمي إلى إصلاح ذات المجتمع وذات الفرد، وكان هذا الرسول العادل يدعو العرب وأهل الكتاب إلى الإسلام، وكانوا في الجواب يدعون إلى الحرب والنزاع تحت تأثير الهواجس والخوف على النفوذ والسلطة

والزعامة من الرسالة التي جاء بها سيد المرسلين التي كانت مؤيدة من الله والقرآن، وحَسِبَ الذين كانوا يظهرون على النبي في كل ظهيرة أن باستطاعتهم أن يقفوا في وجه هذا الإنسان النبي الداعي إلى الله وإلى الحق والإنسانية والدين، ولكن القوة الروحية التي كانت ترافق هذا السيد العظيم، يضاف إليها قوة شخصية مجهزة بالرحمة والرفق، جعلتهم في حيرة، تفاقم فيها الشك وتعالى فيها القلق وفي حالة وهن وضعف ما كان لهم أن يعرفوا لها علاجاً أو حلاً.

بدأ النبي محمّد (ص) دعوته إلى إصلاح العائلة الإنسانية بأول ما بدأ، وذلك باتّقاء المحارم، والعمل بالقناعة، وحسن الجوار، وكيف يمكن للمسلم أن يكون غنياً في القلب والروح والعقل، بل كيف يمكن أن يكون مسلماً إذا هو أحب للناس ما يحبه لنفسه.

«اتّقِ المحارم تكنِ أعبد الناس، وارضَ بما قسم الله لك تكن أغنى الناس، وأحسن إلى جارك تكن مؤمناً، وأحب للناس ما تحب لنفسك تكن مسلماً».

رواه الترمذي

كانت هذه الأخلاق النبوية، تواجه بالرفض والخوف لأنها كانت تكشف في بعض الأحوال، عمّا في نفوس بعض القوم من ذنوب ومساوىء، وتكشف عمّا هو في الاعتقاد الثيولوجي القديم والوثنية من انحراف وضلالة ضاع فيها الحق، ولقد وصل الخوف إلى الذين أسلموا وإلى الذين كانوا على أهبة قبول الإسلام، ولما نزلت آية الحساب في سورة البقرة ﴿وَإِن تُبْدُوا مَا فِي أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ اللَّهُ﴾.

فخاف الأصحاب والذين كانوا وراء الأصحاب، وسرت في نفوسهم ردود فعل للذكريات القديمة في الذي فعلوه قبل الإسلام أو بعد الإسلام، فذهبوا إلى النبي وقد جفّ الريق في الأفواه، وتحركت أصوات الداخل بالمرور في الخفايا، وأظهروا للرسول بغضب عدم ارتياحهم إلى هذه الآية

التي جاءت، كنشر كتاب في كتاب، غير أن النبي (ص) أعاد إلى قلوبهم الراجفة الطمأنينة والهدوء، وكان بعدئذٍ أن نزلت آية الوعد في سورة النور (الآية: ٥٥): ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ﴾.

فارتاح النبي إلى ارتياح الأصحاب، وأخذ في فترات الوحي يتلو عليهم ما نزل من القرآن، فمنهم من آمن بعدم الخوف من الخوف، ومنهم من طاع وسمع وذهب بالسمع والطاعة مذاهب مضمرات القلوب، فتباهى بالذي حصل في زهو وكبرياء، وفي أن النبي استجاب إلى أرادة هؤلاء في آية تنسخ آية، وسمع السيد الرسول أو بلغه ما كانوا يتحدثون به في مجالس الشوارع فسكت عنهم في إشفاق ورحمة فنزلت آية الإنذار للنبي في سورة الإسراء ﴿ وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِۦ عَلَيْنَا وَكِيلًا إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ إِنَّ فَضْلَهُۥ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا ﴾.

وفرح المعارضون في شماتة، واطمأنت قلوب الأثرياء الذين كانوا يتلاعبون في حقوق الفقراء ويخرجون على تعاليم النبي بالنفور والازدراء، وحسبوا بعد أن نزلت هذه الآية أن محمّدا قد جرده الله من النبوة ومن شرف الوحي فتمادوا في الافتراء والاعتداء، وما طال أمد هذه الظاهرة التي هزت المجتمع العربي هزاً وقد كان الوليد بن المغيرة وهو أكبر الأثرياء وأشدهم عداوة للنبي، حتى نزلت هذه الآية في سورة المدثر وهي تتناول الغني النافر ابن المغيرة ومن يلحق به من أجيال بعد أجيال:

﴿ ذَرْنِى وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴿١١﴾ وَجَعَلْتُ لَهُۥ مَالًا مَّمْدُودًا ﴿١٢﴾ وَبَنِينَ شُهُودًا ﴿١٣﴾ وَمَهَّدتُّ لَهُۥ تَمْهِيدًا ﴿١٤﴾ ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ﴿١٥﴾ كَلَّآ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ لِءَايَٰتِنَا عَنِيدًا ﴿١٦﴾ سَأُرْهِقُهُۥ صَعُودًا ﴿١٧﴾ إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ﴿١٨﴾ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿١٩﴾ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ نَظَرَ ﴿٢١﴾ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ وَٱسْتَكْبَرَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ﴿٢٤﴾ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ ﴿٢٥﴾ سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ﴿٢٦﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سَقَرُ ﴿٢٧﴾ ... ﴾ (المدثر/ ١١ ـ ٢٧).

وحدث بعد وفاة النبي (ص) أن تفرّق الأصحاب والأتباع وتشعبت آراؤهم، فريق قال إن الإسلام جاء بالدعوة إلى السلم والسلام، فليكن الإسلام كما أراده الله والنبي سلاماً وسلماً. وفريق آخر قال بالدعوة إلى الحرب لكي يفتحوا البلدان طريقاً للإسلام، وكان أنهم فتحوا الأرض والبلاد ولم يفتحوا العقول والقلوب.

من أجل ذلك ظهرت في المجتمعات الأجنبية حرب الكلام وحرب الأقلام كما ظهر في المجتمع الإسلامي خوف المسلمين من الإسلام، وقامت الخلافات تخلط العدالة في الظلم، وتضع الرحمة تحت أقدام العذاب، وخلطوا الإسلام بالعرب، وخلطوا العرب بالإسلام وكلمة الإسلام بالعرب، وكلمة الإسلام في مفهوم القوات الأجنبية هي العرب، وكلمة العرب هي الإسلام.

مراجع بالعربية

القرآن.

التوراة.

الإنجيل.

تفسير القرآن.

أصول الفقه **للشيخ محمّد** رضا المظفر.

الفقه على المذاهب الخمسة **للشيخ محمّد جواد مغنية**.

نور اليقين في سيد المرسلين **للشيخ محمّد الخضري**.

مختارات الأحاديث النبوية **للسيد أحمد الهاشمي**.

في خطى المسيح **لنصري سلهب**.

فهرس الكتاب المقدس.

قاموس الكتاب المقدس.

المراجع باللغة الإنكليزية

Islamic World William Macneill

The Mshnah Artsoccrol Mishnall.

What Christian Shoud Service.

Know About Judaism Rabbi Y. Eckstein.

Josephus Comrete Work William whiston.

Unger's Bible Dictionary Merril F. Unger.

Pathway To Power Leslie Davison.

Thomas Paine Sidney Hook.
The Wanderer's Cham Potok's.
History of the Jews.
The Philosophy of Religion Abrahim Heschel.
The Book of Beliers Opinoni Saadia Gaon.
Harper's Bible Commentary William Neil.
Ralph Emerson Selected Essays.
History of The Jews Larzar ziff.
The Varieties of Religion William James.
The Other Bible William Barnstone.
The Kabalah donnection Dr. Philip Berg.
Islam Observed Clifford Geetz.
The Kuzari Judah Halevi.
The Discover's D. Boorstein.
Religion in the Secular City Murry Cox.
The LivingTorah Rabbi A. Kaplan.
The Encyclopedia of Religion Virgilius Ferny.
Reform Judaism E. B. Borowitz.
To be A Jew Rabbi Y Donin.
The Torah An Theology Y. Lee.
Gospel Of the Lord Marcion of Sinope.
Does God Exist? Huns Kung.
What is A Jew? Rabbi M. Kertzer.
The Jewish Book Of Why A. J. Kalth.
The Jewish Mind Rafael Patai.
The Arab Mind Rafael Patai.
Complete work of Josephus.

محتويات الكتاب